سلسلة السياسة والمجتمع

معذبو الأرض

تأليف
فرانز فانون

ترجمة
الدكتور سامي الدروبي
الدكتور جمال الأتاسي

المكتبة التقدمية

دار الطليعة - بيروت

مُعذَّبو الأرض

FRANTZ. FANON

Les Damnés de la Terre

(François Naspero — Paris)

حقوق النشر باللغة العربية
محفوظة (لدار الطليعة) بيروت

الطبعة الثانية

كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦

فرانز فانون

معذبو الأرض

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي　　الدكتور جمال الأتاسي

منشورات دار الطليعة - بيروت

مقدّمة

في المقدمة التي وضعها جان بول سارتر لهذا الكتاب ، أهاب بالأوروبيين ان يقرأوه ، رغم أنه ليس موجّهاً إليهم. نعم، ان المؤلّف لا يتوجه بكلامه إلى الأوروبيين . انه لا يريد ان يفضح الاستعمار للمستعمِرين ، كما فعل ذلك قبله عددٌ من المؤلفين المستعمَرين ، الذين هضموا ثقافة المستمِر ، ثم رأوا ما هنالك من تناقض بين الدعوى الانسانية التي تدعيها أوروبا وبين جرائمها في حق الانسان . إن فانون لا يطمع في أن يحاور أوروبا ، أن يخجلها من نفسها ، ان يعرّي كذبها . انه يعلم ان الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالاقناع ، وان التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف . انك لا تستطيع أن تصفّي الاستعمار إلا بحمل السلاح ، بإسالة الدماء . ان فانون يائس على أن تثوب أوروبا إلى رشدها . وهو لذلك لا يتحدث اليها ، وإنما يتحدث إلى إخوته الذين حملوا السلاح وأخذوا يُسيلون الدماء فعلا، فإذا الاستعمار مكرَه على أن ينسحب من أراضيهم بخطوات ماتنفك تزداد سرعة. ولكن فانون يعرف ايضاً ان الاستعمار قد يخرج من الباب ليعود من النافذة ، لابساً ثوباً جديداً، مبدّلاً ملامح وجهه، مغيّراً معالم صورته. لذلك يقبض فانون عليه ، ويسلمه إلى جماهير الشعب التي أخرجته من ديارها ، لتصفيه . ان فانون يفضح الاستعمار الجديد. يفضح البورجوازية «الوطنية» التي لم تشارك في ثورة الشعب مشاركة صادقة ، ولا أهابت بالجماهير يوماً إلى النضال المسلح والكفاح العنيف ، وكانت لا تزيد على أن تقوم بمناورات سياسية من أجل أن يتصدق عليها المستعمر ببعض الامتيازات . إن فانون يبين لنا كيف تحاول هذه

البورجوازية « الوطنية » ان تسرق ثورة الشعب في لحظة النصر ، وان تنسبها اليها ، وان تتسلم مقاليد السلطة من يد المستعمر لتحل محله ، لتنوب عنه في استغلال الشعب واستثماره واضطهاده ، وكيلةً عن الاحتكارات الاستعمارية الكبرى، عميلةً لها ، شريكة معها في الغنائم . ان فانون يفرق بين الاستقلال الحقيقي والاستقلال الكاذب ، ويصف تواطؤ البورجوازية الوطنية ، ويفضح عجزها عن ان تكون بورجوازية خالقة ، ويبين أن البلاد المتخلفة يجب أن تستغني عن المرحلة البورجوازية ، وان تنتقل رأساً إلى بناء مجتمعها الاشتراكي.

نعم ان فانون لا يحاور أوروبا ، بل يخاطب الشعوب التي شهرت السلاح ، واخذت تنتزع استقلالها بالقوة ، فمنها من ظفر بسيادته ومنها من لا يزال يقاتل . انه يتحدث إلى أخوته المجاهدين .

* * *

هو زنجي من المارتينيك، من مستعمرة يحمل سكانها الجنسية الفرنسية. عانى في بلده شعور المذلة والهوان من وجود الاستعمار الفرنسي . ولكن أفقه الواسع وعقله النيّر وثقافته الغنية ، كل ذلك جعله لا يحقد على الاستعمار في وطنه فحسب ، بل في العالم كله . حتى أنه لا يتصور زوال الاستعمار تشفياً من المستعمرين ، بل خلاصاً لهؤلاء المستعمرين أنفسهم من اللاإنسانية التي تردوا فيها . جاء الى فرنسة طالباً ، فدرس الطب في مدينة ليون ، فأظهر في حياته الدراسية من التفوق والنبوغ ما خطف الأبصار ، فكان طالباً مرموقاً بين زملائه واساتذته . وكان أثناء دراسته يقوم بنشاط سياسي : يشارك في أعمال طلبة المستعمرات ، ويتصل بالمناضلين السياسيين . حتى إذا تخرج متخصصاً في الطب العقلي عُيّن طبيباً للامراض العقلية بمدينة بليدة بالجزائر . وهناك عمق شعوره الثوري ، وأدرك أن الاستعمار واحد ، وعرف من دراسته لمرضاه من الجزائريين ان الاستعمار يشوّه الطبيعة الإنسانية ، يضيّع الإنسان . ومن مراقبته للثورة رأى كيف تحمل الى النفوس البرء والتطهر ، وكيف تغسل

المجتمع الثائر من أدران الجمود والتأخر ، فتبعث في الحياة اندفاعة جديــدة ، وتحمل الى الثائرين قيماً جديــدة ، وتعتقهم من قيود العادات البالية التي كان تمسكهم بها قبل ذلك صورة من صور المقاومة للاستعمار وقيمه وأخلاقــه وحضارته . وهذا ما سجله في كتابه « العـام الخامس للثورة الجزائرية » . لقد كان فانون طبيباً لامعاً من أطباء الأمراض النفسية يشار إليه بالبنان ، وهو ما يزال في ريعان الصبا، حتى لقد نشرت له بحوث دلّـت على إحاطة نادرة وحدس قوي ومنهج سليم في البحوث والتقصي . وكان الى ذلك إنسانيــاً رحيم القلب فياض العاطفة رقيق الشعور ، فهو يعايش مرضاه حياتهم الداخلية ، ويتعاطف معهم ، وينفذ الى أعماق نفوسهم ، فيدرك بوجدانه من أمر مشكلاتهم ما يعجز عنه التحليل النظري وحده . ولكن عاطفته الرقيقة هذه مع المرضى والمتعبين والمعذبين كانت تقابلها في نفسه ثورة عارمة عنيفة على الاضطهاد والاستغــلال والغطرسة العنصرية ، فكان في سلوكه من العنفـوان والإباء والجموح مع الذين يمثلون الروح الاستعمارية أو لا يتنكرون لها ولا يقاتلونها ما حمل بعض السطحيين من الأوروبيين على القول بأن في الرجل « عقدة نقص » ، فهو يكره البيض لأنه أسود . والواقع أن فانون لا يكره البيض ، وإنما يكره الاستعمار الذي يمارسه البيض ، وهو على كل حال لا يدع لعاطفته الفردية أن تملي عليــه سلوكه ، وأن تكون ينبوع تفكيره . وهذا ما يشير إليه سارتر في مقدمته ، وهو ما يظهر لنا من إصرار فانون في غير موضع من كتابه، على ان تستمد الثورة عقيدتها وروحها وخطتها من التحليل العقلي والادراك الموضوعي ، وان تستند دائماً الى وعــي واقعي وتنظيم عملي ونظرية متكاملة . وعن هذا إنما تحدث حين عقد فصلاً من كتابه « معذبو الأرض » للكلام عن مواطن الضعف في الانطلاق العفوي .

رافق فانون ثورة الجزائر منذ بدايتها. وآمن بأنها ثورة جذرية، ثورة إنسانية أصيلة لن تنحصر في أرضها ، وشعبها . بل ستُردَد أصداؤها في افريقيا كلها ، وفي جميع البلاد المستعمَرة المتخلفة ، وستكون نداءً وإهابة ، مثالاً وقدوة . وآمن فانون بأن الثورة هي الطريق الوحيدة الى تحرير الإنسان ، وبـأن العمل

الثوري هو السبيل الى أن يتجاوز الانسان وضعه ، وإلى أن ينتقل من العبودية والضياع الى الوجود الحر الكريم الخصب .

وقرر فانون أن ينضم الى صفوف الثائرين ، أن يشاركهم الكفاح مشاركة فعّالة ، أن يخوض هذه المعركة التي تخوضها الجزائر بكل ما أوتي من قوة. حقق فانون في نفسه وفي سلوكه الانسجام بين القول والعمل . أدرك هذا المثقف المستعمَر رسالة المثقف المستعمَر ، فأبى أن يعيش حياة فردية ، أبى أن يستسلم لمغريات التأمل السادر والتذوُّق الفني بل والبحث العلمي ، أبى أن يستسلم لمغريات المعيشة السهلة التي يرضاها لأنفسهم مثقفون مستعمَرون أصبحوا بلا جذور تربطهم بشعبهم ، فضوت نفوسهم وجف ماؤهم ، وصوّحت شجرة حياتهم فهي لا تعطي جنى بل تتساقط منها ثمار كاذبة . أدرك فانون أن على المثقف المستعمَر أن يحارب مع شعبه بعضلاته قبل أن يتصدق عليه بفضلات يسميها إنتاجاً أدبياً أو ثقافياً أو فنياً أو علمياً . فلا ثقافة لأمة إلا في إطار حريتها وسيادتها .

ففي عام ١٩٥٧ قدّم فانون استقالته من منصبه كرئيس لمستشفى الأمراض العقلية ، في رسالة رائعة تصف جريمة الاستعمار الغربي الذي يضيّع الانسان ويقتل إنسانيته . لقد رأى فانون أن استمراره في العمل الطبي والعلمي يصرفه عن الواجب الأكبر الذي تصغر إزاءه كل الواجبات الأخرى ، فاستقال من وظيفته ، وانخرط في ثورة الجزائر انخراطاً كاملاً. واستقبلته ثورة الجزائر باسطة له ذراعيها فاتحة له قلبها ، وأسندت إليه مهمات شتى ، منها تمثيل ثورة الجزائر في كثير من المؤتمرات الدولية رئيساً لوفودها ، فكان في هذه المؤتمرات فكراً ناصعاً وناراً مشبوبة وحركة لا تهدأ ، واشتهر خاصةً بالخطاب الرائع الذي ألقاه في مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية الذي عقد بمدينة أكرا ، وفيه عبّر فانون عن إيمانه بأن العنف هو السبيل الوحيدة التي يجب ان يسلكها المستعمَرون للتحرر من السادة المضطهِدين المستغلين الذين يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الانسان وهم يذبحونهما حيثما وجدوا .

قلنا إن هذا المثقف المستعمَر قد أدرك ان على المثقف المستعمَر أن يقاتل

مع شعبه بعضلاته أولاً وقبل كل شيء . وقد حارب فانون بعضلاته فعلاً ، حارب بجسمه ، مثلما حارب بفكره وقلمه ، ولكن جسم فانون لم يسعفه الى آخر الشوط ، بل تداعى في منتصف الطريق . لقد اضطر فانون الى الانسحاب من المعركة التي يستعمل فيها عضلاته ، الى معركة لا يستطيع فيها أن يستعمل إلا فكره الذي تخصبه ثورية باسلة ، وتغذيه ثقافة قوية ، وترفده قدرة فذّة على الملاحظة والتتبع والاستدلال . وفي هذه المرحلة من حياته إنما وضع كتابه « معذبو الأرض » بينما المرض الخبيث يأكل دمه . فانظر الى الشجاعة : كان فانون « الطبيب » يعرف أن الموت يهم به في كل لحظة ، وأنّ سرطان الدم لن يمهله إلا بضعة أشهر في أكثر تقدير ، فأخذ يغذّ خطاه ليفرغ من وضع كتابه قبل ان يستقبل الموت راقداً في فراشه لا واقفاً على قدميه . لقد ألف كتابه « العام الخامس لثورة الجزائر » قبل ان يستفحل الداء ، حتى إذا استشرى مرضه أدخل أحد مستشفيات سويسرا ، ثم نقل من سويسرا الى مستشفى بواشنطن ، وهناك أنجز كتابه (معذبو الأرض) . وفي السابع من كانون الأول عام ١٩٦١ نفذت برودة الموت بخطى بطيئة الى قلب فانون، ولفظ الرجل آخر أنفاسه، ولما يتم الأربعين من عمره . وحملت الطائرة جثمانه الى تونس ، ومن هناك اخترق المجاهدون بنعشه الحدود مكفناً بالعلم الجزائري ، ليدفنوه في تراب الجزائر عند مرابض المقاتلين كما أراد . كذلك مات فانون المارتينيكي الأصل الجزائري النضال ، الانساني التفكير، تاركاً في جسم المستعمرين آثاراً من خدش أظافره، وتاركاً في ربوع الوطن الجزائري أنواراً من دفق عقله وقلبه ، حتى قال عنه بن بيلا : « لم يكن فانون رفيقاً في المعركة فحسب ، بل كان مرشداً وموجهاً ، لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكري والسياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية » .

هناك دروس كثيرة استخرجها فانون من مشاركته في ثورة الجزائر، ومن تتبعه لسائر الثورات التحريرية التي شبّت في افريقيا خاصة ، وفي العالم الثالث عامة . ولا نريد في هذه المقدمة العجلى ان نلخص هذه الدروس ، فهي مبسوطة للقارىء في الكتاب الذي نضعه بين يديه ، وانما نريد ان نضع خطاً تحت فكرة

أساسية بين أفكاره تطل على ثورتنا العربية الراهنة، وهي الفكرة المتعلقة بدور البرجوازية . وربما كان من الواجب ان نشير قبل ذلك الى صفة يتسم بها كتاب فانون ، تجعله ذا طابع أصيل ، كما تجعل استخراج خطوطه الأساسية وأفكاره الموجهة أمراً ليس على قدر كبير من السهولة . ان فانون لا يعرض آراءه عرضاً تعليمياً ان صح التعبير . انه لا يقرر مبادىء معينة ثم يروح يستخرج من هذه المبادىء ما يترتب عليها ، ويتفرع عنها مستمداً من التجربة والواقع أمثلة توضحها ، كما يفعل ذلك مؤلف تصفح الوقائع أولا ثم استخرج قوانينها ، حتى اذا أراد بسط النتائج التي خلص اليها ، ابتدأ بعرض الأفكار العامة ، كاسياً إياها بالملاحظات العيانية بعد ذلك ، وانما هو يشرك قارئه رأساً في ملاحظة الواقع نفسه ، نافذاً الى أعماقة متسللاً بين ثناياه متعرجاً في منعطفاته ، مدركاً إياه بالملاحظة القوية والعاطفة المتقدة في آن واحد . ومن هنا ينشأ ما قد يضيق به القارىء من تكرار حيناً، ومن تناقض ظاهري حيناً آخر، ومن قفز ووثب وتدفق وجريان سريع قد لا تستطيع مجاراته بغير لهاث في أحيان أخرى . ولكن لعل هذا الذي قد يبدو آفة من ناحية ، هو من ناحية اخرى ميزة كبيرة ، ففي الفكر الثوري يجب ان يتعانق العقل والواقع هذا التعانق ، فما يغيب الواقع الثوري المتأجج وراء المعاني المجردة الباردة ، وانما يجيء في الصورة من الغليان مثلُ الذي في الأصل ، وتحمل الصورةُ من الألوان مثلَ الذي في الأصل . ان في كتاب فانون فكراً وشعراً معاً : فيه إلى العقل الذي يحلل خفقُ جناح يثب ، وأنغام موسيقى تدوّي .

* * *

إن الفكرة الأساسية التي يدور عليها كتاب فانون « معذبو الأرض » هي ان العنف هو السبيل الوحيدة للقضاء على الاستعمار . إن هذا العالم الاستعماري الذي قام على العنف لا يمكن الخلاص منة إلا بالعنف . والجماهير المستعبَدة تشعر بهذه الحقيقة شعوراً قوياً ، ولكن شعورها هذا لا يصير الى كفاح مسلح

فوراً . ذلك ان الأحزاب السياسية البورجوازيـــة تستبعد فكرة العنف بل تخشى العنف . هي عنيفة في أقوالها معتدلة في مواقفها ، لا يزيـــد نشاطها على مقالات وخطب تتحدث عن حقوق الإنسان وتقرير المصير . ان هذه الأحزاب لا تدعو الى العنف لأنها لا تهدف الى قلب الأوضاع التي أنشأهـا الاستعمار رأساً على عقب ، ولا تطمع في اكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر . كل مـا تريده هو أن تفاوض المستعمِر وتنتهي معه الى تسوية . إن البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن لجوء الشعب الى العنف ، تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الإعصار الجبار ، تخشى أن تكنسها هذه الريح العاصفة فلا تفتأ تقول للمستعمرين « ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، فالجماهير مـا تزال تثق بنا ، فأسرعوا اذا كنتم لا تريدون أن تعرضوا للمخاطر كل شيء». هكذا تصبح الأحزاب البورجوازية وسيطاً بين المستعمِر والمستعمَر ، وسيطاً بين الطرفين يعرض عليهما المصالحة وينصحهما باللاعنف. إن الأحزاب البورجوازية ما أن ترى الشعب يتحرك لمواجهة الاستعمار بالعنف ، حتى تهرع الى المستعمرين قائلة : « الأمر خطير جداً. وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله. فلا بد من ايجاد حل، لابد من إيجاد تسوية ». إن البورجوازية التي تسمى وطنية لا تريد في الواقع على ان تتواطأ على الشعب مع جلاديه في مرحلة كفاح التحرير، حتى لكأن مهمتها هي ان تحول دون سير الكفاح الى آخر مداه، وان تجعله يجهض في منتصف الطريق بتسوية تحقق مصالح فريقين أحدهما الاستعمار والثـاني هو البورجوازية الوطنية ، وعلى حساب الشعب إنما تضمن مصالح هذين الفريقين ، على حسـاب السيادة الوطنية والاستقـــلال الحقيقي . لو أراد فانون ان يستشهد على هذه الحقائق بأمثلة مستمدة من غير حركات التحرير التي شبّت في افريقيـا خاصة في السنين الأخيرة ، لو أراد ان يستشهد بحركات التحرير الوطني التي قامت في البلاد العربية مثلاً ، لذكر تآمر البورجوازية الوطنية في سورية حين تنازلت للأتراك عن لواء الاسكندرون في سبيـل الوصول الى تسوية ١٩٣٦ ، ولذكر المؤامـرة الكبرى التي حبكتها بورجوازية البلاد العربية مع الاستعمار، وأخرجتها في تلك

التمثيلية الرهيبة التي أدّت الى احتلال فلسطين ، وتشريد أهلها ، وارتكاب جريمة من أكبر الجرائم التي عرفها التاريخ .

ولكن تواطؤ البورجوازية مع الاستعمار لا يستطيع ان يقف حائلا دون لجوء الشعب الى العنف وانتزاع استقلاله بيده .

فما هو دور هذه البورجوازية بعد الاستقلال ؟ ان البورجوازية الوطنية التي تتسلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة . قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفراً ، أو هي على الأقل لا تقاس ابداً بالقوة الاقتصادية التي تملكها بورجوازية البلاد المستعمِرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية ان تحل محلها . تظن البورجوازية الوطنية لغرورها أن في وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار ، وان تكون خيراً منها . ولكن الاستقلال ما يلبث ان يضعها في مآزق حرجة ، فاذا هي تلجأ الى الدولة التي كانت تستعمر البلاد ، وترتمي في أحضانها .

إن هذه البورجوازية الوطنية عاجزة . ان نشاطها لا يتعدى التجارة والزراعة البدائية والمهن الحرة ، فليس بينها أناس من رجال الصناعة الذين يمتازون بالإقدام . إن البورجوازية الوطنية في البلاد المتخلفة ليست متجهة نحو الإنتاج والابتكار والبناء والعمل . وانما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة . إن نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية سماسرة ، لا نفسية رواد ومجدّدين . انها تكتفي بأن تكون وكيلة . وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة بل جعل نفسها وسيطاً بين البلاد وبين رأسمالية متخفية ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد . إن البورجوازية الوطنية عاجزة عن النهوض بالدور التاريخي الذي نهضت به البورجوازية الأوروبية . فما عرفت به بورجوازية أوروبا من انها كانت نشيطة رائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية العاجزة التي دلفت الى الشيخوخة قبل ان تمر بعهد مراهقة جريئة مبدعة . وقلْ مثل هذا وأكثر من هذا عن الاقطاعية المتفسخة التي لا تقوم بأي عمل إيجابي . فلا

تجديد في أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية. إن البورجوازية الزراعية في البلاد المتخلفة بورجوازية كسولة ، ليس لها من هم إلا تكديس الأرباح ، والتمرغ في الشهوات ، واقتناء الأشياء التي يدفع الى اقتنائها حب الظهور من سيارات فخمة ، وفيلات باذخة ، ومظاهر لاحظ علماء الاقتصاد أنها من مميزات البورجوازية المتخلفة .

هذه على الصعيد الاقتصادي ، فماذا على الصعيد القومي ، صعيد الوحدة القومية ؟ إن من المعروف ان البورجوازية الوطنية في أوروبا هي التي حققت الوحدات القومية فيها . فما هو دور البورجوازية المتمثلة في رسالة التوحيد القومي هذه ؟ يقول فانون : « ان البورجوازية الوطنية ، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة ، ولأنها لا تنظر الى أبعد من أطراف أظافرها ، تتكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزة عن بناء الأمة على أسس خصبة وطيدة مثمرة » . وقد بيّن فانون كيف ان البورجوازية الوطنية في البلاد الافريقية التي استقلت حديثاً قد أيقظت الخلافات الاقليمية ، والمنازعات القبلية ، وفتلت الوحدة القومية لحرصها على منافعها ، وتفضيلها هذه المنافع على المصلحة القومية والوحدة القومية . إنها تحول دون كل جهد تبذله شعوب افريقيا من أجل تحقيق وحدتها . إن البورجوازية الوطنية التي تسارع إقليماً بعد إقليم الى تشييد كيانها الخاص ، والى إقامة نظام وطني استغلالي، تنشىء الحواجز تلو الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق « حلم » الوحدة . إن البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة ، قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليوناً من البشر ، في سبيل تحررهم وتحقيق إنسانيتهم « لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الافريقية لا يمكن أن تتحقق إلا باندفاع الشعوب ، أي رغم أنف البورجوازية ومصالحها».

لئن ضرب فانون أمثلة مستمدة من افريقيا على كون البورجوازيات الوطنيه تحارب الوحدة القومية ، فلقد كان في وسعه ، لو شهد نكسة الانفصال التي مني بها الشعب العربي ، أن يضرب مثالاً فذاً بين الأمثلة على تآمر البورجوازية

الوطنية مع الاستعمار على الوحدة القومية في سبيل مصالحها . ولو نظر الى واقع البلاد العربية التي تحكمها بورجوازيات وأوتوقراطيات مستغلة، لكان له في منظر هذه الأقطار أوضح مثال على ما أراد بيانه . إن البورجوازية حين تحكم لا يمكن إلا أن تضعها مصالحها في صف الانفصالية ، مهما تتظاهر بغير ذلك . هل من المعقول أن يقبل الوحدة عن رضا أولئك الذين يستأثرون بالانتفاع بثروات البترول لأشخاصهم ؟ إن الوحدة القومية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس إزاحة البورجوازيات المتحكمة ، وفسح مجال اللقاء للشعب في جميع أقطاره على صعيد المصلحة الشعبية والبناء الاشتراكي . ولا يكون ذلك إلا بنضال شعبي موحد في جميع الأقطار يهيىء لانقضاض الشعب على بورجوازيته الحاكمة ، وإزاحتها وتدميرها . في البلاد المتخلفة يجب ان لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والتحكم. إن على البلاد المتخلفة أن تثب فوق المرحلة البورجوازية، لأنها مرحلة عقيمة، ان بورجوازية كالبورجوازية التي نشأت في أوروبا قد استطاعت ان تضع أيديولوجيا . ان تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة قد قامت بدور ما . أما في البلاد المتخلفة فليس هناك بورجوازية تشبه البورجوازية التي نشأت في أوروبا ، بل هناك فئة محتكرة طويلة الأنياب، نهمة، شرهة، تسيطر عليها فكرة الربح التافه، عاجزة عن تمثل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار. إنها لا تقوم بأي دور وليس لها أية فائدة. إنها تافهة ، وان كانت تحجب تفاهتها بمظاهر شتى : من أبنية فخمة ، وسيارات امريكية . إنها لا تستطيع أن تحقق النمو والازدهار . إن على البلاد المتخلفة ان تسير رأساً في طريق الاشتراكية .

حين نرى ثورة الجزائر تقفز الآن فوق المرحلة البورجوازية ، وتمضي قُدُماً الى بناء المجتمع الجزائري الاشتراكي ، وتدرك مصيرها العربي فتربط بين الجزائر وبين سائر الأقطار العربية برباط الوحدة القومية العربية ، فإننا نفهم عندئذ معنى قول بن بيلا عن فانون : « لم يكن فانون رفيقاً في المعركة فحسب ، بل كان مرشداً وموجهاً ، لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكري والسياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية » .

تصدير

بقلم : جان بول سارتر

منذ زمن غير بعيد جداً ، كان عدد سكان الأرض مليارين ، منهم خمسمائة مليون من البشر ، ومليار وخمسمائة مليون من « السكان الأصليين » . فالأولون يملكون « الكلمة » ، والآخرون يستعيرونها . وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدور الوسطاء ملوكٌ صغار مشترون ، وإقطاعيون ، وبورجوازية زائفة ملفقة تلفيقاً. وكانت الحقيقة في المستعمرات تبدو عارية ، وكانت عواصم « البلاد المستعمِرة » تؤثرها مكسوّة ، وكان على السكان الأصليين في البلاد المستعمَرة ان يحبّوا هذه العواصم ، كما يحبون أمهاتهم إن صح التعبير . وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الأصليين. أخذت تصطفي فتياناً مراهقين، وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادىء الثقافة الأوروبية ، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة ، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان ، ثم تردّهم الى ديارهم بعد إقامة قصيرة في العاصمة وقد زيّفوا . ان هؤلاء الأفراد الذين هم أكاذيب حية تسعى ، قد اصبحوا لا يملكون ما يقولونه لأخوتهم ، لأنهم لا يزيدون على ان يرجّعوا ما يسمعون ، فمن باريز ولندن وامستردام كنّا نحن نهتف قائلين : « بارتينون، أخـوّة » فاذا بشفاه نفرج في مكان من الأمكنة بأفريقيا أو آسيا ، لتقول : « بينون !.. خوّة !.. » وكان ذلك هو العهد الذهبي .

وانتهى ذلك العهد ، وأخذت الأفواه تنفتح من تلقـــاء ذاتها . وظلت الأصوات الصفراء والسوداء تتحدث عن نزعتنا الإنسانية ،ولكنهاأصبحت تفعل ذلك لتأخذ علينا أننا غير إنسانيين . وأصبحنا نصغي الى تلك الآراء اللبقة التي تعبّر عن المرارة ، دون ان نشعر بالاستياء . لقد أحسسنا في أول الأمر بدهشة يمازجها كِبْر : كيف ؟ أيتكلمون من تلقاء أنفسهم ؟ أنظروا مع ذلك مـــاذا خلقنا منهم ؟ وكنا لا نشك في أنهم يقبلون مثلنا الأعلى ، ما دامـــوا يتهموننا بأننا لسنا أوفياء له.وآمنت أوروبا عندئذ برسالتها:لقد حملت الثقافة الاغريقية الى الآسيويين ، لقد خلقت هذا النوع الإنساني الجديد ، نوع الزنوج الاغريق — اللاتين . وكنا نضيف الى ذلك سراً فيما بيننا : دعوهم يعوون ، فذلك يسرّي عنهم . إن الكلب الذي ينبح لا يعض .

وجاء جيل جديد نقل المسألة الى أفق آخر . لقد حاول كتّاب هذا الجيل وشعراؤه ان يشرحوا لنا ، في كثير من الصبر ، أن قيمنا لا تناسب حقيقـــة حياتهم ، وأنهم لا يستطيعون ان ينبذوها نبذاً كاملاً ، ولا ان يهضموها . وكان معنى ذلك على وجـه الإجمال هو هذا : إنكم تشوهوننا ، فالمذهب الإنســاني الذي تأخذون به يدعي أننا وسائر البشر سواء ، وأعمالكم العرقية تفرق بيننا وبين غيرنا . وكنا نصغي الى كلامهم في كثير من الاسترخـــاء : إن حكام المستعمرات لا تُدفع لهم أجور من أجل ان يقـــرأوا هيجل ، وهم لذلك لا يقرأونه كثيراً ، ولكنهم ليسوا في حاجة الى هذا الفيلسوف لكي يعرفـوا أن هذه الضمائر الشقية المعذبة تربكها تناقضاتهم . ولا جدوى . فلنجعل شقاءهم اذن يستمر ، فلن يخرج من ذلك إلا هواء . وكان الخبراء يقولون لنا : اذا كان في تأوهاتهم هذه ظل من مطمح ، فهو التوق الى الانضمام . ولا مجـــال طبعاً لمنحهم هذا الانضمام : وإلا كنا نهدم النظام الذي يقوم على زيادة الاستغلال كما تعلمون . ولكن يكفي ان ندع هذه الجزرة ماثلة امـام أعينهم حتى يركضوا . أما أن يثوروا فذلك ما كنا مطمئنين الى أنه لن يكون : أي واعٍ من هؤلاء السكان الأصليين يمكن ان يمضي الى قتل أبناء أوروبا الحسان لأن غايته الوحيدة

هي أن يصير أوروبياً مثلهم ؟ لقد كنا إذن نشجع تلك الألوان من الأسى ، وفي ذات مرة لم نجد ضيراً في ان نمنح أحد الزنوج جائزة جونكور : وكان ذلك قبل عام ٣٩ .

١٩٦١ . اسمعو هذا الكلام : « علينا أن لا نضيّع الوقت في ثرثرات عقيمة أو في لغو يبعث على الاشمئزاز . فلنترك هذه الاوروبا التي لا تفرغ من الكلام عن الانسان وهي تقتله جماعات حيثما تجده ، في جميع نواصي شوارعها ، وفي جميع أركان العالم . لقد انقضت قرون .. وهي تخنق الانسانية كلها تقريباً باسم « مغامرة روحية مزعومة . » . إن هذه اللهجه جديدة . من ذا الذي يجرؤ أن يتكلم بهذه اللهجة ؟ إنه إفريقي ، إنسان من « العالم الثالث » كان مستعمَراً . وهو يضيف الى ذلك قوله : « ان أوروبا قد بلغت من الجنون والاضطراب في سرعتها أنها ماضية الى الهاوية .. التي يحسن الابتعاد عنها » . وبتعبير آخر : إنها قد أفلست . هذه حقيقة لا يجمل قولها — أليس كذلك يا أعزائي أهل أوروبا ؟ — ، ولكنها حقيقة نحن جميعاً مقتنعون بها في قرارتنا ، بين اللحم والجلد منا .

على أن هناك تحفظاً لا بد من ذكره . حين يقول فرنسي لفرنسيين مثلاً : « لقد أفلسنا » — وهذا ما أعرف أنه يحدث كل يوم تقريباً منذ عام ١٩٣٠ — فهو إنما يلقي خطاباً يفيض بالعاطفة ، خطاباً تضطرم فيه نيران من الحنق والحب ، والخطيب هنا يضع نفسه في المغطس مع جميع أهل وطنه . ثم إنه يضيف على وجه العموم قوله « اللهم إلا أن ... » . ومعنى ذلك واضح ، فهو يريد ان يقول : علينا أن لا نقترف بعد الآن خطيئة واحدة . فاذا لم تُتبّع وصاياه بحذافيرها ، فعندئذ ، عندئذ فقط ، تنهار البلاد . ومعنى ذلك أن ههنا وعيداً يعقبه نصح ، وكلام الخطيب لا يؤذي سامعيه ما دام يصدر عن الذاتية القومية المشتركة . أما حين يقول فانون أن أوروبا ساعية الى حتفها ، فهو لا يصيح صيحة من ينبه الى الخطر ، وإنما هو يشخص الداء . ان هذا الطبيب لا يدعي أن أوروبا مائتة لا محالة — فقد رأى الناس معجزات — لا ولا يقدم لها

وسائل الشفاء ، وانما هو يلاحظ انها تحتضر . ويلاحظ ذلك من خارج ، معتمداً على الأعراض التي استطاع أن يجمعها . أما ان يعالجها فلا . أن في رأسه هموماً أخرى . انه لا يعنيه ان تفطس أو ان تعيش . وكتابه لهذا السبب يبعث على الفضيحة . وإذا همستم ساخرين منزعجين : « يا لهذا الذي يقدمه لنا ! » غابت عنكم الطبيعة الحقيقية للفضيحة : ذلك ان فانون لا « يقدم » إليكم شيئاً البتة . ان كتابه الذي يراه الآخرون كاوياً يظل عندكم صقيعاً . ان مؤلف هذا الكتاب يتحدث عنكم في كثير من الأحيان ، ولكنه لا يتحدث إليكم أبداً. انتهى عهد جوائز جونكور السوداء وجوائز نوبل الصفراء . لن يعود زمن الحائزين على الجوائز من المستعمَرين : « أيها السكان الأصليون في جميع البلاد المتخلفة ، إتحدوا ! » . يا له من سقوط ! لقد كان الآباء لا يتحدثون إلا إلينا ، فاذا بالأبناء اصبحوا يرفضون حتى ان يعدونا أهلاً لأن يخاطبونا . والكلام يدور علينا . صحيح ان فانون يذكر في عرض الحديث جرائمنا المشهورة : صطيف ، هانوي ، مدغشقر ، ولكنه لا يضيع وقته في استنكارها ، وانما هو يستعملها . ولئن كان يفضح أساليب الاستعمار ، ويحلل ما هنالك من حركة معقدة في العلاقات التي تجمع وتفرق بين المستوطنين وبين « سكان العاصمة الأوروبية » ، فهو إنما يفعل ذلك لأخوته ، لأن هدفه هو ان يعلمهم كيف يحبطون مؤامراتنا .

وخلاصة القول ان « العالم الثالث » يكتشف نفسه ويخاطب نفسه بهذا الصوت . ويعلّم الناس أن هذا العالم ليس متجانساً ، فما نزال نجد فيه شعوباً مستعبدة ، وأخرى نالت استقلالاً كاذباً ، وأخرى تقاتل من أجل ان تحصل على سيادتها ، وأخرى فازت بحرية كاملة ولكنها تحيا مهددة بعدوان استعماري تهديداً دائماً . ان هذه الفروق قد نشأت من التاريخ الاستعماري ، أي نشأت من الاضطهاد . ففي بلد من البلدان اكتفت العاصمة الاوروبية بأن تشتري عدداً من الاقطاعيين ، وفي بلد آخر خلقت من هنا وهناك طبقة بورجوازية من المستعمَرين ، عاملة على أن تفرّق لتسود ، وفي بلد ثالث ضربت ضربة مزدوجة ، فجعلت

المستعمَرة استثماراً وإسكاناً في آن معاً . وهكذا أكثرت أوروبا الانقسامات والتعارضات ، وصنعت طبقات ، وخلقت في بعض الاحيان نزعات عرقية ، وحاولت بجميع الحيل ان تولّد وأن تزيد انقسام المجتمعات المستعمَرة إلى طبقات . وان فانون لا يخفي شيئاً : ان على المستعمرة ان تناضل ضد نفسها من أجل أن تناضل ضدنا ، أو قل ان هذين النضالين ليسا إلا نضالاً واحداً. ينبغي لجميع الحواجز الداخلية أن تنصهر في نار المعركة ، وعلى البورجوازية العاجزة التي تتألف من أصحاب أعمال ومن مستخدمين لدى الأوروبيين ، وعلى عمال المدن الذين ينعمون دائماً ببعض الامتيازات ، وعلى الشغيلة المتكدسين في المعسكرات ، على هؤلاء جميعاً أن يصطفوا في مواقع الجماهير الفردية التي هي الينبوع الحقيقي للجيش الوطني الثوري . فإن الفلاحين في هذه المناطق التي تعمّد الاستعمار أن يعطل فيها التقدم، سرعان ما يكونون هم الطبقة الراديكالية إذا هم ثاروا ، ذلك انهم يعرفون الاضطهاد عارياً ، ويقاسون منه اكثر كثيراً مما يقاسي عمال المدن ، ومن أجل أن تحول بينهم وبين الموت جوعاً لا يكفيك إلا أن تهدم جميع الأنظمة . ومتى انتصرت هذه الطبقة كانت الثورة القوية اشتراكية . ومتى أمكن وقف اندفاعتها فتسلمت البورجوازية المستعمرة زمام السلطة ، بقيت الدولة الجديدة في أيدي الاستعماريين رغم السيادة الصورية . وذلك ما يدل عليه مثال كاتانجا دلالة واضحة . وهكذا فان وحدة العالم الثالث لم تتحقق ، وانما هي مشروع يمضي في سبيله الى التحقيق ، ماراً باتحاد جميع المستعمَرين تحت قيادة طبقة الفلاحين في كل بلد من البلدان بعد الاستقلال أوقبله على السواء . ذلك ما يشرحه فانون لإخوته بافريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية : إما ان نحقق الاشتراكية الثورية معاً في كل مكان ، وإما ان يصرعنا ، واحداً بعد واحد ، الطغاةُ الذين كانوا يحكموننا . إن فانون لا يخفي شيئاً : لا يخفي ضروب الضعف ، ولا أنواع الشقاق ، ولا ألوان التزييف : هنا انطلقت الحركة انطلاقة سيئة ، وهناك أخذت تفقد سرعتها بعد انتصارات مدوّية ، وهنالك توقفت فإذا أريد لها ان تُستأنف كان لا بد للفلاحين من أن يلقوا بورجوازيتهم

في البحر . ويحذّر المؤلف قارئه من أخطر أنواع الضياع : الزعيم ، عبادة الشخص ، الثقافة الغربية ، وكذلك عودة الماضي البعيد من الثقافة الافريقية : إن الثقافة الحقة هي « الثورة » . ومعنى هذا ان هذه الثقافة تنشأ والنار حامية . ان فانون يتحدث بصوت عالٍ . وفي وسعنا نحن الأوروبيين أن نسمعه: والدليل على ذلك انكم تمسكون الآن بأيديكم هذا الكتاب . تُرى ألا يخشى أن تستفيد الدول الاستعمارية من صراحته ؟

لا ، انه لا يخشى شيئاً . لقد أصبحت أساليبنا رثة بالية : قد تستطيع أن تؤخر التحرر في بعض الأحيان ، ولكنها لن توقفه . ولا نتخيلن ان في وسعنا أن نعدّل طرائقنا : ان الاستعمار الجديد ، هذا الحلم الكسول الذي تحلمه عواصم أوروبا ، ليس إلا هواء . ان « القوى الثالثة » لا وجود لها ، أو هي البورجوازيات العميلة التي جعلها الاستعمار في الحكم . ان أساليبنا المكيافلية ليس لها سلطان كبير على هذا العالم الذي تيقظ تيقظاً قوياً وفضح أكاذيبنا واحدة بعد أخرى . وليس للمستوطن المستعمِر الا ملجأ واحد هو القوة ، حين يبقى له من شيء . وليس للساكن الأصلي إلا اختيار واحد ، هو الاختيار بين العبودية والسيادة . هل ينفع فانون أو يضره أن تقرأوا كتابه أو لا تقرأوه ؟ إنه لاخوته إنما يفضح أساليبنا الماكرة العتيقة ، موقنا بأننا لا نملك لها بديلا . لإخوته هؤلاء إنما هو يقول : لقد وضعت أوروبا أرجلها على أراضينا ، فينبغي لنا ان نظل نجرحها الى أن تسحبها . واللحظة مؤاتية ، فما من شيء يحدث في بنزرت أو في أليزابث فيل أو في مجاهل الجزائر ، إلا وتعلم به الأرض قاطبة . والكتل متعارضة ، ويتهيب بعضها بعضاً ، فلنستفد من هذا الشلل ، ولندخل في التاريخ ، وليكن دخولنا المفاجىء هذا عاملا يجعل التاريخ عاماً لأول مرة . لنقاتل . وحسبنا الخنجر الصابر سلاحاً إذا أعوزتنا اسلحة اخرى .

أيها الأوروبيون ، إقرأوا هذا الكتاب، أدخلوا فيه . فبعد ان تسيروا بضع خطوات في الظلام ستجدون أناساً أجانب قد تحلقوا حول النار . اقتربوا منهم ، وأصغوا اليهم : إنهم يبحثون في المصير الذي يهيئونه لوكالاتكم وعملائها الذين

يحمونها . قد يرونكم ، ولكنهم سيستمرون في التحدث حتى دون أن يخفضوا أصواتهم . إن عدم اكتراثهم هذا يحزّ في القلب : إن آباءهم الذين كانوا مخلوقات تعيش في كنفكم ، مخلوقات أنتم خالقوها ، إن آباءهم أولئك كانوا نفوساً ميتة . كنتم تغدقـون عليهم النور ، وكانوا لا يتجهون بالحديث إلا إليكم ، وكنتم لا تكلفون أنفسكم عناء الرد على هؤلاء البدائيين . ولكن الابناء يجهلونكم: إنهم يستضيئون ويستدفئون بنار ليست ناركم . ولسوف تشعرون ، وأنتم منهم على مسافة تهيباً ، أنكم متخفون متسللون في الظلام خائفون . لكل دوره ، وفي هذه الظلمات التي سينبجس منها فجر جديد ستكونون أنتم البدائيين .

لعلكم قائلون : ما دام الأمر كذلك فلنرم هذا الكتاب من النافذة . لماذا نقرؤه إذا لم يكن مكتوباً لنا ؟ الحق ان هناك باعثين يجب ان يدفعـــاكم الى قراءة هذا الكتاب : أولهما ان فانون يشرح أمركم لإخوته ، ويحلل لهم أنواع الضياع التي نعيشها: فاستفيدوا من ذلك لتكشفوا لأنفسكم عن انفسكم من حيث أنكم في حقيقتكم أشياء. ان ضحايانا يعرفوننا بواسطة جراحهم وأغلالهم: وهذا ما يجعل شهادتهم صادقة لا ترد . يكفي ان يُظهرونا على ما صنعناه بهم حتى نعرف ما صنعناه بأنفسنا . أهذا مفيد ؟ نعم ، لأن أوروبا مهددة ان تموت تهديداً كبيراً. قد تقولون ايضاً : ولكننا نعيش في أوروبا ونستنكر الإفراط. صحيح: إنكم لستم مستوطنين في البلاد المستعمَرة . ولكنكم لستم خيراً من اولئـــك المستوطنين . إنهم روّادكم ، أنتم أرسلتموهم الى ما وراء البحار، وقد أغنوكم. لقد أنذرتموهم، قلتم لهم إنكم ستنكرون أعمالهم من أطراف الشفاه إذا هم أسرفوا في سفك الدماء . مثلكم في ذلك مثل دولة – أية كانت هذه الدولة – تغـذي في الخارج جمهرة من المثيرين والمحرضين والجواسيس ، فاذا قبض عليهم أنكرتهم . إنكم وأنتم من أنتم تحررية ً وانسانية وحباً للثقافة إلى حد التصنع ، تتظاهرون بأنكم تنسون أن لكم مستعمرات، وان هناك أناساً يقومون بأعمال القتل الجماعي باسمكم. ان فانون يكشف لرفاقه – لعدد من رفاقه خاصة، هم الذين ظلوا مغالين بعض المغالاة في غربيتهم – يكشف لهؤلاء الرفاق تضامن « سكان أوروبا» مع

عملائهم في المستعمرات . تسلحوا بالجرأة وأقدموا على قراءة هذا الكتاب، لهذا السبب الأول وهو أنه سيشعركم بالخجل ، والخجـــل كما قال ماركس عاطفة ثورية . ها أنتم أولاء ترون أنني انا أيضاً لا أستطيع ان أتخلص من الوهم الذاتي. انا أيضاً اقول لكم : « لقد ضاع كل شيء ، اللهم إلا ان . . » . أيها الأوروبي، انني أسرق كتاب عدو ، فاتخذه وسيلة لشفاء أوروبا من دائها. انتفع بهذا الكتاب.

* * *

وإليكم السبب الثاني : إذا تركتم جمجمات سوريل الفاشية وجـدتم ان فانون هو أول من يعيد مولـّدة التاريخ الى النور بعد أنجلز . ولا يذهـبن بكم الظن إلى ان دماً مسرفاً في الغليان أو الى ان اشقاء الطفولة هو الذي جعله يحب العنف حباً خاصاً : ان فانون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك . ولكن هـذا يكفي لأن يصوّر ، مرحلة مرحلة ، ذلك الديالكتيك الذي يخفيه عنـكم النفاق الليبرالي ، والذي أنتجنا كما أنتجته .

لقد كانت البورجوازية ، في القرن الماضي ، تعد العمال أناسـاً حسودين قد أفسدتهم شهوات فظة ، ولكنها كانت تحرص على ان تحشر هؤلاء الجفـــاة المتوحشين في عداد نوعنا الانساني : وإلا فكيف يمكنهم أن يبيعوا قدرتهم على العمل بيعاً حراً اذا هم لم يكونوا بشراً ؟ كانت النزعة الانسانية في فرنســـا وانجلترا تدّعي انها تساوي بين جميع أفراد البشر .

ولا كذلك في العمل الإكراهي . ان العمل الإكراهي لا يقوم على تعاقد . ولا بد عدا ذلك من التخويف . وهكذا ظهر الاضطهـاد . ان جنودنا فيما وراء البحار ينبذون فكرة المساواة بين البشر ، ويطبقون على النوع الانساني مبـدأ « العدد المغلق » : إذ لما كان لا يستطيع احد ان يسلب رزق أخيه الانسان أو ان يستعبده أو ان يقتله الا ويكون قد اقترف جريمة ، فقد أقروا هذا المبدأ وهو ان المستعمَر ليس شبيه الانسان . وعُهد الى قوتنا بمهمة إحالة هذا اليقين المجرد الى واقع : صدر الأمر بخفض سكان البـــلاد الملحقة الى مستوى القرود

الراقية ، من أجل تسويغ ان يعـاملهم المستوطن معاملته للدواب . ان العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبَدين، وانما هو يحاول ان يجردهم من إنسانيتهم . انه لن يدخر جهداً من أَجل ان يقضي على تقاليدهم، ومن أجل ان يحل لغتنا محل لغاتهم، ومن أجل ان يهدّم ثقافتهم دون ان يعطيهم ثقافتنا. لسوف يصعقهم تعباً. فإذا ظلوا يقاومون رغم الجوع والمرض، فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة : لسوف تصوب الى الفلاح بنادق . ويأتي مدنيون فيستقرون على أرضه ، ويكرهونه بالسياط على ان يزرعها لهم « فـإذا قاوم أطلق الجنود النار ، فأصبح ميتاً ، واذا خضع أنهار ولم يعد إنساناً . لسوف يمزق العار والخوف خلقه، لسوف يحطمان شخصه. ويتم تحقيق هذه المهمة على أيدي خبراء اختصاصيين ، والطبول تقرع : ان « الدوائر السيكولوجيـة » ليست حديثة العهد ، لا ولا غسل الدماغ . ومع ذلك ، رغم هذه الجهود كلهـا ، لم يتحقق الهدف في أي مكان : لم يتحقق في الكونغو حيث كانوا يقطعون أيـدي الزنوج ، ولا تحقق في انجولا حيث كانوا ، منذ زمن قصير جداً ، يثقبون شفاه المتذمرين ليقفلوها بأقفال. لست أدّعي ان من المستحيل ان تبدل انساناً فتجعله بهيمة ، وانما اقول انك لا تصل الى ذلك الا باضعافه إضعافاً كبيراً ، واللطمات لا تكفي ابداً ، ولا بد من المبالغة في التجويع . وهذه هي المشكلة المزعجة : انك حين تجعل فرداً من افراد نوعنا الإنساني أشبه بدابة ، تقلل إنتـاجه ، والإنسان الذي يصبح حيواناً أهلياً يكلف من النفقات أكثر مما يعطي من أرباح. ولهذا السبب يُضطر المستوطنون الى وقف الترويـض في منتصف الطريق ، وتكون النتيجة ان لا يكون هذا المستعمَر إنساناً ولا بهيمة ، وإنما يكون من نوع « السكان الأصليين » : انه وقد أُحيـط بالضرب والتجويع والمرض والتخويف ، ولكن الى حد محدود ، يتصف خلقه دائماً بصفات واحدة ، سواء أكان أصفر أم أسود أم أبيض ، وهـذه الصفات هي انه كسول ماكر لص ، يعيش بالقليل ولا يعرف إلا القوّة .

مسكين هذا المستوطن : لقد عُرّي تناقضه . ان عليه ان يقتل أولئـك

الذين ينهبهم ، كما يفعل الجني فيما يقال . ولكن ذلك غير ممكن : أليس عليه ايضاً ان يستغلهم ؟ وهكذا ، فلأنه لا يستطيع ان يمضي في التقتيل الى حد إبادة النوع ، ولا يستطيع ان يمضي في الاستعباد الى حد جعل البشر بهائم، يفقد مواطىء قدميه ، وينقلب الأمر ، فإذا بمنطق محتوم يؤدي الى زوال الاستعمار .

ليس فوراً . ان الأوروبي يسيطر . صحيح انه خسر ، ولكنه لا يدرك ذلك . انه لا يعلم بعد ان « السكان الأصليين » ليسوا كما يتصور « السكان الأصليين » . هو يقول انه يلحق بهم شراً من أجل ان يهدّم او يكبح الشر الذي فيهم ، بعد ثلاثة أجيال لن تولد فيهم غرائزهم الفاسدة من جديد . . أية غرائز ؟ أهي التي تدفع العبيد الى قتل سيدهم ؟ فكيف لا يرى في هذه الغرائز قسوته هو وقد انقلبت عليه ؟ كيف لا يرى في وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين وحشيّته هو وقد امتصوها بجميع المسام، وأصبحوا لا يستطيعون ان يبرأوا منها؟ سبب ذلك بسيط : ان هذا الشخص المتجبر الذي أطاش صوابَه ما يتمتع به من سلطة كاملة، ومايشعر به من خوف عليها، أصبح لا يتذكر جيداً أنه كان إنساناً، وانما هو يحسب نفسه سوطاً او بندقية ، حتى بلغ من ذلك الى الاعتقاد بأن ترويض « العروق المنحطة » انما يكون باخضاع منعكساتهم للربط الشرطي . انه ينسى الذاكرة الإنسانية ، ينسى الذكريات التي لا تمّحي . وهناك خاصة، هذا الشيء الذي لعله لم يعلمه يوماً : أننا لا نصبح ما نحن الا بالإنكار الداخلي الجذري لما صُنع بنا ثلاثة أجيال ؟ ان الأبناء ، منذ الجيل الثاني ، ما كادوا يفتحون أعينهم حتى رأوا آباءهم يُضرَبون . وبذلك تكونت فيهم صدمات ، على حد تعبير علم الأمراض النفسية ، مدى الحياة . وهذه العدوانات التي ما تنفك تتكرر لا تحملهم على الخضوع ، وانما تلقيهم في تناقض لا يطاق سيدفع الأوروبي ثمنه عاجلاً أو آجلاً . لك بعد ذلك ان تروّضهم هم ايضاً ، وان تعلمهم العار والألم والجوع ، فلن تسير في أجسامهم إلا حنقاً يغلي غليان البراكين وتساوي قوته قوة الضغط الذي يقع عليهم . قلتم : إنه لا يعرف إلا القوة ؟ طبعاً. هي اولاً قوة المستوطن،

وهي بعدئذ قوتهم ، انها قوة واحـــدة بعينها ترتد إلينا كإقبال خيالنا علينا من قرارة مرآة . لا يخدعنكم أمر هذه القوة . إنهم بهذا الحنق المسعـور ، وهذا الغيظ وهذه المرارة ، وبرغبتهم الدائمة هذه في ان يقتلونا، وبهذا التقبض المستمر في العضلات القوية التي تخاف ان تسترخي ، إنهم بهـذا كله بشر . لقد اصبحوا كذلك بسبب المستوطن الذي أراد لهم أن يكونوا أناساً معذّبين ، كما أصبحوا كذلك من أجل ان يقاوموه . ان الكره الذي ما يزال أعمى وما يزال مجرداً هو كنزهم الوحيـد : ان « السيد » هو الذي يثير فيهم هذا الكره ، لأنـه يريد أن يجعلهم كالبهائم ، وهو لا يظفر بتحطيم هذا الكره، لأن مصالحه تجعله يتوقف في منتصف الطريق ، وهكذا يظل « السكان الأصليون » بشراً ، بما للمضطهِـد من قوة وعجز يستحيلان عندهم الى رفض عنيد للمصير الحيواني . أما ما عـدا ذلك فواضح . انهم كسالى ، طبعاً . ذلك منهم تخريب مقصود . وهم ماكرون لصوص : مرحى ! ان سرقاتهم الصغيرة تدل على بداية المقاومة التي لم تتنظم بعد. لا هذا فحسب : إن منهم من يؤكد ذاته بأن يلقي بنفسه عاري اليــدين على البنادق . هؤلاء هم أبطالهم . ومنهم من يجعلون أنفسهم رجالاً بقتل اوروبيين . وتقتلونهم : لصوصاً وشهداء ، فإذا بعذابهم يوري النيران في نفوس الجمـــاهير المذعورة .

المذعورة ، نعم : ففي هذه اللحظة الجديدة يصير العدوان الاستعماري في نفوس المستعمَـرين الى ذعر . ولست أعني بالذعر ما يشعرون به من خوف إزاء أساليبنا في القمع ، هذه الأساليب التي ينضب معينها ، لست أعني هذا فحسب، وإنما أعني أيضاً ذلك الخوف الذي يثيره في نفوسهم حنقهم هم . إنهم محاصرون بين أسلحتنا المصوّبة إليهم، وبين تلك الاندفاعات الرهيبة وتلك الرغبة في القتل التي تصعد من أعماق قلوبهم ، والتي لا يتعرفون عليها دائماً ، لأنها ليست في أول الأمر عنفهم هم ، وإنما هي عنفنا نحن وقد انقلب واشتد وأصبح يمزقهم. والحركة الأولى التي تقوم في نفوسهم هي ان يدفنوا دفناً عميقـــاً ذلك الغضب المكتوم الذي تستنكره أخلاقهم وأخلاقنا معاً ، والذي ليس مع ذلك إلا آخر ملجـأ

تفزع إليه إنسانيتهم . اقرأوا فانون تعلموا ان جنون القتل إنما هو اللاشعور الجمعي للمستعمَرين في زمن عجزهم .

إن هذا الحنق المكتوم يظل يلوب في صدور المضطهدين فيفسدهم هم أنفسهم حين لا يستطيع ان ينطلق . وهم ينتهون من أجل التحرر منه الى ان يقتل بعضهم بعضاً ، فالقبائل تقتتل فيما بينها لأنها لا تستطيع أن تجابه العدو الحقيقي – وفي وسعكم ان تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لتغذية خصوماتهم – . ان الأخ الذي يشهر السكين على أخيه يحسب أنه يهدّم تهديماً نهائياً تلك الصورة الكريهة لفسادهما المشترك . غير ان هذه الضحايا التكفيرية لا تروي ظمأهم الى الدم . ولن يمتنعوا عن ان يسيروا الى الرشاشات إلا إذا تواطأوا معنا : وهذا التخلي عن الانسانية ، هذا التخلي الذين ينفرون منه ، تراهم يعجّلون تقدمه بإرادتهم نفسها . وهم يحمون أنفسهم من أنفسهم بأسيجة غيبية يراها المستوطن فيتسلّى بها : فتارة يحيون خرافات عتيقة فظيعة ، وتارة يكبلون أنفسهم بطقوس دقيقة . هكذا يهرب المصاب بمرض الحصار من اللجاجة العميقة التي تلح عليه ، بأن يفرض على نفسه لوثات تطارده في كل لحظة . انهم يرقصون: ذلك يشغلهم ، وذلك يرخي عضلاتهم المتقبضة تقبضاً مؤلماً ، ثم ان الرقص يحاكي ، سراً ، على غير علم منهم في كثير من الأحيان ، كلمة « لا » التي لا يستطيعون أن يقولوها ، ويحاكي أعمال القتل التي لا يستطيعون ان يقترفوها . وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الأخير : المسّ . فالأمر الذي كان في الماضي هو الظاهرة الدينية في بساطتها ، الأمر الذي كان في الماضي نوعاً من الاتصال بين المؤمن وبين المقدس ، يتخذونه سلاحاً يحاربون به اليأس والمذلة : فأشخاص وما شابهها تحل فيهم ، وتسيطر على عنفهم وتبعثره تشنجاتٍ تمضي الى حد استنفاد القوى . وهذه الشخوص السامية تحميهم في الوقت نفسه : ان المستعمَرين يحمون أنفسهم من الضياع الاستعماري بالمغالاة في الضياع الديني ، مع هذه النتيجة الوحيدة آخر الأمر ، وهي انهم يجمعون الضياعين ، وان كلا من هذين الضياعين يعزز الضياع الآخر . هكذا

في بعض أمراض الذُهان ، نرى المصابين بالهلوسة يقررون ذات صباح ، وقد تعبوا من الإهانات التي تُصب عليهم كل يوم ، ان يسمعوا صوت ملاك يمدحهم . ولا تنقطع الشتائم بسبب ذلك، وإنما هي تتناوب بعد الآن مع الغبطة والهناءة. ذلك دفاع ، وهو نهاية مغامرتهم : لقد انقسم الشخص ، وهو يسير الآن نحو الجنون . أضيفوا إلى ذلك ، بالنسبة الى بعض التعساء المصطفين اصطفاء صارماً، أضيفوا ذلك المسّ الآخر الذي تحدثت عنه منذ قليل : أعني الثقافة الغربية . رب قائل يقول : لو كنت مكانهم لظللت أوثر حفلات الزار على معبد الأكروبول . إذن لقد فهمتم . ولكنكم مع ذلك لم تفهموا فهماً كاملاً،لأنكم لستم في مكانهم . وإلا لادركتم انهم لا يستضيعون أن يختاروا : انهم يجمعون . ان لهم عالمين ، وهذا ما يجعلهم ممسوسين مسّين : انهم يرقصون طوال الليل ، حتى إذا طلع الفجر هرعوا الى الكنائس يسمعون الصلاة . ويتفاقم الصدع يوماً بعد يوم . إن عدونا يخون أخوته ويتواطأ معنا . ويفعل إخوته مثل الذي فعل. إن صفة « السكان الأصليين » عصاب أدخله المستوطن على المستعمَرين وغذّاه ، بموافقتهم .

وأن تطالب بالمصير الانساني وأن تنكره في آن واحد ، فذلك تناقض انفجاري . وهو لذلك ينفجر ، تعلمون هذا مثلما أعلمه . اننا نعيش في زمن الانفجار : زيادة الولادات تزيد العوز ، وعلى المواليد الجدد أن يخشوا الحياة أكثر قليلاً مما يخشون الموت ، لذلك يجرف العنف جميع الحواجز . ففي الجزائر ، وفي أنجولا لا يُقتل الأوروبيون علناً . هذه لحظة الانفجار ، هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل العنف : ان العنف يرتد الينا ، ويضربنا ، ثم نحن لا نفهم ان هذا العنف هو عنفنا نحن اكثر مما فهمنا ذلك في المرات الأخرى . ان الليبراليين يظلون مشدوهين : انهم يعترفون اننا لم نكن على قدر كاف من الكياسة في معاملة « السكان الأصليين » ، وإنه كان أدنى إلى العدل والتعقل ان نمنحهم بعض الحقوق في حدود الإمكان ، فلقد كانوا لا يطمعون في أكثر من أن نسمح لهم بدخول هذا النادي المحكم الإغلاق ، نوعِنا الانساني ، ان نقبلهم

في هذا النادي أفواجاً بلا مزكـّين : وها هم أولاء يجتاحهم ذلك الانفجـار الوحشي المسعور كما يجتاح أشرار المستوطنين . واليسار في العواصم الأوروبية منزعج : انه يعرف القدر الحقيقي المفروض على « السكان الأصليين » ، ويعرف ما يقع عليهم من اضطهاد لا يرحم ، وهو لا يستنكر تمردهم ، عالماً بأننا فعلنا كلا شيء من أجل تحريضهم على هذا التمرد ، ولكنه يقول : ان هنالك حدوداً مع ذلك : لقد كان ينبغي لهؤلاء المقاتلين ان يحرصوا على أن يتحـــلوا بروح الفروسية ، فتلك خير وسيلة يبرهنون بها على أنهم بشر . وهو يؤنبهم في بعض الأحيان قائلا : « لقد أسرفتم . ولن ندعمكم بعد الآن .» ولكنهم لا يكترثون بهذا التهديد ، ذلك لانهم يعرفون قيمة هذا الدعم الذي يمن بـــه عليهم ، ويستخفون به . لقد ادركوا هذه الحقيقة الصارمة منذ بدأوا حربهم ، وهي : أننا جميعاً سواء ، لقد استفدنا جميعاً منهم ، وليس عليهم أن يبرهنوا لنا على شيء ، ولن يشكروا لأحد منةً . ان هناك واجباً واحداً يقع على عاتقهم ، ان هناك هدفاً واحداً يجب أن يحققوه ، هو ان يطردوا الاستعمار بجميع الوسائل . والمتبصرون منا مستعدون ، عند الضرورة ، لأن يقبـــلوا هذا ، ولكنهم لا يستطيعون الامتناع عن أن يعـدوا هذا العنف وسيلة غير إنسانية البتة يعمد اليها جماعة هم دون البشر من أجل أن يُمنحوا حقوق الانسانية ، فامنحوهم هذه الحقوق بأقصى سرعة ، وليحاولوا عندئـذ بأعمال سلمية أن يستحقوها . ألا ان فضلاءنا لعرقيون .

وسيستفيدون من قراءة فانون : لسوف يوضح لهم فانون توضيحاً كاملا ان هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة ، ولا هو تيقظ غرائز وحشية ، بل ولا هو ثمرة حقد : ان الانسان نفسه يشكل نفسه تشكيلا جديداً . هذه الحقيقة ، اعتقد اننا علمناها ونسيناها . ان علائم العنف لا يستطيع لين أن يمحوها : ان العنف وحده يستطيع ان يهدّمها . والمستعمَر يشفى من عُصاب الاستعمار بطرد المستعمِر بالسلاح . إنه حين ينفجر حنقه يسترد شفافيته المفقودة ، ويعرف نفسه بمقدار ما يصنع نفسه . نحن من بعيد نعدّ حربه انتصاراً للتوحش ، ولكن هذه

الحرب تؤدي بذاتها الى تحرير المقاتل بالتدريج ، فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئاً بعد شيء . أنها منذ تبدأ لا ترحم . فإما ان يظل المرء مذعوراً، وإما ان يجعل غيره مذعوراً. معنى ذلك: إما الاستسلام لانقسامات حياة مزيفة ، وإما الظفر بالوحدة الولادية . حين يقبض الفلاحون على البنادق ، فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها، وان جميع الممنوعات تنهار واحداً بعد آخر: ان سلاح المقاتل هو إنسانيته . إذ في أول مرحلة من مراحل الثورة ، يجب عليه ان يقتل . انه حين يقتل أوروبياً يضرب بحجر واحد ضربتين: يزيل مضطِهداً ومضطهَداً في آن واحد: اذ يبقى بعد القتل رجل ميت ورجل حر. والذي يبقى حياً يشعر ، لأول مرة ، بأرض قومية تحت قدميه . ففي هذه اللحظة لا تكون الأمة بعيدة عنه : انه يراها حيث يمضي ، حيث يكون ، لا أبعد من ذلك أبداً ، انها تتحد بحريته. ولكن، بعد المفاجأة الأولى ، يتحرك جيش الاستعمار: وعندئذ فإما أن يتحد المستعمَرون واما ان يُقتلوا . هكذا تضعف الخلافات القبلية وتجنح الى الزوال : أولاً لأنها تهدد « الثورة » بالخطر ، وثانياً (وهذا أعمق) لأنها لم يكن لها من وظيفة إلا ان تحرف العنف نحو أعداء ليسوا بأعداء. وحين تبقى هذه الخلافات – كما في الكونغو – فإنما يكون مرد ذلك الى ان عملاء الاستعمار يغذّونها ويعززونها . وتسير الإمة . ويشعر كل أخ أنها موجودة في كل مكان يقاتل فيه أخوة آخرون . ان حبهم الأخوي هو الوجه الآخر للكره الذي يحملونه لكم : هم أخوة بهذا المعنى : أن كلاًّ منهم قد قتل ، وانه يمكن بين لحظة وأخرى ان يكون قد قتل . ان فانون يبين لقرائه حدود « العفوية » ، ويبين ضرورة « التنظيم » وأخطاره . ولكن مهما يكن مدى المهمة فان الوعي الثوري يعمق عند كل نمو في العمل . وتزول العقد الأخيرة . دعك من حديثهم عن « عقدة الارتباط » لدى جندي جيش التحرير الوطني . ان الفلاح ، وقد تحرر على العماوة ، أصبح يعرف حاجاته: لقد كانت تقتله ، ولكنه كان يحاول ان يجهلها . وهو الآن يكتشفها مقتضياتٍ لا نهاية لها . ففي هذا العنف الشعبي – الذي يصمد خمس سنين ، وثماني سنين كما

فعل الجزائريون - لا يمكن ان تتميز الضرورات الحربية والاجتماعية والسياسية بعضها عن بعض . إن الحرب - ولو لم تطرح إلا مشكلة القيادة والمسؤوليات - تنشىء بنيانات جديدة ستكدن أولى مؤسسات السلم . هذا هو الانسان اذن ينشأ حتى في تقاليد جديدة هي بنات مقبلة لحاضر رهيب ، ها هوذا ينال شرعيته ، بحق سيولد ، بحق يولد كل يوم في نار المعركة . فمتى قُتل أو رحل او ذاب آخر مستوطن مستعمِر ، زال نوع الأقلية ، وأخلى المكان للأخوة الاشتراكية . وليس هذا بكافٍ أيضاً . ان هذا المناضل يحرق المراحل . انكم لتقدّرون جيداً انه لا يجازف بجلده من أجل ان يجد نفسه في مستوى الانسان القديم ، انسان « البلاد المستعمِرة » . انظروا الى صبره الطويل . لقد يحلم أحياناً بـ « ديان - بيان - فو » جديدة . ولكن ثقوا انه لا يعتمـــد على ذلك حق الاعتماد . ايه صعلوك يناضل ، وهو في الفقر والبؤس ، ضد أناس أغنياء مسلحين تسليحاً قوياً . وهو إذ ينتظر الانتصارات النهائية ، أو لا ينتظر شيئاً في كثير من الأحيان ، يثير في أعدائه الحقد ، ولا يتحقق هذا من غير خسارات فظيعة . ان جيش الاستعمار يصبح كاسراً . فهو يقوم بعمليات تطهير ، ويشن حمـــلات انتقامية ، ويقتل النساء والأطفال . والمناضل يعرف ذلك . إن هذا الانســان الجديد يبدأ حياته من نهايتها . انه يعد نفسه ميتاً بالقوة . لسوف يُقتل . انه لا يرتضي ان يعرض نفسه للقتل فحسب ، بل هو موقن بأنه مقتول لا محالة . إن هذا الميت بالقوة قد فقد زوجته وأبنــاءه . لقد بلغ من فرط رؤيته لاحتضار الآخرين انه لا يريد ان يعيش بقدر ما يريد ان ينتصر . غيره سيستفيـــد من النصر ، لا هو . لقد سئم هو . لكن هذه السآمة هي مصدر شجاعة لا تصدق . نحن نجد انسانيتنا سابقة على الموت واليأس ، أما هو فيجدها بعد العذاب وبعد الموت . نحن كنا ننثر هواءً ، أما العاصفة فهو . انه ابن العنف يستمد منه في كل لحظة انسانيته . لقد كنا بشراً على حســـابه ، وهو يصبح بشراً على حسابنا . يصبح إنساناً أفضل .

* * *

هنا يتوقف فانون . لقد دل على الطريق . إنه وهو الناطق بلسان المناضلين، قد طالب باتحاد القارة الافريقية ضد جميع الخلافات وجميع الانقسامات ، قد طالب بوحدة القارة الافريقية ضد هذه الخلافـات والانقسامات . ولو شاء أن يصف وصفاً كاملا هذه الحادثة التاريخية ، أعني حادثة الخلاص من الاستعمار ، لكان عليه ان يتحدث عنا ، وذلك ليس موضع كلامه . ولكننا بعد ان نقرأ كتابه يظل هذا الكتاب يتتابع فينا رغم مؤلفه . ذلك أننا نشعر بقـــوة الشعوب الثائرة ، ونرد على هذه القوة بالقوة . فهنـــاك إذن لحظة جديدة من العنف ، وإلينا إنما ينبغي الرجوع في هذه المرة ، لأن العنف أخذ يبادلنا بمقدار ما يتبدل المستعمَر بواسطته . إن لكل إنسان ان يقود أفكاره كما يشاء، ولكن شريطة ان يفكر . ففي أوروبا اليوم ، أوروبا التي أطاشت صوابها الضربات التي تكال لها ، في فرنسا وفي بلجيكا وفي انجلترا ، يجب ان يعد أقل تغافل فكري تواطؤاً إجرامياً مع الاستعمار . ان هذا الكتاب لم يكن في حاجة الى مقدمة ، خاصة وانه غير موجه إلينا . ومع ذلك كتبت له هذه المقدمة ، من أجل أن أمضي بالديالكتيك الى أقصاه . انهم يخلصوننـــا من الاستعمار ، نحن ايضاً ، أجلَ أوروبا . انهم يجتثون بعملية دامية ، المستعمِر الموجود في كل منا . لننظر في أنفسنا ، ولنرَ ، إذا كانت لنا شجاعة ، ما الذي يحدث لنا .

يجب أولاً ان نواجه هذا المنظر غير المتوقع . تعرّي دعوانــا الانسانيـة . هذه هي دعوانا الانسانية مكشوفة العوارت غير جميلة . انهـــا لم تكن إلا ايديولوجيا كاذبة . لقد كانت تسويغاً مزوّقاً للنهب والسلب . لقد كانت رقتها وغندرتها كفالة وضمانة لعدواننا . إن لهم وجهاً لطيفـاً هؤلاء الذين لا يحبون العنف . ليسوا ضحايا ولا هم جلادون ! ولكن دعك من هذا الكلام ! إن لم تكونوا ضحايا ، حين تقوم الحكومة التي رفعتموها بالاستفتاء ، ويقوم الجيش الذي خدم فيه إخوتكم الصغار ، بأعمال ابادة للنوع الانساني ، بلا تردد ، وبلا عذاب ضمير ، فإنكم جلادون ولا شك . وإذا اخترتم ان تكونوا ضحايـــا بتعريض أنفسكم لسجن يوم أو يومين، فأنتم لا تزيدون على ان تنسحبوا . ويجب

ان لا تنسحبوا ، يجب ان تبقوا الى النهاية . افهموا اخيراً هذه الحقيقـة : لو ان العنف قد بدأ في هذا المساء ، ولو ان الاستغلال والاضطهاد لم يوجدا على الأرض ، فإن اللاعنف الذي تنادون به قد ينفع في تهدئة الشجار . أما وان النظام كله ، وحتى أفكار اللاعنف التي تنادون بها ، هي ثمرة اضطهـاد عمره ألوف السنين ، فإن سلبيتكم لا تزيد على ان تضعكم في صف المضطهـِدين .

إنكم تعلمون حق العلم أننا مستغِلون . إنكم تعلمون حق العـلم أننا سلبنا « القارات الجديدة » ذهبها ومعادنها ثم بترولها ، وجئنا بذلك كله الى بلادنا القديمة . وقد حصَّلنا من ذلك نتائج رائعة : قصوراً وكاتدرائيـات وعواصم صناعية . ثم حين كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة اسواق البلاد المستعمَرة ان تزيل الأزمة او ان تحول مجراها . وأتخمت أوروبا بالثروات ، ومنحت صفـــة الانسانية لجميع سكانها على السواء ، فالانسان في بلادنا شريك في الجريمة ، لأننا أفدنا جميعاً من استغلال المستعمرات . ان هذه القارة الدسمة الصفراء تنتهي الى ما يطلق عليه فانون اسم « النرجسية » بحق . ان كوكتو ينزعج من باريز « هذه المدينة التي تتحدث في كل لحظة عن نفسها » . وأوروبا ، هل تفعل غير هذا ؟ وذلك المسخ الذي فاق أوروبـا ، أمريكا الشمالية ؟ يا لهـا من ثرثرة : حرية ، مساواة ، أخوة ، محبة ، شرف ، وطن ، وما لا أدري ايضاً ! وكأن هذا الكلام لا يمنعنا من ان نقول في الوقت نفسه كلاماً يعبـّر عن العصبية العرقية : زنجي قـذر ! وكان بعض الطيبين ، الليبراليين الليِّنين — اي بعض الاستعماريين الجدد — يدعون أنهم يستغربون هـذا التناقض . وذلك خطأ أو كذب مقصود . فلا شيء أقرب الى الانسجام المنطقي عندنا من نزعـة انسانية عرقية ، لأن الأوربي لم يستطع ان يجعل نفسه انساناً إلا بخلق عبيد ومسوخ . ولم تنكشف هذه الخدعة ما ظل هنـاك أناس يقال لهم « سكان أصليون » . لقد كانوا يغطون بهذه الموضوعـــة المجردة ، موضوعة النوع الانساني العام ، أعمالاً لا تتفق مع هذه الموضوعة : كانوا يرون هناك على الجهة الأخرى من البحر كائنات هي دون الانسان ، قد تستطيع بعد ألف عام أن تصل

بفضلنا الى الحالة التي نحن عليها . كانوا إذن يخلطون بين النوع الانساني والصفوة. واليوم يكشف السكان الأصليون عن حقيقتهم ، فيكشف نادينا عن ضعفه. لقد كان نادينا أقلية لا أكثر من ذلك ولا أقل . بل هناك ما هو أسوأ من ذلك: ما دام الآخرون يصبحون بشراً بمقاتلتنا ، فنحن إذن أعداء النوع الانساني . إن الصفوة تكشف عن طبيعتها الحقة : إنها عصابة . إن قيمنا الغالية تفقد أجنحتها . فلو نظرت إليها من كثب لم تجد منها واحدة غير ملطخة بالدم . إذا أردتم أمثلة فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة : ما أكرم فرنسا ! من ؟ أنحن كرماء ؟ فما قولكم إذن في حوادث صطيف؟ ما قولكم في هذه السنين الثماني من حرب كاسرة أزهقت أرواح أكثر من مليون جزائري ؟ ولكن ثقوا أنهم لا يأخذون علينا اننا خنّا رسالة ما ، لسبب بسيط هو انه لم تكن لنا أية رسالة . ان الكرم هو بعينه موضوع الجدل . فهذه الكلمة الرنانة ليس لها إلا معنى واحد هو منح حقوق ، وهؤلاء البشر الذين نواجههم ، هؤلاء البشر الجدد المتحررون ، ليس لأحد في نظرهم قدرة على أن يمنح شيئاً لأحد ، ولا له هذا الامتياز . ان لكل امرىء جميع الحقوق . وحين سيتاح لنوعنا الانساني يوماً ان يتكوّن ، فلن يعرّف بأنه مجموع سكان الكرة الأرضية ، وإنما سيُعرّف بأنه الوحدة اللانهائية لما بينهم من تبادل وتشارك . وهنا أقف عن الكلام ، ففي وسعكم ان تتموا العمل بغير عناء . انه ليكفيكم ان تنظروا الى فضائلنا الارستقراطية نظرة سديدة ، لأول مره وآخر مرة ، حتى تدركوا أنها تموت . وكيف لها ان تبقى حية بعد فناء ارستقراطية الذين أنشأوها من أناس هم دون الانسان ! ان معلقاً بورجوازياً - واستعمارياً - أراد ان يدافع منذ بضع سنين عن الغرب فلم يجد إلا هذا الكلام : « نحن لسنا ملائكة ، ولكننا ، نحن ، نشعر بعذاب الضمير » . يا له من اعتراف ! لقد كانت قارتنا تملك في القديم عوّامات أخرى : البارثنون ، شارتر ، حقوق الانسان ، الصليب المعقوف . ونحن نعرف الآن قيمة هذه العوامات . لقد أصبحوا لا يطمعون في إنقاذنا من الغرق إلا بذلك الشعور المسيحي جداً ، الشعور بإثمنا - ها أنتم ترون

إذن انها النهاية : إن المياه تحف بأوروبا من كل جهـــة . فما الذي حدث ؟ ان الجواب على هذا السؤال بسيط : لقد حدث أننا كنا نصنع التاريـــخ ، فأصبح التـاريخ الآن يصنعنا . لقد انقلبت الآن نسبة القوى ، والتخلص من الاستعمار ماضٍ في طريقه . وكل ما يستطيـع الجشعون ان يحـاولوا فعله هو ان يؤخروا إتمامه .

ولا تزال « العواصم الأوروبية » العتيقة تدلي في هذا بدلوها ، وتورّط في معركة خاسرة منذ الآن جميع قواها . ان هذه الوحشية الاستعمارية الهرمة التي صنعت لبيجو واضرابه ذلك المجد المشكوك فيه ، نحن نجدها الآن في نهـــاية المغامرة مضاعفة وغير كافية . لقد أرسلوا الى الجزائر كل ما يمكن إرســاله من قوى ماتزال ترابط هنالك بغير نتيجة . لقد غـيّر العنف اتجـــاهه ؛ كنا ونحن منتصرون ، نمارسه دون ان يبدو أنه يفسدنا : كان هذا العنف يحلل الآخرين ، بينما تظل إنسانيتنا ، نحن البشر ، سليمة لم يمسسها أذى . كان سكان البـــلاد المستعمِرة ، وقد وحدت بينهم الفائدة ، يطلقون على اشتراكهم في الجرائم اسم الحب والأخوة . ولكن هذا العنف يُدحر اليوم في كل مكان ، فيرتد هو نفسه إلينا عن طريق جنودنا ، فينفذ الى داخلنا ، ويخالطنا مخالطة المس. لقد بدأ التراجع : ان المستعمَر يعيد تشكيل نفسه ، أما نحن ، المتقدمون والليبراليون ، سواء أكنا مستوطنين في المستعمرات ام مقيمين في أوروبا ، فإننا نتحلل . ان الحنق المسعور والخوف الشديد يتعريان منذ الآن : انهما مكشوفان في « مجازر » مدينة الجزائـــر . أين هم المتوحشون الآن ؟ أين هي البربرية ؟ لا شيء ينقص هذه المجازر حتى ولا قرع الطبول : فبينما يحرق الأوروبيون المسلمين أحياء ، تصيح أبواق السيارات معلنة ان « الجـــزائر فرنسية » . يذكر فانون ، ان جماعة من اطباء الأمراض العقلية أفصحوا في مؤتمر لهم ، منذ زمن غير بعيد ، عن حزنهم لشيوع الجريمة بين « السكان الأصليين » ، وقالوا : « ان هؤلاء الناس يقتل بعضهم بعضاً ، وهو شيء غير سوّي ، فلا بد ان القشرة الدماغية لدى الجزائر متخلفة النمو » . وقال آخرون في افريقيـا الوسطى ان

« الافريقي لا يستعمل الفصين الجبهيين من الدماغ إلا قليلاً جداً » . لقد يهم هؤلاء العلماء اليوم ان يتابعوا بحثهم هذا في أوروبا ، وخاصة لدى الفرنسيين . إذ لا شك اننا ، نحن ايضاً ، لقد أصبحنا منذ زمن مصابين بكسل في الفص الجبهي من الدماغ : فأهل الوطن الواحد يقتل بعضهم بعضاً ، ويستغل بعضهم غياب بعض عن منزله حتى ينسفوا البواب والبيت . وما هذا إلا بداية : فالحرب الأهلية يُتوقع ان تنشب في الخريف أو في الربيع القادم . ومع ذلك تظل تبدو الفصوص الجبهية من أدمغتنا سليمة كل السلامة : أليس الأجدر ان نقول أننا ، وقد عجزنا عن سحق « السكان الأصليين » ، ارتد العنف الينا ، وتجمع في أعماقنا ، وأخذ يبحث عن مخرج : ان اتحاد الشعب الجزائري يولد تفكك الشعب الفرنسي : في جميع المستعمرات ترقص القبائل وتتهيأ للمعركة . وترك الإرهاب افريقيا ليستقر هنا : ذلك ان هنالك أشخاصاً مسعورين يريدون ان ندفع منا ثمناً للعار الذي لحق بهم حين غلبهم « السكان الأصليون » ، وهناك ايضاً الآخرون ، جميع الآخرين الذين لا يقلون إجراماً عن غيرهم (من ذا الذي نزل الى الشارع ، غداة حوادث بيزرت ، وغداة مذابح ايلول ، ليقول: كفى ! ، ولكنهم أكثر هدوءاً منهم : هناك الليبراليون ، والقساة القساة من اليسار الرخو : ان الحمّى تصعد في هؤلاء ايضاً . والسخط ، يا له من خوف رهيب ! ان هؤلاء يحجّبون حنقهم المسعور بخرافات وطقوس معقدة . فلكي يؤخروا تصفية الحساب ويوم الحقيقة ، حكّموا فينا « ساحراً كبيراً » مهمته ان يبقينا في الظلام بأي ثمن من الاثمان. ولا شيء يجدي . ان العنف الذي يطالب به بعض الناس ويكبحه آخرون يدور الآن في دائرة ، ففي يوم تراه ينفجر في متز ، وفي الغداة ينفجر في بوردو . لقد مر من هنا ، وسيمر من هناك انها لعبة الحلقة . أننا نسير بدورنا في الطريق الذي يؤدي الى حالة سكان أصليين ، نسير في هذا الطريق خطوة بعد خطوة . ولكن لكي نصبح « سكاناً أصليين » تماماً ، يجب ان يحتل أرضنا اولئك الذين كانوا مستعمَرين وان نتضور جوعاً . وهذا لن يكون : لا. ولكن الاستعمار المنهار هو الذي يصبح في نفوسنا

مسّاً . وسرعان ما سوف يمتطينا فارساً مريضاً مختالاً. هذا « زارنا » ولسوف تقتنعون ، حين تقرأون الفصل الأخير من كتاب فانون ، بأنه خير المرء ان يكون من « السكان الأصليين » في أسوأ لحظة من لحظات البؤس ، من ان يكون مستوطناً مستعمِراً . ليس من الخير ان يكون موظف من موظفي الشرطة مضطراً الى التعذيب عشر ساعات في اليوم : انه بهذا معرّض لانهيار الاعصاب، اللهم إلا ان نمنع الجلادين من العمل ساعات إضافية في سبيل مصلحتهم ذاتها . وحين نريد ان نحمي بقوة القوانين روح الأمة والجيش، ليس من الخير ان يجرد الجيش الأمة من روحها على نحو منظم مطرد ، لا ولا ان تعهد بلاد ذات تقاليد جمهورية ، بمئات الألوف من شبانها الى ضباط عصاة . ليس من الخير ، يا أهل وطني ، وانتم تعرفون جميع الجرائم التي ترتكب باسمنا ، ان لا تهمسوا بكلمة لأحد، حتى ولا لروحكم، مخافة ان يكون عليكم ان تحكموا على أنفسكم. لقد كنتم في أول الأمر تجهلون - أحب ان أصدق ذلك - ثم اصبحتم ترتابون، والآن انتم تعلمون ، ولكنكم تظلون صامتين . ثماني سنين من الصمت ، ذلك أمر يدنّس . وعبثاً تصمتون : ان شمس التعذيب التي تبهر الأعين هي اليوم في رابعة النهار تضيء البلاد كلها . وتحت هذا الضياء ، لم تبق ضحكة ترن رنيناً صادقاً، ولم يبق أحد لا يطلي وجهه إخفاء للغضب او الخوف ، ولم يبق فعل لا يفضح اشمئزازنا وتواطؤنا. انه ليكفي الآن ان يجتمع فرنسيان حتى توجد بينهما جثة.. بل جثث .. لقد كانت كلمة فرنسا ، في الماضي اسماً لبلد ، فحذارِ ان تصبح كلمه فرنسا عام ١٩٦١ اسماً لمرض من أمراض العُصاب .

أترانا نشفى ؟ نعم . ان العنف ، كحربة آخيل ، يمكن ان يلأم الجروح التي يحدثها . نحن الآن مكبّلون ، مُذَلّون ، مرضى بالخوف ، في الحضيض . ومن حسن الحظ ان الارستقراطية الاستعمارية لا يكفيها هذا : انها لا تستطيع ان تتم رسالتها التأخيرية في الجزائر إلا بعد ان تستعمر الفرنسيين . ونحن نتراجع كل يوم عن خوض المعركة ، ولكن ثقوا أننا لن نستطيع تحاشيها . انهم في حاجة اليها ، هؤلاء القتلة . لسوف يسرقوننا من سُرُرنا الوثيرة

ويضربوننا فيمن يضربون . وبذلك ينتهي عهد السحرة والتمائم . فإما ان تقاتلوا وإما ان تعفنوا في المعسكرات. هذه آخر لحظات الديالكتيك. إنكم تستنكرون هذه الحرب ، ولكنكم لا تجرأون بعد على إعلان تضامنكم مع المناضلين الجزائريين . لا تخافوا ، اعتمدوا على المستوطنين المستعمِرين وعلى أصحاب المصالح الجشعين. لسوف يجعلونكم تثبون الخطوة وثباً. ولعلكم عندئذ، وقد جُعل ظهركم الى الجدار ، تطلقون أخيراً عقال هذا العنف الجديد الذي تبعثه فيكم جرائم يُعاد ارتكابها . ولكن هذه قصة أخرى ، كما يقال . هي قصة الانسان . وإني لعلى يقين بأن الزمن الذي نلتحق فيه بأولئك الذين يصنعون الانسان ، قريب لا ريب فيه .

أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ **جان بول سارتر**

في العُنف

سواء أقلنا تحريراً وطنياً ، أم نهضة قومية ، أم انبعاثاً شعبياً، أم اتحاداً بين الشعوب ، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة ، فإن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائماً . إن محو الاستعمار ، على أي مستوى درسناه : سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض، أم مستوى تسمية النوادي الرياضية بأسماء جديدة ، أم مستوى التشكيل الإنساني لحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس إدارة المصارف القومية او الخاصة ، إنما هو إحلال « نوع » إنساني محل « نوع » إنساني آخر ، إحلالاً كلياً ، كاملاً ، مطلقاً ، بلا مراحل انتقال . وفي وسعنا طبعاً ان نبيّن أيضاً انبثاق أمة جديدة ، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السياسي والاقتصادي . ولكنني إنما اخترت ان اتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل إزالة للاستعمار . والحق ان دليل النجاح إنما هو تبديل صورة المجتمع تبديلاً تاماً . وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من أنه قد أريد إرادة ملحّة شديدة . فإن ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمَرين على حالة فجة جارفة قاهرة . ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه ايضاً وجدان « نوع » آخر من الرجال والنساء ، هو نوع « المستعمِرين » ، على صورة مستقبل مروِّع رهيب .

إن محو الاستعمار ، وهو يستهدف تغيير نظام العالم ، إنما هو ، كما ترون ، برنامج لقلب النظم قلباً مطلقاً . ولكنه لا يمكن ان يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزال طبيعي او تفاهم ودّي ، أي انه لا يمكن ان يُفهم ولا يمكن ان يُعقل ، ولا يمكن ان يصبح واضحاً لنفسه ، إلا بمقدار إدراك الحركة الصانعة للتاريخ

التي تهب له شكله ومضمونه. إن محوالاستعمار إنما هو نزال بين قوتين متعارضتين أساساً ، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفـــرزه الظرف الاستعماري ويغذّيه . ان التجابه الأول الذي تم بين هاتين القوتين إنما تم تحت شعار العنف ، كما ان تساكنهما – او قل استغلال المستعمِر للمستعمَر – إنما تلاحق بدعم قوى من الحراب والمدافع . إن المستعمِر والمستعمَر يعرف احدهما الآخر من زمان طويل . والمستعمِر حين يقول انه « يعرفهم » هو على حق فيما يقول . فالمستعمِر هو الذي صنع المستعمَر وما يزال يصنعه . إن المستعمِر يستمد حقيقته ، أي خيراته ، من النظام الاستعماري .

ومحو الاستعمار لا يمكن ان يعبر عبوراً دون ان يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجـود ، لأنه يغير الوجود تغييراً أساسياً ، لأن أناساً مشاهدين يسحقهم أنهم ليس لهم ماهية ، يأتي محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناساً فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولاً رائعاً . ان محو الاستعمار يبث في الوجود إيقاعاً خاصاً يجيء به الرجال الجدد ، ويحمل الى الوجود لغة خاصة وانسانية جديدة . ان محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقاً . ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة . إن المستعمَر « الشيء » يصبح انساناً بمقدار مايحقق من عمل لتحرير ذاته .

ففي محو الاستعمار يجب إذن تغيير الوضع الاستعماري تغييراً كاملاً. ويمكن ان يقوم تعريفه ، إذا أردنا ان نصفه وصفاً دقيقــاً ، في هذه العبارة المعروفة : « الأواخر سيصحبون الأوائل » . إن محو الاستعمار تحقيق لهذه الجملة . ولذلك فإن كل محو للاستعمار هو من ناحية الوصف نجاح .

إن محو الاستعمار حين يُعرض عارياً ، يكشف من خلال مساماته كلها ، عن رصاصات حمر وخناجر دامية . ذلك أنه إذا كان على الأواخر ان يصبحوا هم الأوائل . فإن هذا لا يمكن ان يتم إلا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان . إن هذه الإرادة الثابتة التي تريد ان تنقل الاواخر الى طليعة الصف، وأن تجعلهم يتسلقون (بسرعة مفرطة كما يقول بعضهم) الدرجات المعروفة التي

يتألف منهـــا بمجتمع منظم ، هذه الإرادة لا يمكن ان تنتصر إلا اذا ألقيت في الميزان جميع الوسائل ، ومنها وسيلة العنف طبعاً .

إنك لا تستطيع ان تفكك نظام مجتمع من المجتمعات ، مهما يكن بدائياً ، ببرنامج كهذا البرنامج ، ما لم تعزم أمرك منذ البداية ، أي منذ وضع هذا البرنامج نفسه ، على ان تحطم جميع الحواجز التي ستلقاها في طريقك. والمستعمَر الذي يقرر ان يحقق هذا البرنامج، ان يكون له المحرّك ، مهيأ للعنف منذ زمن طويل . لقد أدرك منذ ولادته إدراكاً واضحاً ان هذا العالم المضيّق ، المزروع بأنواع المنع ، لا يمكن تبديله إلا بالعنف المطلق .

إن العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسّم . ومن نافل القول طبعاً ، على صعيد الوصف ، ان نذكر ان هناك مدناً للسكان الأصليين ومدناً للأوروبيين . ان هناك مدارس للسكان الأصليين ومدارس للآوروبيين ؛ كما ان من نافل القول ان نذكر التمييز العنصري في جنوب افريقيا . ومع ذلك فاننا حين ندخل الى صميم هذا التقسيم ، نجني فائدة واحدة على الأقل ، هي أننـــا نستطيع عندئذ ان نبرز بعض خطوط القـــوى التي يضمها . إن دراستنا للعالم الاستعماري وتنظيمه وترتيبه الجغرافي ستتيح لنا أن نُعين خطوط التداخل التي ستبدأ بها إعادة تنظيم المجتمع الذي تخلص من الاستعمار .

ان العالم المستعمَر منقسم الى عالمين . والخط القاسم ، او الحدود الفاصلة ، إنما هي لثكنات ومراكز الشرطة . فالدركي والشرطي في المستعمرات همـــا المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمَر ان يرجع اليه وان يخاطبه ، وهما الجهة التي تنطق بلسان المستعمِر ونظام الاضطهاد . اننا نرى في المجتمعات التي تنتمي الى الطراز الرأسمالي ، ان التعليم ، سواء أكان دينياً أم علمانياً . وتكوين المنعكسات الاخلاقية التي يأخذها الأبناء عن الآباء ، والشرف المثـــالي الذي يُسند الى عمال يُمنحون الأوسمه بعد خمسين عاماً أنفقوها في القيام بخدمات طيبة مستقيمة ، وتشجيعَ حب الاتزان والتعقل ، هذه الأشكال الجماليـة لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغَل جواً من الخضوع والامتناع يخففان عبء قوى

الأمن تخفيفاً كبيراً . اننا نرى في البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق ، والموجهين ، « والمصلحين » تقف حائلاً بين المستغَل والسلطة الحاكمة . أما في المناطق المستعمَرة فان الدركي والشرطي ، بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة ، يظلان على اتصال بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة ، ان لا يتحرك . وهكذا ترون ان وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هي عنف صرف . ان الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد ، ولا يسدل على السيطرة حجاباً .. انه يعرضهما ، انه يظهرهما . إن الوسيط يحمل العنف هنا الى بيوت المستعمَر والى أدمغته .

والمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لاتكمل المنطقة التي يسكنها المستعمِرون. ان هاتين المنطقتين تتعارضان ، ولكن لا في سبيل وحدة أعلى . انهما تخضعان لمنطق أرسطي صرف ، انهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل ، فلا سبيل إلى مصالحة : ان احد الطرفين زائد يجب انيزول. ان مدينة المستعمِر (المستوطن) مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد ، مدينة أنوارها ساطعة ، وشوارعها معبدة بالأسفلت ، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون ، ولا رأوها يوماً ، ولا حلموا بها يوماً . والمستعمِر لا ترى قدماه عاريتين قط ، اللهم إلا على شواطىء البحر ، ولكن الآخرين لا يمكن ان يقتربوا منهما اقتراباً كافياً . قدمان تحميهما أحذية متينة ، مع ان شوارع مدينتها نظيفة ، ملساء ، لا ثقوب فيها ولا حصى .

أما مدينة المستعمَر ، او مدينة السكان الأصليين ، أما القرية الزنجية ، أما بلدة الأهالي ، اما الحي الذي يحظر على الأوروبيين ان يتجولوا فيه ، فهو مكان سيىء السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة . فيه يولد المرء أين كان، وكيف كان . وفيه يموت المرء أين كان ، وبأي شيء كان . هو عالم بلا فواصل ، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض ، والأكواخ تتكدس فيه بعضها فوق بعض . ان مدينة المستعمَر مدينة جائعة ، جائعة الى الخبز ، وإلى اللحم ، وإلى الأحذية ، وإلى الفحم ، وإلى النور . مدينة المستعمَر مدينة جاثية ، مدينة

راكعة ، مدينة متدحرجة في الوحل. انها مدينة زنوج ، مدينة عرب . والنظرة التي يلقيها المستعمَر على مدينة المستعمِر هي نظرة شهوة ، هي نظرة حسد . ان المستعمَر يحلم بالتملك ، بجميع أنواع التملك : ان يأكل على المائدة التي يأكل عليها المستعمِر ، ان ينام في الفراش الذي ينام فيه المستعمِر ، وربما مع امرأة المستعمِر ايضاً . ان المستعمَر حسود . والمستعمِر لا يجهل هذا ، فهو حين يلحظ نظرة المستعمَر خلسة ، يقول في مرارة : « انهم يريدون ان يحتلوا مكاننا ». هذا صحيح : ما من مستعمَر إلا ويحلم مرة في اليوم على الأقل ، ان يأخذ مكان المستعمِر .

هذا العالم المقسّم . هذا العالم المقسم قسمين ، يسكنه نوعان مختلفان . والطابع الخاص الذي يطبع النظام الاستعماري ، هو ان الوقائع الاقتصادية ، هو ان الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير في طرز المعيشة ، لا تستطيع أبداً ان تحجب الوقائع الانسانية . حين ندرك النظام الاستعماري في واقعه المباشر ، نلاحظ ان ما يقسم العالم إنما هو أولاً انتساب المرء او عدم انتسابه الى نوع معين، الى عرق معين . ان البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقي ايضاً . السبب هنا نتيجة : المرء غني لأنه أبيض ، وأبيض لأنه غني . لذلك كان على التحليلات الماركسية ان تخفف من حدتها قليلاً حين تعالج مشكلة المستعمرات . وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية ، الذي أجاد ماركس دراسته ، يتطلب هنا إعادة التفكير فيه . إن ماهية العبد غير ماهية الفارس ، ولكن لا بد من الاستناد الى الحق الالهي لإضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم . ان الأجنبي في المستعمرات، قد جاء من مكان آخر، وفرض نفسه بمدافعه وآلاته . فالمستعمِر يظل أجنبياً رغم نجاحه في التطويع ورغم التملك الذي حققه لنفسه . ان ما يميز « الطبقة الحاكمة » أولاً وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد في البنك ، فإنما النوع الحاكم هو اولاً وقبل كل شيء ، النوع الذي جاء من مكان آخر ، النوع الذي لا يشبه السكان الأصليين ، هو نوع « الآخرين » .

والعنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري ، والذي عمل بلا كلال على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الاصليين ، وخرّب بلا قيود طراز الاقتصاد ، وأشكال المظهر ، والملبس ، سيطالب بـه المستعمَر وسيتولاه ، في اللحظة التي يقرر فيها ان يكون هو التاريخَ اعمـالاً ، فاذا الجمهور المستعمَر يهوي على هذه المدن الممنوعة عنه . ان تحطيم العالم الاستعماري هو بعد الآن صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمَر ان يقوم به ، صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الأفراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمَر ، ويستطيع ان يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة . وتحطيم العـالم الاستعماري لا يعني انه سيحافظ على ممرات بين المنطقتين ، بعد إزالة الحـدود التي تفصل إحداهما عن الأخرى . إن تحطيم العالم الاستعماري لا يعني إلا شيئاً واحداً هو ازالة إحدى هاتين المنطقين ، فإما دفنها في أعمق أعماق الأرض ، وإما طردها من البلاد .

وتغيير المستعمَر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهـتي نظر ، ليس خطاباً في المساواة بين البشر ، وإنمـا هو تأكيد عنيف لأصالة تُفرَض مطلقة . ان العالم الاستعماري عالم ثنائي . والمستعمِر لا يكتفي بأن يحد مجال المستعمَر ، باستعمال القوة المادية ، أي بواسطة شرطته ودركه ، وإنما هو يجعل من المستعمَر روح الشر وخلاصته ، كأنه يدل بذلك على ان الاستغلال الاستعماري كلي شامل [١] . انهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمَر بأنه خالٍ من القيم . ان المستعمِر لا يكتفي بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمَع المستعمَر ، او إنها لم توجد فيه يوماً . وإنما هو يعلن ان السكان الأصليين لاسبيل لنفاذ الأخلاق الى أنفسهم ، وان القيم لا وجود لها عندهم ، بل انهم انكار للقيم ، أوقل انهم أعداء للقيم . فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشرُّ المطلق . انه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه ، عنصر مخرب يشوه كل ماله صلة بالجمال او الأخلاق ، إنه مستودع

١ — لقد أوضحنا في بحثنا « جلد أسود وأقنعة بيضاء » آلية هذا العالم الثنائي .

قوى شيطانية ، انه أداة لقوى عمياء ، أداة لا وعي لها ولا سبيل الى إصلاحها. وهذا مسيو ماير يقول جاداً في « الجمعية الوطنية الفرنسية » : إن علينا ان لا نلوّث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائري اليها . ذلك ان القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمَر . إن عادات المستعمَر وتقاليده ، وخرافاته ، خاصة خرافاته ، هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم في تكوينه ذاته . ولذلك يجب ان نضع على مستوى واحد مبيدات الحشرات التي تنقل الأمراض ، والديانة المسيحية التي تحارب الهرطقات والغرائز والشر في مهدها . إن التقدم في القضاء على الحمّى الصفراء والتقدم في نشر دين الإنجيل أمران متشابهان . ولكن البلاغات المظفرة التي تنشرها الارساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الضياع المنبثقة في جسم الشعب المستعمَر هي على جانب كبير من القوة . وحديثي هنا عن الديانة المسيحية ، ولا حق لأحد ان يدهش من ذلك . ان الكنيسة هي في المستعمرات كنيسة بيض . كنيسة أجانب . إنها تدعو الانسان المستعمَر الى طريق الله ، وإنما تدعوه الى طريق الانسان الأبيض ، الى طريق السيد المتسلط ، الى طريق المضطهِد الغاشم . وأنتم تعلمون ان في تاريخ البعثات التبشيرية هذا كثيراً من المكلفين وقليلاً من المختارين .

وتمضي هذه الثنائية أحياناً الى أقصى منطقها ، فتجرد المستعمَر من انسانيته ، حتى لتعده حيواناً . أنظر الى اللغة التي يتكلمها المستعمِر حين يتكلم عن المستعمَر ، تجد انها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات : إنهم يستعملون هذه التعابير : زحف العرق الأصفر ، أرواث المدينة الأصلية ، قطعان الأهالي ، تفريخ السكان ، تنمّل الجماهير ، الخ . إن المستعمِر حين يريد أن يحسن الوصف وان يجد الكلمة المناسبة ، يرجع دائماً الى الألفاظ المستعملة في وصف الحيوان . والأوروبي قلما يلبث على هذه الألفاظ المشتملة على استعارات . ولكن المستعمَر الذي يدرك غرض المستعمِر ، يعرف فوراً ما انصرف إليه ذهن صاحبه . وهذا بعض ما يجري على لسان المستعمِر من مصطلحات : هؤلاء السكان الذين يدبّون

على الأرض ، هذه الجماهير المهسترة ، هذه الوجوه التي فرّ منها كل معنى انساني ، هذه الأجسام المترهلة التي لا تشبه شيئاً من الأشياء ، هذا القطيع الذي لا رأس له ولا ذنب ، هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو ان لهم أهلاً ، هذا الكسل المستلقي تحت الشمس ، هذه الحياة التي تشبه حياة النباتات الخ .. ولقد تكلم دو جول عن « الجموع الصفراء » ، وتكلم مسيو مورياك عن الكتل السوداء والسمراء والصفراء التي تهمّ ان تندفع أمواجها . ان المستعمَر يعرف هذا كله ، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيواناً في أقوال الآخر . ذلك أنه يعرف أنه ليس بحيوان . وهو في الوقت الذي يدرك فيه أنه إنسان ، يأخذ يشحذ أسلحته ليحقق انتصار إنسانيته .

ومتى أخذ المستعمَر يرسخ أقدامه على قواعدها ، ويقلق المستعمِر ، أوفدوا إليه رجالاً أخياراً يحدثونه في « مؤتمرات الثقافة » عن خصائص القيم الغربية وعن غناها . ولكن كلما دار الحديث على القيم الغربية حدث لدى المستعمَر نوع من التصلب والتشنج العضلي . إنهم في فترة التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمَرين ، ويعرضون عليهم قيماً أكيدة ، ويشرحون لهم في كثير من الإفاضة ان التحرر من الاستعمار يجب ان لا يعني التقهقر الى وراء ، وان عليهم ان يعتمدوا على قيم مجربة وطيدة راسخة . غير ان ما يحدث هو ان المستعمَر حين يسمع خطاباً عن الثقافة الغربية ، يُخرج خنجره أو يتلمسه في مكانه ليتأكد من وجوده . ذلك ان العنف الذي كفل تفوّق قيم البيض ، وان العدوان الذي لابس المعركة الظافرة التي خاضتها هذه القيم من إنماط الحياة والفكر الخاصة بالمستعمَرين ، يجعلان المستعمَر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم . ان المستعمِر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله في إنهاك المستعمَر وتحطيمه ، إلا اذا اعترف له هذا بتفوق قيم البيض اعترافاً صريحاً واضحاً . وفي فترة التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمَرة من هذه القيم ذاتها ، بل تهينها وتبصقها بصقاً .

وهذه الظاهرة تكون في العادة مقننة ، ذلك ان بعض المثقفين قد قاموا ،

أثناء فترة الاستعمار ، بحوار مع بورجوازية البلاد الاستعمارية . لقد كان الاستعماريون لا يرون أهل البلاد المستعمَرة إلا كتلة غير متميزة . والشخصيات القليلة التي أتيح للبورجوازيين الاستعماريين أن يعرفوها من أهل البلاد لم تؤثر تأثيراً كافياً في تلك النظرة المباشرة لتحملهم على تعديلها . أما في فترة التحرر من الإستعمار فإن البورجوازية الاستعمارية تسعى في كثير من الحماسة المحمومة الى عقد صلات بالنخبة المثقفة . ومع تلك النخبة المثقفة إنما شرعوا في ذلك الحوار حول القيم . ان البورجوازية الاستعمارية ، حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمَرة ، تقرر ان تخوض معركة خلفية ، في ميدان الثقافة ، والقيم ، والتكنيك ، وما الى ذلك . ولكن الأمر الذي يجب ان لا يغيب عن البال هو ان السواد الأعظم من الشعوب المستعمَرة لا يمكن ان تنفذ إليه هذه المشكلات . فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمَر ، إنما هي الأرض ، لأنها هي القيمة المحسوسة الملموسة ، الأرض التي تكفل الخبز ، والتي تكفل الكرامة طبعاً ، ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة « الشخصية الإنسانية » التي يتحدث عنها الاستعماريون . ان الشعب المستعمَر لم يسمع يوماً بهذه الشخصية الإنسانية الخيالية . وما رآه على أرضه بأم عينه هو أنه يُعتقل لغير ذنب جناه ، وانه يضرب وأنه يجوّع . إنه لم ير في يوم من الأيام أستاذاً من أساتذة الأخلاق، ولا رجلاً من رجال الدين المسيحي، يأتي ليتلقى عنه اللطمات ، أو ليعطيه قسماً من خبزه . الأخلاقية عند المستعمَر هي ان يتخلص من غطرسة المستعمِر ، هي أن يحطم عنفه الشامخ ، أي ان يطرده من الميدان طرداً كاملاً . ان المبدأ القائل بأن البشر جميعاً متساوون سيتحقق في المستعمرات متى اعتبر المستعمَرُ أنه ندٌّ المستعمِر، ومتى خطا خطوة أخرى فقرر أن يقاتل في سبيل ان يكون أكثر من المستعمِر. وها هوذا قرر أن يحل محل المستعمِر، ان يأخذ مكانه . وبذلك ترون عالماً برمته ينهار ، عالماً مادياً ومعنوياً . ان المثقف الذي تبع الاستعماري على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمِر والمستعمَر في سلام في عالم جديد ، ولكن الأمر الذي يعمى عنه، لأن

الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها في التفكير ، هو أن المستعمِر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري . ليس صدفة أن الأقلية الأوروبية التي تسمى « ليبرالية » ، قد أعلنت رأيها حتى قبل أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية ، فقالت أنها تطالب بأن تكون لها جنسيتان . إنك حين تنظر الى الأمور على المستوى المجرد تفرض على المستعمِر المستوطن ان يثب في المجهول وثبة محسوسة ، ويجب ان نعترف بأن المستعمِر المستوطِن يعلم حق العلم بأنه ما من أقوال طنانة رنانة يمكن ان تقوم مقام الواقع .

يكتشف المستعمَر إذن ان حياته وتنفسه وخفقات قلبه لا تختلف عن حياة المستعمِر وعن تنفسه وعن ضربات قلبه . ويكتشف أن جلد المستعمِر ليس خيراً من جلد رجل من السكان الأصليين . ويحدث هذا الاكتشاف هزة أساسية في العالم . إن كل ما يحس به المستعمَر من ثقة جديدة ثورية إنما ينبع من هذا : إذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمِر ، فلن تخيفني بعد الآن نظرته ، لن تسمّرني في مكاني . لن يجمّدني صوته . لن أضطرب أمامه . لن أعبأ به ، لن يربكني وجوده ، بل انني منذ الآن أعد له من الكمائن ما يجعله في القريب لا يجد لنفسه مخرجاً غير الهرب .

قلنا إن الوضع الاستعماري يتميز بأنه يفرض على العالم انقساماً ثنائياً . والتحرر من الاستعمار يوحّد هذا العالم ، إذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذري ، يوحّده على أساس الأمة ، وعلى أساس العرق أحياناً . إنكم تعرفون تلك الكلمة القوية التي قالها الوطنيون السنغاليون مشيرين الى مناورات رئيسهم سنغور : « لقد طلبنا أن تصبح الوظائف للافريقيين ، وها هو سنغور يجعل الأوروبيين افريقيين » . معنى هذا ان المستعمَر قادر على أن يدرك إدراكاً مباشراً مطلقاً هل تحقق التخلص من الاستعمار أم لا : فالحد الأدنى المطلوب هو أن يصبح الأواخر هم الأوائل .

ولكن المثقف المستعمَر يُدخل على هذا المطلب بعض التعديلات ، ولا يعوزه

أن يخترع لهذه التعديلات ما يسوّغها ويبررها ، فيتكلم عن الاستعانة بموظفين إداريين ، وبموظفين فنيين ، وبإخصائيين . غير ان المستعمَر يدرك ان هذه التذرعات إن هي إلا مناورات تخريبية ، وليس نادراً ان تسمع من يقول هنا وهناك : « ما فائدة الاستقلال إذن ؟ » .

في المناطق المستعمَرة التي شب فيها نضال حقيقي من أجل التحرر من الاستعمار ، في المناطق التي سال فيها دم الشعب ، في المناطق التي أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين ان يعودوا الى القواعد الشعبية ، نشاهد استئصالاً حقيقياً للأفكار التي استمدها هؤلاء المثقفون من الأوساط البورجوازية الاستعمارية . إن البورجوازية الاستعمارية قد استطاعت في حوارها النرجسي مع نفسها ، وبواسطة رجالها الجامعيين ، ان تغرس في أعماق فكر المستعمَر أن الماهيات تبقى خالدة رغم جميع الأخطاء التي تنسب الى البشر ، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعاً . وكان المستعمَر يسلم بهذه الأفكار ، فكأن حارساً يقظاً مكلفاً بالدفاع عن الثقافة الإغريقية اللاتينية أصبح يقف في ثنية من ثنايا عقله. أمّا أثناء الكفاح من أجل التحرر ، في اللحظة التي يسترد فيها المستعمَر اتصاله بشعبه ، فإن هذا الحارس المصطنع يتهشم . فاذا جميع القيم التي تسمّى قيم البحر الأبيض المتوسط التي تنادي بانتصار الشخصية الإنسانية ، وتدعو إلى الوضوح والجمال ، تصبح دمىً لا حياة فيها ولا لون ، واذا جميع تلك الخطب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة . إن هذه القيم التي كان يلوح أنها تسمو بالنفس يتضح الآن أنها لا فائدة منها أولا جدوى فيها لأنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بالمعركة المحسوسة التي يخوضها الشعب .

والفردية تأتي في طليعة هذه القيم . لقد أخذ المثقف المستعمَر عن أساتذته أن على الفرد أن يؤكد ذاته . لقد غرست البورجوازية الاستعمارية في ذهن المستعمَر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة ، وأن الغنى هو غنى الفكر . غير ان المستعمَر الذي يتاح له أن يغوص في شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير يدرك فساد هذه النظرية ، بل إن أشكال تنظيم

الكفاح ستزوده بلغة جديدة . إن كلمات الأخ والأخت والرفيق كلمات نبذتها البورجوازية الاستعمارية ، فالأخ عندها هو محفظة النقود ، والرفيق عندهـا هو الصفقة الرابحة. وهكذا يشهد المثقف المستعمَر فناء جميع أصنافه احتراقاً بالنار: الأنانيه والانتقاد المتكبر، والغباء الغر الذي يحمل صاحبه على ان يريد أن يكون له القول الفصل. وسيكتشف هذا المثقف المستعمَر الذي خربته الثقافة الاستعمارية، سيكتشف أيضاً أن للمجالس التي تشكل في القرى قوة كبيرة ، وأن للجان التي تتألف من أفراد الشعب متانة هائلة ، وأن للاجتماعات التي تعقد للحيّ أو للخلية خصوبة ما بعدها خصوبة . فقضية كل فرد من الأفـــراد لن تكون عندئذ إلا قضية جميع الأفراد ، لأنهم إما ان يكتشفهم جنود الاستعمار جميعاً، فيقتلوهم جميعاً ، وإما أن ينجوا جميعاً . ان « نجاة الفرد بنفسه » ، وهو شكل كافر من أشكال السلامة ، هي في الميدان أمر مرفوض .

ويكثر الناس منذ زمن من الحديث عن النقد الذاتي، فهل عرفوا أولاً أن هذا نظام إفريقي ؟ إن التقاليد ، سواء في اجتماعات « الجماعة » بافريقيا الشمالية أو في الاجتماعات التي تعقد بافريقيا الغربية ، توجب ان تفض النزعات التي تقوم في قرية من القرى ، على رؤوس الاشهاد . وهذا نقد ذاتي جماعي طبعاً ، ولكن على شيء من المرح، لأن جميع الناس يكونون بعيدين عن التوتر، ولأنهم يريدون في آخر الامر أشياء واحدة . إن المثقف ليهجر الحساب والسكوت والصلف ، والافكار المخبأة ، والآراء المتخفية ، والسر ، إن المثقف ليهجر هذا كله كلما غاص في الشعب . ومن الحق أن نقول إن الجماعة تنفر من ذلك نفسه ، فتخلق ضوءها الخاص وتفكيرها الخاص .

ولكن يحدث ان تتم تصفية الاستعمار في مناطق لم يهزها الكفاح التحرري هزاً كافياً، فاذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق في تحقيق أغراضهم الشخصية ، وإذا نحن نجد فيهم عين أنمـاط السلوك وأشكال التفكير التي التقطوها من معاشرتهم للبورجوازية الاستعمارية ، لقد كانوا للاستعمار أبنـاءه المدللين ، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدللون ايضاً ،

ينهبون الموارد الوطنية نهباً ، ويندفعون الى الإثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعاً لا يعرف الرحمة ، عن طريق الاستيراد والتصدير ، والشركات المغفلة ، ومضاربات البورصة ، والرشوة ، على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنياً . إنهم يطالبون في إلحاح أن تكون الأعمال التجاية في أيدي أبناء الأمة وحدهم ، أي أن تُحصر الأسواق والفرص المؤاتية في أبنـاء الأمة وحدهم . ومعنى ذلك عندهم أن تُحصر سرقة الأمة في أبناء الأمة . ولا شك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما يثير غضب الشعب وعنفه ، أثناء فترة القحط الوطني هذه ، أثناء ما يسمى بفترة التقشف . ذلك ان هذا الشعب البائس الذي نال استقلاله في الظروف الإفريقية والدولية الراهنة ، يسير نحو الوعي الاجتماعي بخطى حثيثة . ولن تلبث النفوس الصغيرة ان تدرك هذه الحقيقة في وقت قريب .

لقد كان على المستعمَر ، من أجل أن يستطيع هضم ثقافة مضطهديه ، وان يغامر في رحابهـــا ، كان عليه أن يقدم ضمانات . ومن بين هذه الضمانات تبني أشكال التفكير الخاصة بالبورجوازية الاستعمارية . نلاحظ هذا في عجز المثقف المستعمَر عن المحاورة ، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن ماهيته إزاء الموضوع أو الفكرة . أما حين يناضل في صفوف الشعب فإنه لا ينفك ينتقل من دهشة إلى دهشة . إن ما يراه من صدق الشعب وشرفه يسقط من يده . والخطر الذي يتربص به عندئذ إنما هو الانسياق الكامل ، فاذا هو لا يزيد على ان يثني على كل جمـلة يقولها الشعب ، وإذا كل جملة يقولها الشعب تصير في نفسه الى حكمة لا يأتيهـا الباطل . على ان الفلاح المتعطل والجائع لا يدّعون الحقيقة . انهم لا يزعمون أنهم الحقيقة ، لأنهم الحقيقة في وجودهم ذاته .

ان المثقف يتصرف في هذه الفترة تصرف رجل انتهـازي رخيص . والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة . والشعب لا يريد أن يبعده أو يحرجه . فمـــا يريده الشعب هو أن يكون كل شيء مشتركاً . ووجود ذلك الميل الغريب إلى التفاصيل لدى المثقف هو الذي سيؤجـل انغماس المثقف في الموجة الشعبيـــة العارمة . لا لأن الشعب عاجز عن التحليل . فهو يحب أن تشرح له الأمـور ،

هو يجب ان يفهم مفاصل استـدلال من الإستدلالات ، يجب أن يرى إلى أين هو ذاهب ، ولكن المثقف المستعمَـر ، في أول اتصاله بالشعب ، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة ، ويصل من ذلك إلى نسيان هدف الكفاح نفسـه ، ألا وهو إلحاق الهزيمة بالاستعمار. إنه وقد جرفته حركة الكفاح المتعدده الأشكال، يميل الى التركيز على مهمات محلية يتابعها في حماسة ، ولكنه يسرف في تقدير عظمتها. انه لا يرى في كل وقت . انه يجـيء بفكرة الفروع والاختصاصـات والميادين ، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التي تخلط وتدمج ، أعني الثورة الشعبية . إنه وقد انخرط في القيام بأعمال معينة في الجبهة ، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة ، حتى إذا وقع إخفاق محلي ما ، رأيته يستسلم للشك ، بل ولليأس ايضاً . ولا كذلك الشعب ، فإنه يتخذ منذ البداية مواقف إجمالية . الأرض والخبز : ماذا علينا ان نعمل حتى نحصل على الأرض والخبز ؟ وهذه النظرة العنيدة التي ينظرها الشعب ، هذه النظرة التي تبدو في الظاهر محدودة ضيقة ، هي في حقيقة الأمر ، مثال النظرة التي تغني العمل وترفده بالقـوة وتكفل له النجع .

وهناك مسألة أخرى يجب أن نقف عندها أيضاً ، هي مسألة الحقيقة . ان الشعب يرى ، في جميع الأزمان ، ان عليه ان لا يقول الحقيقة إلا لأهل وطنه. وما من حقيقة مطلقة ولا من خطاب عن النفس الصادقـة الشفافة يمكن أن يضعضع موقفه هذا . ان المستعمَـر يردّ على كذب الاستعمار بكذب مماثل . ان سلوكه صريح مع أهل وطنه ، منكمش غامض مع المستعمِرين . الحق عنده هو ما يعجّل انهيار النظام الاستعماري ، هو ما يسهّل بزوغ الأمـة . في الوضع الاستعماري ليس هناك سلوك يلتزم قـول الحقيقة . وليس الخير أيضاً إلا ما يلحق ضرراً بالمستعمِرين .

وهكذا نرى الانقسام الثنائي الأول الذي كان يسود مجتمع المستعمرات يظل قائماً في فترة التحرر من الاستعمار . ذلك ان المستعمِر لا يكف ابداً عن ان يكون هو العدوّ ، هو الخصم ، هو الانسان الذي يجب القضاء عليه . أن

المضطهِد يخلق في منطقته حركةً ، هي حركة السيطرة والاستغلال والنهب ، وفي المنطقة الأخرى ، يغذّي المستعمَر المنهوب هذه الحركة على قدر ما يستطيع ، يغذي هذه الحركة التي تمضي بغير توقف من شواطىء البلاد الى قصور « الوطن » ومستودعاته . ان الأرض في هذه المنطقة المجمَّدة ساكنة لا تتحرك ، وأشجار النخيل تتمايل أمام السحب ، وأمواج البحر تتواثب على حصى الشاطىء ، والمواد الأولية تذهب وتجيء مسوّغة وجود المستعمر ، بينما يجثو المستعمَر وهو أقرب إلى الموت منه الى الحياة ، مسترسلاً في حلم واحد خالد لا يتغير . ان حياة المستوطن ملحمة أشبه بأوديسه . إنه البداية المطلقة : « هذه الأرض ، نحن صنعناها » . هو السبب الفعّال المستمر : « إذا نحن ذهبنا ، زال كل شيء ، وارتدت هذه الأرض الى القرون الوسطى . » وليس أمامه إلا اشخاص خاملون تهدهم الأمراض و « العادات الموروثة عن الأجداد » ، انهم إطار جامد يشبه أن يكون من معدن ، يحف بهذا النشاط المتحرك المتجدّد الخلاّق الذي يقوم به الاستثمار الإستعماري .

نعم ان المستوطن يصنع التاريخ ويعرف انه يصنعه . وهو يستشهد دائماً بتاريخ وطنه الأم ، فيشير إشارة واضحة الى انه هنا امتداد لذلك الوطن الأم. ومعنى هذا ان التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ أمته فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع . ولا يمكن ان يبدّل المستعمَر هذا الجمود الذي حُكم عليه به إلا إذا قرر ان ينهي تاريخ الاستعمار ، تاريخ النهب والسلب ، وان يوجد تاريخ الأمة ، تاريخ تصفية الاستعمار .

عالم حواجز ، عالم انقسام ، عالم جمود ، تماثيل : تمثال الجنرال الذي احتل البلاد ، تمثال المهندس الذي بنى الجسر ، عالم واثق من نفسه ، عالم يسحق بصخوره الظهور التي قشرت جلودها السياط ، هذا هو عالم المستعمرات . ان السكان الأصليين في هذا العالم أناس محجوزون . وليس التمييز العنصري إلا شكلاً من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري. ان أول شيء يتعلمه السكان الأصليون هو ان يلزموا أماكنهم ، وأن لا يتجاوزوا الحدود . لذلك كانت

الأحلام التي يحلمها السكان الأصليون أحلاماً عضلية ، أحلام فعل، أحلام هجوم وعدوان . أنا أحلم بأنني أثب، بأنني أركض ، بأنني أتسلق. أحلم بأنني أضحك، بأنني أجتاز نهراً بقفزة ، بأن طائفة من السيارات تطاردني ولا تدركني . ان المستعمَر ، أثناء الاستعمار، لا يفتأ يحرر نفسه من الساعة التاسعة مساءالىالساعة السادسة صباحاً .

والمستعمَر الذي ترسبت في عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه ، إنما يصبها أولاً على ذويه . فهذه هي الفترة التي نرى فيها الزنوج يقضي بعضهم على بعض ، ونرى فيها رجال الشرطة والقضاء يذهلون من فرط انتشـار الجرائم في شمال افريقيا . وسنرى فيما بعد تعليل هذه الظاهرة [1] . ويكفينا الآن ان نقول أن المستعمَر يكون إزاء الوضع الاستعماري في حالة توتر دائم . إن عالم المستوطن عالم عدو ينبذه نبذاً ، ولكنه في الوقت نفسه عالم يستهوي المستعمَر ويثير فيه الحسد . لقد كان المستعمَر يحلم دائماً ان يأخذ مكان المستعمِر . إنه لا يحلم أن يصبح مستعمِراً ، ولكنه يحلم أن يحل محل المستوطن المستعمِر . إن هذا العالم المعادي ، الثقيل الوطأة ، الذي لا يكف عن العدوان ، لا يمثـــل في نظر المستعمَر جحيماً ينبغي الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة ، وانما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة ، فتدفع عنها الجمهور المستعمَر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة .

ان المستعمَر يعيش في خشية دائمة ، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التي تفصل العالم الاستعماري عن عالمه ، لا يعرف في لحظة من اللحظات أهو تجاوزالحد المرسوم أم لا. إن المستعمَر، في هذا العالم الذي رتبه الاستعماري، مذنب دائماً . وهذا الذنب ليس ذنباً مقترفاً ، وإنما هو نوع من اللعنة . ولكن المستعمَر لا يعترف في قرارة نفسه بأي حكم يصدرونه في حقه . لقد سيطروا عليه ، ولكنهم لم يطوعوه . لقد عدوه متخلفاً عنهم ، ولكنه غير مقتنع بأنه دونهم. إنه ينتظر بفارغ صبر ان يغفل المستعمِر قليلاً حتى ينقض عليه. لا يمكن ان

---

١ ــ الفصل الخامس من هذا الكتاب (الحروب الاستعمارية والاضطرابات العقلية) .

نقول عن المستعمَر انه قلق أو خائف . فهو في عضلاته مترقب دائماً . انه يتوقع في كل لحظة أن يترك دور الطريدة ليمثل دور الصياد . إن المستعمَر شخص مضطهد يحلم دائماً أن يصبح مضطهِداً. وهذه الرموز الاجتماعية : رجال الدرك والأبواق التي تلعلع أصواتها في الثكنات ، والاستعراضات العسكرية والعلم المرفرف في الفضاء ، هذه الرموز الاجتماعية التي تكبت وتحرض في آن واحد ، لا تعني عنده : « لا تتحرك » ، بل تعني : « هيىء ضربتك تهيئة جيدة » . فإذا مال المستعمَر الى أن ينام وأن ينسى ، فإن غطرسة المستعمِر وحرصه على تجريب قوة النظام الاستعماري يذكرانه دائماً بأن المعركة الكبرى لا يمكن تأجيلها الى غير نهاية . وهذا الاندفاع الى احتلال مكان المستعمِر يغذي فيه توتراً عضلياً في كل لحظة . ونحن نعلم أن وجود الحاجز في ظروف انفعالية نفسية يقوي الميل الى الحركة .

إن العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقات جماعة بجماعة . والمستعمِر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة . إن المستعمِر إنسان مصاب بداء الميل الى العرض . واهتمامه بسلامته يحمله على ان يذكّر المستعمَر جهاراً بأنه هوالسيد : « أنا هنا السيد » فيثير في المستعمَر غضباً يكبحه هذا حين يهم أن يخرج . إن المستعمَر موثق بالأغلال القوية التي أحكم الاستعمار إطباق حلقاتها عليه . ولكننا رأينا أن المستعمِر لا يحصل إلا على تجميد ظاهري ، أما في الداخل فيظل الرجل في حالة غليان . وهذا التوتر العضلي ينطلق من حين الى حين انفجارات دامية : معارك قبلية ونزاعات بين أفراد .

فعلى مستوى الأفراد نشهد أموراً تخالف المنطق حقاً : فبينما نرى المستعمِر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار الى آخره أن يضربا المستعمَر وأن يهيناه وأن يركّعاه ، نجد المستعمَر يشهر سكينه عند أيسر نظرة عدائية أوهجومية يلقيها على مستعمَر آخر ، لأن آخر ما بقي للمستعمَر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه . ولما كانت الصراعات القبلية استمراراً لأحقاد قديمة مغروسة في الذاكرة ، فإن المستعمَر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة ، إنما

يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له ، وأن جميع الأمور تجري كما كانت تجري في الماضي، وأن التاريخ يستمر . ومن الواضح كل الوضوح أن هذا السلوك على مستوى الجماعات ، نوع من ذلك « السلوك الهروبي » المعروف ، كأن هذا الانغماس في دم الأخوة يمكن أن يعمي عن رؤية العدو الحقيقي ، وان يؤجل خوض المعركة التي لا بد من خوضها ، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار . إن المعارك التي تقوم بين القبائل إنما هي تدمير للذات ، وهذا التدمير هو إحدى الطرق التي بها يتحرر المستعمَر من توتر غضلاته . وهذا السلوك كله إنما هو انتحار تجاه الخطر ، انتحار يسمح للمستعمِر الذي تقوى بذلك حياته وتشتد سيطرته ، أن يقول بهذه المناسبة نفسها أن هؤلاء الناس ليسوا عقلاء . وهناك وسيلة أخرى يعمد اليها المستعمَر من أجل ان لا يعبأ بالمستعمِر ، وهي الدين . فبواسطة الإيمان بالقدر يُجرِّد المضطهِد من المسئولية ، باعتبار أن الله علة كل شيء ، فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس ، وهو الذي رسم هذا المصير ، فعلى الفرد أن يقبل هذا الفناء الذي أراده الله ، وهكذا يخضع للمستعمِر مذعناً للقضاء والقدر ، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق التوازن الداخلي ، الى هدوء كهدوء الصخر .

وتجري الحياة في أثناء ذلك . ومن الخرافات المرعبة ، الكثيرة في المجتمعات المتخلفة ، إنما يمضي المستعمَر يستمد أسباباً تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول أن يتحرك ، ويتصور وجود بشر أُسود ، وبشر أفاعٍ ، وكلاب لها ست أرجل ، وغيلان ، وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة ، تبني من حوله محرمات وسدوداً وموانع أرهب من العالم الاستعماري نفسه . إن هذه الاعتقادات السحرية التي يعج بها مجتمع السكان الأصليين تحقق في الحياة الجنسية وظائف معينة . فمن خصائص المجتمعات المتخلفة ان الغريزة الجنسية فيها أمر جماعي ، عائلي . لقد وصف علماء الأجناس أوضح وصف تلك الظاهرة التي أصبحت الآن معروفة ،

وهي أن الرجل ، في بعض المجتمعات ، حين يرى في المنام انه ضاجع امرأة غير امرأته ، يجب ان يعلن ذلك للناس ، وان يدفع للزوج المجني عليه او للأسرة المجنى عليها غرامة من هذا النوع أن يعمل لها عدة أيام (وهذا دليل على ان المجتمعات التي توصف بأنها سابقة على التاريخ تقيم للاشعور وزناً كبيراً) .

ان هذا الجو الخرافي السحري الذي يخيف الفرد يتصرف تصرف واقع لا سبيل إلى الشك فيه ، وهو إذ يبث الرعب في الفرد ، يدخل هذا الفرد فيتقاليد بلده أو قبيلته ، يدخله في تاريخها ، وهو في الوقت نفسه يطمئنه ، يعطيه حقوقاً ويمنحه هوية . إن عالم الأسرار في البلدان المتخلفة هو عالم جماعي لا شأن له بغير السحر . إنه إذ يقيدني بتلك الأغلال الوثيقة ، ويجعلني أكرر أعمالاً بعينها على ثبات جامد ، إنما يؤكد لي استمرار عالم هو عالمي ، هو عالمنا . صدقوني إذا قلت لكم إن أشباح الغليان مرعبة أكثر من المستعمِرين . ولا تكون مشكلة المستعمَر عندئذ أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري المصفح بالحديد ، وإنما تكون مشكلته أن يفكر ثلاث مرات قبل ان يبول أو يبصق أو يخرج في الليل .

إن القوة الغيبية السحرية تبدو له قوى جبارة ، وبذلك تصغر قوى المستعمِر في نظره كثيراً ، وتخرج من نطاق اهتمامه ، ولا يكون عليه بعد ذلك أن يكافحها ، لان أعداءه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء . وهكذا تنحل الأمور كلها في معارك دائمة على مستوى الوهم والخيال .

ولكن حين يجيء كفاح التحرير ، فان هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسماً الى طوائف وهمية ، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب ، وكان مع ذلك سعيداً بضياعه في زوبعة الأوهام ، يتبدل أثناء كفاح التحرير ، وينظم نفسه تنظيماً جديداً ، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جداً ، مباشرة جداً . فتقديم الطعام للمجاهدين ، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة ، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأود ، والنهوض بأعباء زوج قُتل او سجن ، تلك مهمات محسوسة ملموسة يدعى اليها الشعب أثناء كفاح التحرير .

والحياة الانفعالية لدى المستعمَر في العالم الاستعماري تجري على السطح كجرح نازف ، والنفس تنقبض وتتفصد ، وتُفرغ شحناتها مظاهرَ عضلية جعلت بعض « كبار العلماء » يقولون عن المستعمَر إنه انسان مصاب بالهستريا . إن هذه الإنفعالية المتوفرة التي يراقبها حرس لا يُرون ، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأساً ، لا بد أن تجد لذتها في تلك الانحلالات الحركية التي تلاحظ أثناء حدوث النوبة .

وعلى جانب آخر نرى انفعالية المستعمَر تنطلق في أنواع من الرقص يخرج بصاحبه عن طوره ، ويجعله في حالة من النشوة . ولذلك كان على كل دراسة تتناول العالم المستعمَر أن تعنى حتماً بفهم ظاهرة الرقص والمسّ . إن المستعمَر يفرّج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة التي تجد فيها العدوانية مهما تكن حادة ، ويجد فيها العنف مهما يكن مباشراً ، مجاري وسبلاً الى التحول والتلاشي . إن حلقة الرقص حلقة إباحة ، حلقة تحمي وتجيز . ففي ساعات محددة، من أيام معينة، يجتمع رجال ونساء في مكان بذاته، ويأخذون يقومون على مرأى من القبيلة بحركات تمثيلية يوهم ظاهرها بأنها فوضى، ولكنها في حقيقة الأمر منظمة جداً ، فبأساليب مختلفة ، كهزّ الرأس وإحناء الظهر واندفاع الجسم كله الى وراء ، تبذل الجماعة جهداً كبيراً في سبيل ان تُخرج ذاتها ، ان تعبر عن نفسها . وكل شيء مباح في الحلقة . والأمكنة التي يتم فيها ذلك كله أمكنة مقدسة : الجبل الصغير الذي يصعدون إليه كأنما ليقتربوا من القمر ، والضفة التي ينحدرون اليها كأنما ليظهروا الوحدة بين الرقص والتطهّر . واذا كان كل شيء مباحاً فلأنهم لم يجتمعوا إلا من أجل ان يدعوا للغريزة الجنسية المتجمعة ، وللعدوانية المكبوحة ان تنفجر انفجار البركان . يجب ان تتخفف النفس من أثقالها : فها هم يقومون بأعمال ترمز الى القتل ، وبحركات تمثل الفروسية ، وبأفعال تصور الإبادة . إن عليهم أن يتخففوا من هذا كله بالوهم والخيال . فبذلك تنطلق حمم الغضب من أعماق النفس انطلاق قذائف البركان من باطن الأرض .

وما هي إلا خطوة أخرى حتى نجد أنفسنا أمام ظاهرة المسّ ، ظاهرة شعور الفرد بأنه ممسوس ، بأن كائناً غيبياً قد تسلل إليه واستحوذ عليه . إن تلك الجلسات التي نشهدها لدى هؤلاء الناس إنما هي ظاهرة مس وتحرر من المس: مسّ من الجن والشياطين والأشباح والأرباب ، الخ . فهذه الأنواع من التفتت في الشخصية ، والازدواج في الشخصية ، من التحلل في الشخصية ، إنما تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمَر . إن الرجال والنساء يذهبون الى تلك الجلسات وقد نفذ صبرهم وتوفزت أعصابهم ، حتى إذا عادوا كان الهدوء والسلام والسكون يهيمن على القرية .

ولكننا نشهد في أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس . إن المستعمَر حين يُجعل ظهره إلى الجدار ، وتوضع السكين على عنقه ، أو يقرب السلك الكهربائي من أعضائه الجنسية ، يضطر الى هجر تلك الخزعبلات. إنه بعد أن أنفق من عمره سنوات في الأوهام والأخيلة ، بعد أن غرق في تلك التهاويل الغريبة ، يمسك الآن رشاشه بيده ، ويقاتل القوى التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه ، أعني قوى الاستعمار . والمستعمَر الشاب الذي ينمو ويترعرع في هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر – وهو يسخر حقاً – من الأجداد والأشباح ، والخيول ذات الرأسين ، والموتى الذين يستيقظون ، والجن الذين يترقبون ان يتثاءب المرء حتى يتسللوا الى جسمه ، إن المستعمَر يكتشف الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية ، ويمارس العنف ، ويعمل في سبيل التحرير .

لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ، ورأينا شحناته تفرّغ في الرقص او في الحفلات التي تعقد لطرد العفاريت من المسوسين ، ورأيناه يُستنفد في خصومات يقتل فيها الإخوة إخوتهم . والمسألة الآن هي أن نقبض على هذا العنف الذي ينحرف عن سبيله ويضل عن غايته . لقد كان قبل الآن ينصرف في ترهات خرافية ، وكان يحاول أن يكتشف مناسبات انتحار جماعي ، غير ان ظروفاً جديدة ستتيح له الآن أن يغير اتجاهه .

هناك على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هي على جانب عظيم من خطورة الشأن، يطرحها في العصر الراهن تحريرُ المستعمرات، هذه المسألة هي : متى يمكن القول إن الوضع قد نضج الى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني ! ومن هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة ؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة فـإن العقل يتردد إزاء هذه المسألة ، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضـــاء حقيقي على الاستعمار ، وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار . وسنرى ان على الإنسان الذي قرر الإنخراط في المعركة ان يحدد الوسائل والتكتيك، أي ان يعين السلوك والتنظيم، وإلا لم يكن الأمر إلا اندفاع أعمى ، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس .

ما هي القوى التي تقترح على المستعمَر في فترة الاستعمار أن يصب عنفـه في طرق جديدة وأن ينفق طاقاته في أعمال جديدة ؟ هذه القوى هي اولاً الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية . ونحن نعلم أن ما يميـــز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمبادىء، ولكنها تمتنع عن إطلاق شعارات. وكل النشاط الذي تقوم به هذه الأحزاب السياسية الوطنية إنما هو في فـــترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي ، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرهـا ، وحق البشر في الكرامة والخبز، هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل « إن لكل فرد صوتاً »، ان الأحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبـداً على ضرورة استعمال القوة ، لأن هدفها ليس قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره . إن هذه الأحزاب السياسية أحزاب مسالمة ، تنادي بالمشروعية ، وتناصر في حقيقة الأمر النظام ... الجديد ، ولا تزيد على أن توجه إلى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب : « أعطونا مزيداً من السلطة » . أما النخبة المثقفة ، فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به ، هي عنيفة في الأقوال ، إصلاحية في المواقف والأعمال . إن المنظمات السياسية الوطنيـــة البورجوازية تقول شيئاً وتعني غيره .

ويجب ان نفسر هذه الخاصة التي تميز الأحزاب السياسية الوطنية ، بأمرين في آن واحد هما نوع قادتها ونوع قاعدتها . إن قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن . وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار الذين بـدأوا يستفيدون من الوضع الاستعماري ولو استفادة ضئيلة ، هؤلاء لهم مصالح خاصة . وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الأحـــزاب السياسية إنما هو تحسين أحوالها وزيادة أجورها . والحـوار بين هذة الأحزاب السياسية والاستعمار لم ينقطع يوماً . فهي تبحث في تحسين الأحوال وفي التمثيل الانتخابي ، وفي حرية الصحافة وحرية الاجتماع . إنها تبحث في الاصلاحـات . ولذلك يجب أن لا يدهشنا أن نرى عدداً كبيراً من السكان الأصليين ينتمون الى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمِر . إن هؤلاء ينادون بشعار مجرد : « السلطة لطبقة البروليتاريا » ناسين أن شعارات وطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في منطقتهم . إن المثقف المستعمَر ينفق طاقته الهجومية في صبوة مكشوفة إلى التشبه بالعالم الاستعماري . لقد وضع طاقته الهجومية في خدمة مصالحه الخاصة ، وهي مصالح أفراد . وبذلك تنشـأ ، بسهولة ، طبقة من العبيد المحرَّرين فردياً ، إن ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هـــؤلاء المحرِّرين ، هو إقامة طبقة من المحرَّرين . ولا كذلك الجماهير ، فانها لا تهدف إلى زيادة فرص نجـاح الأفراد . إن ما تريده ليس هو الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمِر ، بل هو أخذ مكان هذا المستعمِر . إن الأكثرية الساحقة من المستعمَرين تريد ان تستولي على مزرعة المستعمِر . ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمِـر أنداداً متنافسين ، وإنما هدفهم أن يحلوا محله .

إن الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية ، تغفل طبقـة الفلاحين دائماً ، مع ان من الواضح أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمَرة هي الطبقـــة الثورية الوحيدة . إن هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئاً ، بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء . والفلاح ، المنبوذ ، الجائع ، هو الانسان المستغَل الذي يكتشف قبل غيره ان العنف وحده هو الوسيلة المجدية . انه امرؤ ليس

عنده حل وسط ، ولا مجال عنده لتسوية ، والقوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله . إن هذا المستغل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل ، وأولها القوة . حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٦ ، بعد استسلام جي موليه للمستعمِرين الفرنسيين، حين أعلنت في منشور شهير لها، أن الاستعمار لا يرفع يده إلا إذا جعلت السكين في عنقه ، لم يجد أي جزائري صادق أن هذه الألفاظ عنيفة . لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين « ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من ان الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسماً مزوداً بعقل ، وإنما هو عنف هائج لا يمكن ان يخضع إلا لعنف أقوى .

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم ، رأينا البورجوازية الاستعمارية التي ظلت إلى ذلك الحين مبتعدة ، رأيناها تتدخل ، منادية بهذه الفكرة الجديدة التي هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعماري ، ألا وهي فكرة « اللاعنف » . وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمَرة من مناداة البورجوازية الاستعمارية « باللاعنف » على هذه الصورة الخاصة ان لهذه البورجوازية الاستعمارية نفس المصالح التي لها ، وان من الضروري المستعجل والحالة هذه ان تبادر إلى عقد اتفاق معها يضمن السلامة للطرفين . ان اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل الى تراجعها ، قبل إهراق الدم ، قبل القيام بأي عمل مؤسف ، حتى إذا رأوا الجماهير ، قبل ان يصفّوا الكراسي حول المائدة الخضراء ، تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها ، فتبادر إلى استعمال الحرائق والقيام بهجماتها، هرعوا — اي أفراد « النخبة » وقادة الأحزاب البورجوازية الوطنية — هرعوا الى الاستعماريين يقولون لهم : « الأمر خطير جداً . وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله . فلا بد من إيجاد حل ، لا بد من إيجاد تسوية » .

وفكرة التسوية هذه هامة جداً في ظاهرة التحرر من الاستعمار، لأنها ليست بسيطة . فالتسوية تتناول في الواقع النظام الاستعماري والبورجوازية الوطنية

الناشئة . ان قادة النظام الاستعماري يكتشفون ان الجماهير تهم ان تحطم كل شيء ، فنسف الجسور ، وتخريب المزارع ، وأنواع القمع ، والحرب ، ذلك كله يطعن الاقتصاد طعناً قاسياً . والتسوية تهم البورجوازية الوطنية أيضاً ، فهذه البورجوازية الوطنية تخشى النتـــائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الإعصار الجبار ، وتخاف ان تكنسها هذه الريح العاصفة ، فلا تفتأ تقول للمعمّرين : «اننا ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة ، فالجماهير ما تزال تثق بنا ، فأسرعوا إذا كنتم لا تريدون ان تعرضوا للمخاطر كل شيء » . وما هي إلا خطوة واحدة ، حتى نرى موّجه الحزب الوطني يعلن معارضته لهذا العنف ، ويقول بصوت عال ان لا شأن له بهؤلاء الماو ماو ، لا شأن له بهؤلاء الارهابيين ، لا شأن له بهؤلاء الذّباحين . وهو في أحسن الحالات يقف في«منطقة محرمة» تفصل بينالارهابيين والمعمرين ، ويعرض نفسه « وسيطاً » بين الطرفين ، ومعنى هذا انه لما كان المعمرون لا يستطيعون ان يبحثوا الأمر مع هؤلاء الماو ماو ، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات . وهكذا نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني ، الناس الذين لم يشتركوا يوماً في النضال ، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل إيجاد تسوية لا لشيء إلا لأنهم حرصوا دائماً على ان تبقى الصلة قـــائمة بينهم وبين الاستعمار .

قبل المفاوضات ، تكتفي أكثر الأحزاب الوطنية ، في أحسن الأحوال ، بأن تلتمس المعاذير لهذه « الوحشية » . إنها لا تطالب بالكفاح الشعبي ، وليس نادراً أن نراها تنتقد ، في حلقات مغلقة ، تلك الأعمال التي تصفها صحافة البلد المستعمِر ويصفها رأيه العام بأنها منكرة كريهة . وهـــذه السياسة التجميدية يتعلل بالحرص على رواية الأمور رواية موضوعية . ولكن هذا الموقف الذي تقفه المثقف المستعمَر ويقفه قادة الأحزاب الوطنية ليس في حقيقة الأمر موقفاً موضوعياً . وإنما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بأن هذا العنف الجامح الذي تعمد اليه الجماهير هو السبيل الأجدى الى الدفاع عن مصالحهم الخاصة . ثم انهم غير مقتنعين بجدوى الأساليب العنيفة . وعندهم أنه لا يجوز الشك في ان كل

محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة انما هي سلوك يأس ، سلوك انتحار . ذلك أن دبابات المعمرين والطائرات المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكاناً كبيراً فمتى قلت لهم : يجب علينا ان نعمل ، رأوا القنابل تتسابق فوق رؤوسهم ، ورأوا الدبابات تزحف على طول الطريق ، ورأوا الرشاشات ، والشرطة ... فظلوا قاعدين لا يتحركون . ان عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة الى البرهان عليه ، انهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية وفي مناوراتهم . انهم يظلون عند ذلك الموقف الصبياني الذي تبناه انجلز في مجادلته الشهيرة مع «هرنج» ذلك الجبل من الصبيانية . « كما استطاع روبنسون أن يحصل على سيف ، ففي وسعنا أيضاً ان نتصور ان يظهر فاندرودي ذات صباح وفي يده مسدس مشحون» وعندئذ تنقلب نسبة العنف رأساً على عقب ، فاذا فاندرودي هو الذي يأمر وإذا روبنسون هو الذي يكدويشقى... فالمسدس يتغلب إذن على السيف، بل ان أكثر عشاق البديهيات صبيانية في وسعه ان يتصور ان العنف ليس فعلَ إرادة فحسب ، وإنما هو يقتضي شروطاً تحضيرية واقعية جداً ، ويقتضي على وجه الخصوص أدوات يتغلب أكملها على الأقل كمالاً ؛ وان هذه الأدوات ، عدا ذلك، يجب انتاجها ، ومعنى هذا ان الذي ينتج أدوات للعنف أكمل ... يتغلب على من ينتج أدوات للعنف أقل كمالاً ، وزبدة القول ان انتصار العنف يقوم على إنتاج الأسلحة ، وإنتاج الأسلحة يستند الى الإنتاج بوجه عام ... أي يقوم اذن على « القوة الاقتصادية » ، على الدولة الاقتصادية، على الوسائل المادية التي توضع تحت تصرف العنف [1] » . الواقع ان القادة الإصلاحيين لا يقولون شيئاً آخر : « بأي شيء تريدون ان تحاربوا المعمرين ؟ بسكاكينكم ؟ ببنادق الصيد التي عندكم ؟ » .

صحيح ان الأدوات هامة في ميدان العنف ، لأن كل شيء يتوقف آخر الأمر على توزع هذه الأدوات. ولكن تحرير الاراضي المستعمَرة يأتينا بأضواء

٢ــ انجلز ، « أنتي دوهرنج » ، الجزء الثاني ، الفصل الثالث، « نظرية العنف »، ص١٩٩ من الطبعة الفرنسية (إديسيون سوسيال) .

جديدة في هذا المجال . لقد رأينا مثلاً ان نابوليون ، في حملة إسبانيا التي كانت حرباً استعمارية تماماً ، أُجبر على التقهقر رغم جيوشه التي بلغت أثناء هجمات الربيع من عام ١٨١٠ رقماً هائلاً هو ٤٠٠ الف مقاتل . وكان الجيش الفرنسي أثناء ذلك يرعب أوروبا كلها بعداته الحربية ، وبسالة جنوده، وعبقرية ضباطه العسكرية . لقد اكتشف الاسبان الذين كان يحركهم إيمان لا يتزعزع ، اكتشفوا تلك الطريقة في حرب العصابات التي كان المقاتلون الامريكان قد جرّبوها قبل خمسة وعشرين عاماً في محاربة الجيوش الانجليزية . ولكن حرب العصابات هذه التي يقوم بها المستعمَر لا تكون أداة عنف في وجه أدوات أخرى من أدوات العنف ، ما لم تكن عنصراً جديداً في تلك العملية الشاملة ، عملية التنافس بين التروستات والاحتكارات .

في أول الاستعمار كان يكفي فيلق واحد لاحتلال أراض واسعة : الكونجو ، نيجيريا ، ساحل العاج الخ. اما اليوم فإن الكفاح الوطني الذي يقوم به المستعمَر يدخل في ظرف جديد جدة مطلقة . لقد كانت الرأسمالية ، في فترة انطلاقتها، ترى في المستعمرات ينبوعاً لمواد أولية يمكنها أن تصبها في السوق الاوروبية بعد تصنيعها . ولكنها بعد مرحلة تجمع رأس المال وصلت اليوم الى تبديل مفهومها عن الربح الذي يحققه مشروع من المشاريع . لقد أصبحت المستعمرات سوقاً . إن سكان المستعمرات زبائن يشترون . فاذا كان لا بد للثكنات من ان تعزز الى غير نهاية ، وإذا بطؤت حركة التجارة ، اي إذا لم يعد في الامكان تصدير المنتجات المصنَّعة ، كان هذا دليلاً على ان الحل العسكري يجب الابتعاد عنه . ان السيطرة العمياء التي هي من نوع الاستعباد لا تدر على البلد المستعمِر أرباحاً . والفئة الاحتكارية من بورجوازية البلد المستعمر لا تدعم حكومة سياستها هي سياسة السيف وحده . ان الصناعيين ورجال المال في البلد المستعمِر لا يرجون من حكومتهم ان تهلك السكان، وإنما يرجون منها ان تحمي «مصالحهم المشروعة » باتفاقات اقتصادية .

فهناك إذن تواطؤ موضوعي بين الرأسمالية وبين قوى العنف التي تنطلق في

الاراضي المستعمَرة . ثم ان المستعمَر لا يجابه المضطهِد وحيداً . هناك ، طبعاً، المعونة السياسية والدبلوماسيه التي تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية . ولكن هناك التنافس خاصة ، هناك تلك الحرب الضارية التي تقوم بين الطوائف الاقتصادية . ان مؤتمراً كمؤتمر برلين قد استطاع ان يقسم افريقيا الممزقة الى ثلاثة أجنحة او أربعة . أما الآن فليس المهم ان تكون هذه المنطقة او تلك خاضعة للسيادة الفرنسية أو البلجيكية ، وانما المهم حماية المناطق الاقتصادية . ان القصف بالمدافع وسياسة الأرض المحروقة ، قد حلت محلها الآن سياسة الاخضاع الاقتصادي . ان الاستعماريين لا يخوضون الآن حرباً تأديبية ضد السلطان المتمرد . انهم الآن أكثر لباقة ، وأقل دموية ، فهم يقررون ان يُصفّوا النظام القيصري تصفية سلمية . انهم يحاولون خنق غينيا ، ويزيلون مصدق . ويخطىء اذن الزعيم الوطني الذي يخاف العنف ، إذ يتصور ان الاستعمار « سيقتلنا جميعاً » . صحيح ان العسكريين يستمرون على اللعب باللعب التي يرجع عهدها الى أيام الفتح ، ولكن الأوساط المالية ما تلبث ان تردهم الى الواقع .

ولذلك يطلبون الى الأحزاب السياسية الوطنية العاقلة ان تعرض مطاليبها واضحه ، وان تبحث مع الشريك الاستعماري في جو هادىء لا تعكره العواطف عن حل يكفل مصالح الطرفين . وواضح ان هذه النزعة الاصلاحية الوطنية ، التي تبدو في كثير من الأحيان نوعاً من الكاريكاتور للعمل النقابي ، تعمد دائماً إلى وسائل سلمية جداً اذا هي قررت ان تعمل : اضرابات عن العمل في الصناعات القليلة الموجودة في المدن ، مظاهرات جماهيرية لتأييد الزعيم ، حجز سيارات النقل أو الحاصلات المستوردة . إن هذه الأعمال كلها تحقق غرضين في آن واحد ، هي الضغط على الاستعمار واستنفاد قوى الشعب . وهذه الطريقة في تنويم الشعب تنجح في بعض الأحيان . وعندئذ ، من المناقشة حول المائدة الخضراء ، ينبثق هذا التنصيب السياسي الذي يسمح للسيد « مبا » ، رئيس جمهورية الجابون ، ان يقول في كثير من الأبهة والعظمة حين وصوله الى

باريس في زيارة رسمية . « لقد استقلت الجابون ، ولكنْ بين الجابون وفرنسا لم يتبدل شيء ، بل كل شيء يستمر كما كان » . والواقع أن التبدل الوحيد الذي تحقق هو ان السيد « مبا » قد أصبح رئيس الجمهورية الجابونية ، وان رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله .

والدين الذي لا مناص منه يساعد البورجوازية الاستعمارية في محاولة التهدئة التي تقوم بها . ان جميع القديسين الذين مدّوا الخد الأيسر لمن ضربهم على الخد الأيمن ، الذين غفروا لمن أساء إليهم ، الذين تلقوا البصاق والإهانة دون أن يختلجوا ، إن هؤلاء جميعاً يُستشهد بهم . وأفراد النخبة في البلاد المستعمَرة ، هؤلاء العبيد الذين أُعتقوا ، لا بد ان ينتجوا بديلاً للقتال حين يكونون على رأس الحركة . إنهم يستعملون عبودية إخوتهم من أجل ان يخجل منهم المستعبدون ، او من أجل ان يزوّدوا الجماعات المالية ، المتنافسة مع المضطهِدين ، بمضمون أيديولوجي إنساني النزعة هو لهم بمثابة المصباح المرشد . إنهم لا يتجهون بندائهم أبداً الى العبيد ، إنهم لا يفعلون ذلك حقاً في يوم من الأيام ، ولا يحاولون ان يعبئوا قوى هؤلاء العبيد تعبئة حقيقية ، إنهم يلوّحون تلويحاً بأن تعبئة الجماهير هي السلاح الحاسم الذي سيؤدي الى « نهاية النظام الاستعماري » ، كأنما بنوع من السحر ، متظاهرين ان هذا هو ما يعتقدونه حقاً وصدقاً ، مع أنه في قرارة أنفسهم كذب . وبطبيعة الحال لا بد ان يوجد في هذه الأحزاب السياسية ، وبين أعضاء قيادتهم ، أناس ثوريون يديرون ظهورهم لمهزلة الاستقلال الوطني عن وعي وفهم . ولكن هؤلاء سرعان ما تنزعج آلة الحزب من تدخلاتهم ومبادهاتهم واستياءاتهم ، فإذا بهؤلاء الثوريين يُعزلون شيئاً بعد شيء ، ثم يُبعدون عن الحزب صراحة . وفي الوقت نفسه ، يتعرف عليهم البوليس الاستعماري . كأن هنالك نوعاً من التواقت والتلازم . فإذا صاروا في المدينة غير آمنين على أنفسهم ، وصار أعضاء الحزب يتحاشونهم ، ونبذتهم سلطات الحزب ، رأينا هؤلاء المنبوذين الذين تقذف أعينهم شرراً محرقاً ، يذهبون الى الأرياف ، وهنالك يدركون وفي رؤوسهم دوار أن جماهير الفلاحين تفهم عنهم

بنصف كلمة ، وتطرح عليهم فوراً هذا السؤال الذي لم يهيئوا جوابه : « متى نبدأ ؟ » .

ستتحدث فيما بعد عن هذا اللقاء بين الثوريين الآتين من المدن وبين القرويين. وإنما يحسن الآن أن نعود الى الأحزاب السياسية ، لنبين ان لعملها مع ذلك طابعاً تقدمياً . إن الموجهين السياسيين يتحدثون في خطبهم عن الأمة . إنهم « يسمّون » الأمة . وبذلك تأخذ مطالب المستعمَر شكلاً . صحيح أنه ليس هناك مضمون ، صحيح أنه ليس هنالك برنامج سياسي واجتماعي ، صحيح أنه ليس هنالك إلا شكل غامض مبهم ، ولكن هذا الشكل قومي ، انه إطار ، وهو ما نسميه بالحد الأدنى من المطالب . إن رجال السياسة الذين يخطبون ، ويكتبون في الصحف الوطنية ، يجعلون الشعب يحلم صحيح أنهم يتحاشون فكرة نسف النظام القائم ، ولكنهم في الواقع يبثون في ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف. وهم كثيراً ما يستعملون اللغة الوطنية أو لغة القبائل ومن شأن هذا أيضاً ان يغذّي الحلم ، وأن يسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعماري . هذا الى ان هؤلاء السياسيين يقولون أحياناً : « نحن العرب ، نحن الزنوج » وهذه التسمية المثقلة بالاحتقار في عهد الاستعمار تتلقى بذلك نوعاً من الاحترام والتقديس . إن السياسيين يلعبون بالنار . ومن أجل ذلك رأينا أحد السياسيين الافريقيين يسرّ إلى جماعة من المثقفين الشباب منذ مدة يسيرة قوله : « فكروا قبل ان تخاطبوا الجماهير ، لأن الجماهير ، تلتهب مشاعرها بسرعة » . هنالك إذن مكر من التاريخ يتم في المستعمرات على نحو رهيب .

حين يدعو أحد السياسيين الشعب الى اجتماع ، فيمكن ان نقول ان في الهواء دماً . ومع ذلك فإن هذا السياسي لا يُعنى في أكثر الأحيان إلا « بإظهار » قواه ... دون استعمالها . غير أن هذا التحرك المتصل ـ من ذهاب وإياب ، واستماع الى خطب ، ورؤية الشعب مجتمعاً ، ورؤية الشرطة حوله ، وقيام الجنود باستعراضات ، واعتقال أفراد من الناس ، وترحيل الزعماء ، الخ ـ هذا التحرك المتصل يُشعر الشعب بأنه قد آن له هو ان يفعل شيئاً . والأحزاب

السياسية ، في مثل هذه اللحظات القلقة ، تكثر نداءاتها إلى ناحية اليسار طالبة إلى الشعب أن يلتزم الهدوء، بينما هي تتطلع بأنظارها إلى ناحية اليمين تستكشف الأفق ، وتحاول أن تحذر ما يخبئه الاستعمار من نيات .

والشعب يستعمل أيضاً بعض الأحداث من حياة الجماعة ، في سبيل أن يحافظ على شكله ، وأن يصون طاقته الثورية . من ذلك ان قاطع الطريق الذي يصمد لمطاردات رجال الدرك أياماً بكاملها ، أو للذي يُقتل في معركة فذة بعد أن يقتل أربعة من رجال الشرطة أو خمسة ، أو الذي ينتحر حتى لا « يسلم » رفاقه ، هؤلاء جميعاً بالنسبة إلى الشعب منارات ، وقدوات ، و « أبطال » . وليس يجدي طبعاً أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال إنه لص ، أو رجل فاسد ، أو منحط . فإنه يكفي أن يكون هذا الرجل الذي تطارده السلطات الاستعمارية قد أساء إلى أحد المستعمِرين أو إلى أملاك أحد المستعمرين ، حتى يُفرّق بينه وبين المذنب العادي تفريقاً واضحاً .

ويجب أن نشير أيضاً إلى الدور الذي يلعبه ، في ظاهرة النضج هذه ، تاريخ المقاومة الوطنية عند الغزو الاستعماري . ان الوجوه الكبرى الذي تظل ماثلة في خيال الشعب المستعمَر إنما هي وجوه أولئك الذين قادوا المقاومة الوطنية أثناء الاحتلال . ان وجوه بيهانزين ، وساوندياتا ، وساموري ، وعبد القادر تعود إلى الحياة بقوة كبيرة في الفترة التي تسبق بدء الكفاح ، وعودتها هذه بشير بأن الشعب يتهيأ لأن يستأنف السير ، لأن يوقف الزمن الميت الذي حمله اليه الاستعمار ، لأن يصنع التاريخ .

إن انبثاق الأمة الجديدة ، وتدمير النظم الاستعمارية هما إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمَر ، واما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى مستعمَرة فيضغط على النظام الاستعماري .

إن الشعب المستعمَر ليس وحيداً في المعركة . وحدوده تظل تتسرب منها الأنباء والأصداء رغم الجهود التي يبذلها الاستعمار . انه يكتشف ان العنف يملأ الجو ، وأنه ينطلق هنا وهناك ، وأنه هنا وهناك ينتصر على النظام الاستعماري .

فهذا العنف الذي ينتصر لا يقوم لدى المستعمَر بدور النبأ الذي يطلعه على الاحداث، وإنما هو يحضه على العمل. ان الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو لم يعد انتصاراً فيتنامياً فحسب، فمنذ شهر تموز من عام ١٩٥٤ أصبحت المسألة التي تطرحها الشعوب المستعمَرة على نفسها هي المسألة التالية: «ماذا يجب ان نعمل حتى نحقق ديان بيان فو ثانيه؟ كيف يجب أن نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية؟». وما من مستعمَر كان يستطيع ان يشك في إمكان تحقيق انتصار كذلك الانتصار الذي تحقق في ديان بيان فو. وأصبحت عناصر المسألة هي هذه: اعداد القوى، تنظيمها، تحديد موعد البدء في المعركة. وهذا العنف الذي يملأ الجو لا يبدل المستعمَرين فحسب، بل يبدل أيضاً الاستعماريين الذين يدركون ان معارك كثيرة سيكون مصيرها كمصير معركة ديان بيان فو. ولذلك فإن ذعراً كبيراً منظماً يجتاح الحكومات الاستعمارية ويستولي عليها. فاذا حديثهم يدور حول ضرورة استباق الأمور، ضرورة تحويل حركة التحرير الى جهة اليمين، ضرورة تجريد الشعب من الحجج التي يتذرع بها، واذا هم يقولون: «يجب أن نبادر بسرعة إلى تحرير المستعمرات. » يجب أن نحرر الكونغو قبل أن تتحول الى «جزائر» يجب أن نقترع على قانون الدستور لافريقيا، يجب ان نبادر الى خلق «رابطة الشعوب الفرنسية» يجب على كل حال أن نحرر المستعمرات، يميناً إن علينا ان نحرر المستعمرات... وهم يبادرون الى هذا التحرير بسرعة تبلغ من الشدة أنهم يفرضون الاستقلال على هوفويت بوايني فرضاً. وهكذا يرد الاستعمار على استراتيجية ديان بيان فو التي يرسمها المستعمَر باستراتيجية أخرى، هي استراتيجية منح الاستقلال واحترام سيادة الدول.

ولنعد الآن الى ذلك العنف الذي يملأ الهواء والذي رأيناه، قبل اكتمال نضجه، يفرغ شحناته في غير الطرق السلمية. إن هذا العنف، رغم التحولات التي فرضها عليه الاستعمار، إذ جعله ينصرف في نزاعات قبلية أو محلية، يسير الآن في طريقه. إذن فالمستعمَر يعرف عدوه، ويسمي أنواع الشقاء التي يقاسيها، ويضع في هذا الدرب الجديد كل ما في حقده وغضبه من قوة هائلة. ولكن

كيف ننتقل من العنف الذي يملأ الهواء الى العنف الذي يتدفق في كفاح ؟ ما هو الشيء الذي يفجّر المرجل ؟ هنالك أولاً هذه الواقعة ، وهي ان هذا التطور يفسد على المعمّر طمأنينته . إن المعمّر الذي يعرف « هؤلاء الأهالى » ، يدرك من بادرات كثيرة ان هناك شيئاً هو بطريق التبدل والتغير . لقد أصبح يندر أن يقع على أناس « طيبين » مسالمين، من هؤلاء والأهـالي ،وأصبح الأهالي يصمتون حين يقترب منهم أحد المعمّرين . والنظرات في بعض الأحيان قاسية ، والأوضاع والأحاديث تدل على روح الهجوم دلالة واضحة . والأحزاب السياسية تتحرك وتكثر اجتماعاتها ، وفي الوقت نفسه يزداد عدد رجال الشرطة ، وتصل إمدادات عسكرية . إن المعمّرين ، ولا سيما الزارعين المنعزلين في مزارعهم ، هم أول من يحس بالخطر ، فيطالبون باتخاذ إجراءات قوية .

وتعمد السلطات فعلاً الى اتخاذ إجراءات لإظهار قوتها ، فتقتل زعيماً أو زعيمين ، وتنظم استعراضات عسكرية ، وتقوم بمناورات وتطلق طائراتها في السماء . ولكن هذه المظاهر وهذه التدريبات الحربية ورائحة البارود هذه التي تملأ الجو في هذه الأيام تحمل الشعب على التراجع والتقهقر ، بل ان المدافع والحراب تذكي نار الهجوم فيه . ويسود جو بطولي يريد فيه كل فرد أن يبرهن على انه مستعد لكل شيء . وفي هذه الظروف تنطلق الطلقة من تلقاء نفسها ، لأن الأعصاب متوفزة ، والخوف يملأ النفوس ، والناس قد تركز إحساسها على الزناد . فما هو إلا حادث تافه حتى يبدأ أطلاق الرصاص : ذلك ما حدث في صطيف بالجزائر ، وفي الكاريير سنترال بمراكش ، وفي مورامانجا بمدغشقر . ولكن أعمال القمع التي تقوم بها السلطات الإستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب ، بل تعجل نمو الوعي القومي . ان النوازل في المستعمرات انما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو ، لأنها تدل على ان القوة وحدها هي التي تفض المشاكل بين المضطهِدين والمضطهَدين . ويجب ان نذكر هنا أن الأحزاب السياسية لم تطلق شعار الثورة المسلحة ، ولا هي أعدت هذه الثورة. إن جميع هذه الأعمال العنيفة ، ان جميع هذه الأفعال التي ولدها الخوف، لم يشأ السياسيون ان تقع . وإنما باغتتهم الحوادث

مباغبتة . وفي هذه اللحظة يستطيع الاستعمار ان يقرر اعتقال القادة الوطنيين. ولكن حكومات البلاد الاستعمارية تعرف اليوم حق المعرفة أن حرمان الجماهير من زعيمها أمر خطر كل الخطر . لأن الشعب عندئذ ، وقد فقد لجامه ، يندفع الى العنف والارهاب و « الأعمال الوحشية » اندفاعاً قوياً ، ويطلق العنان « لغرائزه الدموية » فيفرض على الاستعمار إطلاق سراح الزعماء الذين تقع على عاتقهم هذه المهمة الصعبة ، وهي أن يعيدوا الهدوء والسكينة . وهكذا فإن الشعب المستعمَر الذي انطلق من تلقاء ذاته يستعمل العنف في سبيل تحقق تلك المهمة العظيمة ، مهمة تحطيم النظام الاستعماري ، يجد نفسه بعد برهة قصيرة مقتصراً على المناداة بهذا الشعار الميت القيم · « إطلاق سراح زيد أو عمر من الناس [1] . » وعندئذ يطلق الاستعمار سراح هؤلاء الناس ، ويبحث الأمور معهم ، وتبدأ ساعة احتفالات الابتاج الشعبية .

وفي حالة أخرى لا يمس جهاز الأحزاب السياسية بأذى ولكن القمع الاستعماري والحركة التي يقوم بها الشعب من تلقاء ذاته رداً على ذلك القمع ، ما يلبثان أن يجعلا القاعدة الشعبية في تلك الأحزاب تطغى على قياداتها ، فالجماهير تقابل القوى العسكرية بعنف قوي ، فيتردى الوضع بالنسبه الى الاستعمار ، والسياسيون الذين لم يعتقلوا يصبحون على الهامش أناساً متعطلين لا خير فيهم ولا في بيروقراطيتهم وبرامجهم الحكمية ، فهم بعيدون عن الحوادث ، ولكنهم لا يتورعون عن التبجح الكاذب فتراهم « يتحدثون باسم الشعب المضطهد » . والاستعمار في العادة يتهافت بشراهة على هذه النفاية ، ويحيل هؤلاء العاطلين الى مفاوضين ، فما هي إلا ثوانٍ أربع حتى يمنحهم الاستقلال ، ويكون عليهم بعد ذلك ان يعيدوا النظام الى نصابه.

جميع الناس شاعرون إذن بهذا العنف ، وليست المسألة دائماً كيف يُرد

---

٣ ـ قد يحدث ان يكون الزعيم المعتقل تعبيراً صادقاً عن الجماهير المستعمرة . وفي هذه الحالة ينتهز الاستعمار فرصة اعتقاله من أجل محاولة إيجاد زعماء جدد.

عليه بعنف أشد ، وإنما هي : كيف توقف الأزمة ؟

فما هو هذا العنف في واقع الأمر ؟ لقد رأينا أنه إدراك الجماهير المستعمَرة ، بحدسها ، ان تحررها يجب أن يتم بالقوة ، ولا يمكن ان يتم إلا بالقوة . فكيف يصل هؤلاء الناس الذين ليس لهم خبرة ، هؤلاء الناس الجياع الضعاف ، الذين لا علم لهم بطرائق التنظيم كيف يصلون إزاء القوة الاقتصادية والعسكرية التي يملكها المحتل ، الى الاعتقاد بأن العنف وحده يستطيع ان يحررهم ؟ كيف يستطيعون أن يؤملوا في النصر ؟

ذلك أن العنف ، يمكن ان يكون ، من حيث هو وسيلة ، ستاراً لحزب سياسي ، وفي وسع قيادات حزبية أن تدعو الشعب الى كفاح مسلّح . ولا بد من التفكير في هذا العنف الذي تُضمن نتائجه . لئن تقرر العسكرية الألمانية حل مشاكل الحدود بالقوة ، فذلك أمر لا يدعو الى الدهشة ، أما أن يقرر الشعب الأنجولي مثلاً ان يحمل السلاح ، أو أن ينبذ الشعب الجزائري كل وسيلة أخرى غير العنف ، فذلك يدل على أن شيئاً ما قد حدث أو هو بسبيل الحدوث . إن هؤلاء الناس المستعمَرين ، إن هؤلاء العبيد ، عبيد العصور الحديثة ، قد نفذ صبرهم . إنهم يعلمون ان هذا الجنون وحده يستطيع أن يخلصهم من براثن الاضطهاد الاستعماري . إن نوعاً جديداً من العلاقات قد قام في العالم . ان الشعوب المتخلفة تحطم أصفادها ، والأمر الخارق أنها تنتصر . من الممكن أن يقال ان من السخف ان يموت الإنسان جوعاً في عصر الأقمار الصناعية ، ولكن الجماهير المستعمَرة لا تفسّر الأمور تفسيرات قمرية من هذا النوع . والحقيقة هي أنه ما من بلد استعماري يستطيع اليوم أن يتبنى ذلك الشكل الواحد من الصراع الذي قد ينجح ، أعني الاستمرار في إرسال قوات احتلال كبيرة الى غير نهاية .

والبلاد الاستعمارية تعاني في داخلها تناقضات ، وتجابه مطامع عمالية تقتضيها استعمال قواتها البوليسية . ثم ان هذه البلاد الاستعمارية هي على الصعيد الدولي محتاجة الى جيوشها لحماية نظامها السياسي . وهناك أخيراً تلك الخرافة

المعروفة القائلة بأن حركات التحرير تقودها موسكو ، وهـذه الخرافة تعني في التعليلات المذعورة التي يعمد إليها النظام الاستعماري ما يـلي : « إذا استمر الأمر ، فالشيوعيون يمكن ان ينتهزوا فرصة هذه الاضطرابات ليتغلغلوا في هذه المناطق » .

إن نفاد صبر المستعمَر وتلويحه الصريح باستعمال العنف يدلان على أنه يدرك أن الظرف الحالي ظرف استثنائي ، ويـدلان على أنه ينوي الاستفادة من هذا الظرف . ولكن المستعمر الذي يُتاح له اليوم ان يرى العالم الحديث ينفذ حتى الى أقصى أركان البوادي ، يشعر شعوراً حاداً ، على مستوى التجربة المباشرة أيضاً ، بحرمان ، فتقتنع الجماهير ، بواسطة نوع من الاستدلال . . . الصبياني ، أن هذه الأشياء كلها قد سرقت منهـا ، لذلك نراها في بعض البـلاد المتخلفة ، تسير بسرعة وتفهم بعد سنتين أو ثلاث سنين من الاستقلال، أنها كانت مغبونة، وان « الأمر لم يكن ليستحق ذلك العناء كله » إذا لم تتبدل الحال تبدلاً حقيقياً. في عام ١٧٨٩ ، بعد الثورة البورجوازية ، استفـاد الفلاحون الصغار من تلك الثورة فوائد أساسية . ولكن من نافل القول ان نذكر ان أكثرية سكان البلاد المتخلفة ، ان ٩٥٪ من سكان البلاد المتخلفة ، لا يحمل إليهم الاستقلال في معظم الحالات تغييراً مباشراً. لذلك يلاحظ المراقب الخبير أن هناك نوعاً من الاستياء الكامن يشبه تلك الجمرات التي تبقى بعد انطفاء الحريق ، وتهـدد باندلاع النيران من جديد .

ويقولون عندئذ إن المستعمَرين يريدون أن يغالوا في السرعة . بينما كانوا يؤكدون قبل ذلك بقليل أن المستعمَرين أناس بطيئون كسالى إتكاليون . إننا نلاحظ منذ الآن ان العنف الذي سار في طرق محـددة واضحة إبان كفاح التحرير لا ينطفىء انطفاءً سحرياً بعد احتفالات رفع الرايات الوطنية ، بـل يظل متقداً ، خاصة وأن عهد البناء الوطني يظل يتم في إطـار التنافس النهائي بين الرأسمالية والاشتراكية .

إن هذا التنافس يجعل حتى للمطالب المحلية بعداً عاماً يكاد يشمل الأرض

بأسرها ، فكل اجتماع ، وكل عمل من أعمال القمع ، تترجع أصداؤه في العالم كله . إن حوادث القتل التي وقعت في شاريفيل قد هزّت الرأي العام العالمي أشهراً طويلة . وأصبحت شاريفيل ، في الصحف وفي محطات الإذاعة وفي الأحاديث الخاصة ، رمزاً ، فمن خلال حوادث شاريفيل عالج الرجال والنساء مشكلة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا . ولا نستطيع ان نزعم أن الديماغوجية وحدها هي السبب في هذا الاهتمام المفاجىء الذي يبديه « الكبار » بالشؤون الصغيرة المتصلة بالمناطق المتخلفة . إن كل ثورة وكل تمرد يقعان في العالم الثالث يدخلان الآن في إطار الحرب الباردة . يكفي أن يُضرب رجلان في سالزبوري ، حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين ، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين ، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا ، رابطة هذه المشكلة بمشكلة افريقيا كلها ، وبمشكلة البشر المستعمَرين جميعاً . ولكن الكتلة الثانية ، تقيس أيضاً بمقياس سعة الحملة التي شُنّت عليها ما في نظامها من نقاط الضعف. وتدرك الشعوب المستعمَرة انه ما من فئة من الفئتين إلا وتهتم بالحوادث المحلية . فتكف هذه الشعوب المستعمَرة عن الاقتصار على آفاقها المحلية ، إذ يدركها هذا الجو العام المشحون بالاهتزاز .

حين يُعلن ، كل ثلاثة أشهر ، ان الأسطول السادس أو الأسطول السابع تحرك نحو هذا الشاطىء أو ذاك ، وحين يهدد خروتشوف بانقاذ كاسترو بالصواريخ ، وحين يقرر كندي ، بمناسبة لاوس، أن يعمد الى الحلول القصوى، فان المستعمَر الذي ما يزال مستعمراً ، والمستعمَر الذي نال الاستقلال يشعران، شاءا أم أبيا ، أن نوعاً من السير المسعور يجرفهما جرفاً . والواقع أنهما يسيران من قبل أن يجرفا . أنظروا مثلاً إلى حكومات البلاد التي تحررت منذ عهد قريب . ان رجال الحكم في هذه البلاد ينفقون ثلثي وقتهم في مراقبة الأحداث التي تدور حولهم ، وفي اتقاء الخطر الذي يهددهم ، وينفقون الثلث الأخير من وقتهم في العمل لبلادهم . وهم في الوقت نفسه يبحثون لأنفسهم عن دعائم . وتخضع المعارضة الوطنية لهذا المنطق نفسه ، فتدير ظهر للطرق البرلمانية في

كثير من الاحتقار ، وتمضي تبحث عن حلفاء يقبلون ان يدعموا رغبتها في القيام بثورة عنيفة . ان جو العنف الذي كان يسود المرحلة الاستعمارية ، يظل يسيطر على الحياة الوطنية . ذلك ان العالم الثالث ، كما سبق ان قلنا ذلك ، ليس مستبعداً من هذا الإعصار ، بل إنه هو في مركز الإعصار . لذلك نرى رجال الدولة في البلدان المتخلفة يظلون يستعملون في خطبهم لهجة الهجوم والغضب التي كان ينبغي في الأحوال العادية ان تزول . وما أكثر ما يكون هؤلاء القادة الجدد شرسين في أقوالهم ! ذلك أمر ُيفهم أيضاً . غير أن الشيء الذي ُيفهم أقل من ذلك أن هؤلاء القادة أنفسهم يظهرون كثيراً من الكياسة واللباقة في معاملة الإخوة أو الرفاق . إن الشراسة هي أولاً سلوك مع « الآخرين » ، مع الذين كانوا مستعمرين ثم جاءوا اليوم ينظرون ويتقصون . ان الشخص الذي كان مستعمراً يشعر في كثير من الأحيان بأن النتيجة التي يريد أن ينتهي اليها هؤلاء الناس في تحقيقاتهم الصحفية عن هذه البلاد قد كتبوها قبل أن يجيئوا. وليس مجيء الصحفي الى البلاد إلا ستاراً وتبريراً . ان الصور الفوتوغرافية التي ينشرها مع المقال تبرهن على الغرض الذي جاء من أجله . ان هدفه من كتابة التحقيق هو ان يتحقق من صدق قناعته السابقة ، وهي أن كل شيء أصبح سيئاً هنالك منذ خروجنا . إن الصحفيين يشكون دائماً من انهم يستقبلون استقبالاً سيئاً ، وأنهم يعملون في ظروف صعبة ، وانهم يصطدمون بجدار من عدم الاكتراث أو من العداوة . هذا كله طبيعي . ان القادة الوطنيين يعرفون ان الرأي العام العالمي تصنعه الصحافة الغربية وحدها . وحين يجيئنا صحفي غربي ويطرح علينا أسئلة ، فقلما يكون هدفه من ذلك ان يخدعنا . انظروا الى حرب الجزائر مثلاً . إن اكثر الصحفيين الفرنسيين تحرراً لم يكفوا لحظة عن استعمال نعوت ملتبسة المعاني حين يريدون ان يصفوا ثورتنا . فاذا عوتبوا في ذلك قالوا إنهم أناس موضوعيون . والمستعمَر يرى ان الموضوعية موجّهة دائماً ضده . وطبيعية أيضاً تلك اللهجة الجديدة التي أغرقت الدبلوماسية الدولية في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٠ . لقد

كان ممثلو البلاد المستعمَرة يتحدثون بلغة هجوية عنيفة مهينة ، ولكن الشعوب المستعمَرة لم تجد أنهم كانوا مبالغين أو مغالين . إن راديكاليـــة هؤلاء الممثلين الإفريقيين الذين كانوا ينطقون بلسان الشعوب الإفريقيـة قد أنضجت الدمّل ، وجعلت الناس يدركون ان اعتراضات الفيتو هـذه أمر غير مقبول ، وكذلك هذا الحوار بين « الكبار » ، وخاصة هذا الاستخفـاف بالعالم الثالث ، وجعل دوره محدوداً تافهاً .

إن هذه الدبلوماسية التي دشنتها الشعوب المستقلة حديثـــاً لا تعرف اللف والدوران حول الفروق الطفيفة ، ولا تعرف المكر الذي يعلن غير مـا يبطن . ذلك أن هؤلاء الناطقين باسم شعوبهم قد كلفتهم شعوبهم ان يدافعوا في آن واحد عن وحدة الأمة ، وعن تقدم الجماهير نحو الرخاء ، وعن حق الشعوب في الحرية وفي الخبز .

فهي إذن دبلوماسية متحركة ، دبلوماسية حانقة ، تتعارض تعارضاً قوياً مع ذلك العالم الساكن ، الجامد ، عـــالم الاستعمار . حين يُلوّح السيد خروشوف بحذائه في هيئة الأمم المتحدة ، ويضرب به المنضدة فما من ممثل من ممثلي البلاد المتخلفة يضحك . ذلك أن ما يبينه السيد خروشوف للبـلاد المستعمَرة ، هو انه ، وهو فلاح يملك من جهة أخرى صواريخ ، يعامل هؤلاء الرأسماليـــين الأشقياء المعاملة التي يستحقونها . وكذلك فإن كاسترو الذي يتحدث في منظمة الأمم المتحدة وهو بلباسه العسكري ، لا يثير استغراب البلاد المتخلفة . ذلك ان ما يبينه كاسترو هو أنه يدرك أن عهد العنف ما يزال قائماً . وإنما المستغرب انه لا يدخل هيئة الأمم المتحدة وفي يده رشاشه . ولكن ربما كانوا يعارضون في ذلك . أن الثورات ، والأفعال اليائسة ، والجمـــوع المسلحة بالخناجر أو الفئوس ، تجد وطنيتهـا في هـذا الصراع الفـائر الذي يقـوم بين الرأسماليـة والاشتراكية .

لقد أمكن ، في عام ١٩٤٥ ، أن لا يلاحظ الناس مقتل ٤٥٠٠٠ جزائري في صطيف ، وفي عام ١٩٤٧ أمكن أن يقتل ٩٠٠٠٠ شخص في مدغشقر دون

ان يكون هذا الحادث إلا خبراً صغيراً في زوايا مهملة من زوايا الصحف ؛ وفي عام ١٩٥٢ أمكن أن يموت ٢٠٠٠٠٠ شخص في كينيا دون أن يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث . ذلك ان التناقضات الدولية لم تكن في تلك الأيام الحاسمة قاطعة إلى درجة كافية . صحيح ان حرب كوريا وحرب الهند الصينية كانتا قد دشنتا مرحلة جديدة . ولكن بودابست والسويس هما اللحظتان الحاسمتان في هذه المرحلة الجديدة .

ان المستعمَرين ، وقد قوّاهم الدعم غير المشروط الذي ينالونه من البلدان الاشتراكية ، يهجمون بالأسلحة التي معهم على هذه القلعة التي لا تقهر ، قلعة الاستعمار . ولئن كانت هذه القلعة لا تخدشها السكاكين والأيدي العارية ، فإنها لا تظل كذلك حين يحزم المقاتلون أمرهم على ان يحسبوا حساب حالة الحرب الباردة .

إن الأمريكيين ، في هذا الظرف الجديد،يعدون أنفسهم في كثير من الجد ، أوصياء على الرأسمالية الدولية ورعاة لها . لذلك نراهم في مرحلة أولى ينصحون البلاد الأوروبية بأن تحرر المستعمرات وديا ً ، ونراهم في مرحلة ثانية لايترددون في ان ينادوا باحترام مبدأ إفريقيا للافريقيين أولاً ، وفي ان يدعموا هذا المبدأ بعد ذلك . ان الولايات المتحدة لا تخشى اليوم ان تعلن رسمياً انها تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها . ان الرحلة الأخيرة التي قام بها السيد منين وليامز ليس مثالاً على شعور الأمريكيين بأن العالم الثالث يجب ان لا يضحى به . وهنا نفهم لماذا لا يعد عنف المستعمَر عنفاً لا أمل فيه إلا إذا قورن مقارنة مجردة بالآلة العسكرية التي يملكها المضطهدون . أما إذا وضعنا هذا العنف في موضعه من الحركية الدولية أدركنا أنه يهدد المضطهِد تهديداً رهيباً . ان استمرار الثورات والاضطرابات يحدث خللاً في الحياة الاقتصادية للمستعمَرة ولكنه لا يجعل البلاد المستعمِرة في خطر . والأمر الأهم في نظر الاستعمار هو ان تتسرب الدعاية الاشتراكية إلى صفوف الجماهير ، هي ان تسري هذه الدعاية الاشتراكية إلى الجماهير . وهذا أمر له خطورته في فترة الحرب الباردة من هذا

الصراع فما بالك حين تصبح الحرب حارة : ما عسى أن تصير إليه هذه المستعمَرة التي تعج بالمحاربين « السفاكين » حين تصبح الحرب حارة ؟

فالرأسمالية تدرك عندئذ أن استراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحروب الوطنية كل شيء . لذلك تضطر الرأسمالية ، في إطار التعايش السلمي ، إلى أن تسلم بتحرر جميع المستعمرات ، وبحياد جميع المستعمرات عند الاقتضاء. فإنما المهم عندها قبل كل شيء هو أن تتحاشى ما يهدد سلامه استراتيجيتها ، هو أن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوة ، هو أن تتحاشى أن يكرهها عشرات الملايين من الناس كرهاً جذرياً . والشعوب المستعمَرة تدرك إدراكاً كاملاً هذه الضرورات التي تسيطر على الحياة السياسية الدولية. فحتى الذين تلعلع أصواتهم في استنكار العنف يتخذون قراراتهم ويقومون بأعمالهم على أساس هذا العنف الذي يسود الكرة الأرضية كلها . إن التعايش السلمي بين الكتلتين يغذي العنف في المستعمرات ، ويحرض عليه في أيامنا هذه . ربما رأينا هذا العنف ينتقل غداً الى ميدان آخر بعد تحرر المستعمرات تحرراً كاملاً . لعله يطرح غداً مشكلة الأقليات . ألسنا نرى بعض الأقليات منذ الآن لا تتردد عن المناداة باستعمال أساليب العنف لحل مشكلاتها ؟ ليس من قبيل الصدفة أن نرى المتطرفين من الزنوج في الولايات المتحدة يشكلون فرق ميليشيا ويتسلحون . وليس من قبيل الصدفة أن نرى في العالم الذي يسمي نفسه حراً ، قيام لجان للدفاع عن الأقليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي ، وأن نرى الجنرال دي جول يذرف بعض الدموع في إحدى خطبه ، حزناً على المسلمين الذين تضهدهم الدكتاتوية الشيوعية . إن الرأسمالية والاستعمار مقتنعان بأن النضال ضد التفرقة العنصرية ، وحركات التحرر الوطني ليست إلا اضطرابات يوعز بها من بعيد ، ليست إلا اضطرابات يحرّض عليها « من الخارج » ؛ لذلك يقرران أن يستعملا هذا التكتيك المجدي : « راديو أوروبا الحرة » ، لجنة تأييد الأقليات المغلوبة ، فيقومان بمحاربة الاستعمار ، كما كان القادة الفرنسيون في الجزائر يقومون بتلك الحرب التخريبية مع الـ SAS والدوائر السيكولوجية . إنهم « يستخدمون الشعب ضد الشعب ».

ونحن نعلم ما الذي يؤدي إليه هذا .

إن هذا الجو من العنف والتهديد والتلويح بالصواريخ لا يخيف المستعمَرين ولا يحيّرهم . لقد رأينا أن تاريخهم الأخير كله يهيئهم « لفهم » هـذا الظرف . إن بين العنف الاستعماري والعنف السلمي الذي يعيش في جوه العـالم المعاصر نوعاً من التقابل والتجانس . وقد تلاءم المستعمرون مع هذا الجو . إنهم من هذه الناحية ، أبناء عصرهم . قد يستغرب الناس في بعض الأحيان أن المستعمَر بدلاً من أن يشتري فستاناً لزوجته ، يشتري جهاز راديو ترانزستور . ولكن يجب أن لا يُستغرب هذا . ان المستعمَرين مقتنعون بأن مصيرهم يتقـرر الآن . انهم يعيشون في جو نهاية العالم ، ويرون أنه ما ينبغي أن يفوتهم شيء . وهم لذلك يفهمون كل الفهم فوما وفومي ، ولومومبا وتشومبي ، وآهيجو وموميه ، وكيناتا ، وأولئك الذين يُقذفون من حين الى حين ليحلوا محلهم . انهم يفهمون هؤلاء الأشخاص كل الفهم ، لأنهم يعرّون القوى الكامنة وراءهم . إن المستعمَر ، ان الإنسان المتخلف ، هو اليوم إنسان يستحق أن يوصف بأنه حيوان سياسي بأكمل معاني هذه الكلمة .

صحيح أن الاستقلال قد ردّ الى المستعمَرين شعورهم بذاتهم وعز كرامتهم ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل إنشاء مجتمع ، ومن أجل بناء وتأكيد قيم ، إن البؤرة المشعة التي فيها ينمو المواطن والإنسان ويغتنيان في ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد . وإذ ان هؤلاء الناس يعيشون في نوع من عدم التحديد ، تراهم يقتنعون في سهولة بأن كل شيء سيتقرر في مكان آخر ، بالنسبة إليهم وبالنسبة الى سائر العالم في آن واحد . أما القادة فإنهم إزاء هذا الوضع يترددون وينتخبون الحياد .

هناك أمور كثيرة يجب أن نقولها عن الحياة . إن بعض الناس يشبهون هذا الحياد بنوع من النفعية الموبوءة التي تريد أن تأخذ من اليمين واليسار . ولكن الحقيقة هي ان هذا الحياد الذي هو من ثمرات الحرب الباردة ، إذا كان يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين ، فإنه لا يتيح لكل من

هذين الطرفين أن يساعد المناطق المتخلفة المساعدة التي ينبغي أن تقدّم لها . إن هذه المبالغ الطائلة (الفلكية) التي تخصص للبحوث الحربية ، مع هؤلاء المهندسين الذين يقلبون الى اختصاصيين في الحرب النووية ، وفي وسعها ، خلال خمسة عشر عاماً ، أن ترفع مستوى المعيشة في البلاد المتخلفة بنسبة ٦٠٪ . وواضح إذن أن مصلحة البلاد المتخلفة ليست لا في إطالة هذه الحرب الباردة ولا في تفاقم حدتها ، لذلك تتحلل من اتخاذ موقف إذا هي استطاعت الى ذلك سبيلاً. ولكن هل تستطيع حقاً ، لنتذكر مثلاً أن فرنسا تجرب قنابلها الذرية في أفريقيا . وباستثناء الاقتراحات والاجتماعات والقطيعات الدبلوماسية الصاخبة ، لا نستطيع أن نقول إن الشعوب الأفريقية كان لها ، في هذا القطاع الخاص ، تأثير كبير على موقف فرنسا .

إن الحياد يولّد لدى المواطن في العالم الثالث اتجاهاً نفسياً يعبر عن نفسه في الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدي شبهاً كبيراً . إن هذا الرفض القوي للتسوية ، وهذا الإصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزهوين المحرومين، المستعدين دائماً لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل كلمة. وهذا كله يحير المراقبين الغربيين ويرتج عليهم . ذلك أن هناك تناقضاً فاضحاً بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم. ان هذا البلد الذي يعيش بلا ترامواي، ولا جيوش ، ولا مال ، لا يملك ما يبرر هذه الفخفخة التي يظهر بها ، فليس سلوكه هذا إلا ادعاءً فارغاً وتظاهراً كاذباً . إن هذا العالم الثالث يُشعر المرء بأنه يبتهج في المأساة ، وأنه في حاجة الى نصيبه الأسبوعي من النوبات . إن زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثيرون الحنق في النفس . ان المرء ليود أن يسكتهم .ولكنهم يُغازَلون ، وتُقدم لهم الأزهار، ويُدعون، بل قل بصراحة انهم يُتنازع عليهم . إن هذا كله لهو من الحياد . انهم ، وهم أميون في أكثريتهم الساحقة ، (٩٨ ٪) ، قد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة. وهم يسافرون كثيراً ، إن قادة البلاد المتخلفة ، وطلاب البلاد المتخلفة ،هم من أحسن زبائن شركات الطيران . ان المسئولين الإفريقيين والآسيويين يستطيعون

في شهر واحد أن يحضروا مؤتمراً عن التخطيط الاشتراكي في موسكو ، وعن محاسن الاقتصاد الحر في لندن أو في جامعة كولومبيا . والنقابيون الافريقيون ، من جهتهم ، يتقدمون بسرعة متزايدة . وما أن يُعهد اليهم بوظائف في أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة . إنهم لا يملكون خمسين عاماً من العمل النقابي في إطار بلد مصنّع ، ولكنهم يعرفون منذ الآن أن العمل النقابي الذي لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له . انهم لم يجابهوا الآلة البورجوازية ، ولا نمّوا وعيهم في صراع الطبقات ، ولكن ربما كان هذا غير ضروري . ربما .

ولكن فلنعد الى المعركة الخاصة القائمة بين المستعمر والمعمر . ها هنا كفاح مسلح صريح كما ترون . وأمثلته التاريخية : الهند الصينية ، أندونيسيا ، وافريقيا الشمالية طبعاً . ولكن الشيء الذي يجب أن لا يغيب عن البال ، هو ان هذا الكفاح المسلح كان يمكن ان ينطلق في أي مكان ، كان يمكن أن ينطلق في غينيا ، كما كان يمكن ان ينطلق في الصومال ، وما يزال من الممكن انينطلق في كل مكان ، في أنجولا مثلاً . ووجود الكفاح المسلح يشير الى أن الشعب قد قرر أن لا يثق إلا بالوسائل العنيفة . ان الشعب الذي ظلوا يقولون له أنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة ، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة . والحق أن المعمِّر قد دلّه منذ زمان طويل على الطريق التي يجب أن تكون طريقه إذا هو أراد أن يتحرر . والحجة التي يختارها المستعمَر إنما دلّه عليها المعمِّر ، فاذا بالمستعمَر هو الذي يؤكد اليوم أن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة . ان النظام الاستعماري يستمد مشروعيته من القوة ، وهو لم يحاول في أية لحظة من اللحظات ان يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء . ان كل تمثال من التماثيل ، كتمثال فيدرب أو ليوتي أو بوجو أو بلاندان ، ان كل تمثال من هذه التماثيل المغروسة فيالأرض المستعمَرة لا يفتأ يعبّر عن شيء واحد بعينه : « نحن هنا بقوة الحراب ... » واتمام هذه العبارة أمر سهل . إن كل معمِّر يفكر ، أثناء فترة التمرد والعصيان ،على أساس حساب واضح دقيق . ومنطقه

هذا لا يستغربه المعمّرون الآخرون ، ولكن يجب أن نـــذكر أيضاً ان هذا المنطق لا يستغربه المستعمرون ايضاً . ونلاحظ أولاً أن المبدأ القائل : « إما هم وإما نحن » ليس في نظر المستعمَرين أمراً مفارقاً مستغرباً ، لأن الاستعمار ، كما رأينا ، إنما هو تنظيم عالم ينقسم انقساماً ثنائياً . وحين يشرع المعمّر في استعمال أساليب معفنة ، فيطلب الى كل ممثل من ممثلي الأقلية المضطهدة أن يهلك ثلاثين واحداً من السكان الأصليين أو مائة أو مائتين ، فإنه يلاحظ أنه ما من أحد يستنكر ذلك ، حتى أن المشكلة كلها يلخصها عندئذ هذا السؤال : هل يمكن إتمام ذلك دفعة واحدة ، أم يجب إتمامه على مراحل [1] ؟

فهذا التفكير الذي يتصور ، على أساس حســـابي جداً ، زوالَ الشعب المستعمَر لا يجعل المستعمَر يستاء استياءً أخلاقياً . فلقد عرف دائماً أن منازلاته مع المعمّر ستدور في ساحة مغلقة ، وهو لذلك لا يضيّع وقتـــه في الشكوى والانتحاب ، ولا يكاد يحاول أبداً أن يُنصف في الإطار الاستعماري . والحق أنه اذا كانت حجج المعمّر لا تهز المستعمَر ، فلأن هذا المستعمَر قد طرح مشكلة تحرره طرحاً مماثلاً : « لننظم أنفسنا في فئات تتألف كل منها من مائتي شخص أو من خمسمائة ، ولتتولَّ كل فئة من هذه الفئات أمر معمّر واحد » . إن كلاً من الخصمين المتصارعين انما يبدأ القتال وهو على تلك الحـــالة النفسية المشتركة بينهما .

وهذا العنف يمثل ، في نظر المستعمَر ، العمل المطلق . ولذلك فالمناضل هو الذي يعمل . ان الأسئلة التي تطرحها المنظمة على المناضل تحمـــل طابع هذه

---

١ – واضح أن هذا التنظيف يهدم الشيء الذي ارادوا إنقاذه. وذلك بعينه هو ما يشيرإليه جان بول سارتر حين يقول: « من مجرد ترديد الافكار العرقية نكتشف ان اتحاد الجميع في آن واحد ضد السكان الاصليين أمر لا يمكن تحقيقه ، وأنه ليس إلا تراجعاً دائراً، وان هذا الاتحاد من جهة أخرى ، لا يمكن ان يتم كتجمع فعال إلا من أجـل إبادة المستعمرين ، وهي محاولة مستحيلة ما يفتأ المعمر يحاولها، وليست ، اذا أمكن تحقيقها،الا ازالة للاستعمار دفعة واحدة». راجع كتاب سارتر « نقد العقل الديالكتيكي » ، ص ٣٤٦ .

النظرة الى الأمـور : « أين عملت ؟ مع من عملت ؟ ماذا عملت ؟ » . ان الجماعة تطلب من كل فرد أن يحقق عملاً لا يتراجع الى وراء . ففي الجزائر مثلاً ، حيث نرى أن الرجال الذين دعوا الشعب الى الكفاح الوطني كانوا جميعـــاً على وجه التقريب محكومين بالإعـدام أو ملاحقين من قبل الشرطة ، نلاحـظ أن الثقة تتناسب مع مقدار ما في كل حالة من يأس . ان المناضل الجديد يكون مضموناً إذا كان لا يستطيع أن يرتد الى النظام الاستعماري . ويظهر أن هذه الطريقة قد وجدت في كينيا لدى الماو ماو الذين كانوا يطلبون من كل عضو من أعضاء الجماعة أن يضرب الضحية ، فكان كل عضو من هؤلاء الأعضاء مسئولاً مسئولية شخصية عن موت الضحية . ان العمل يعني العمل على إماتة المعمّـر . وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا الى أمكنتهم وأن يرتدوا الى الجماعة . ان العنف هو الطريقة المثلى . ان الإنسان المستعمَر يتحرر في العنف وبالعنف . ان هذا العمل يضيء طريق العامل ، لأنه يدله على الوسائل ويدله على الهدف . ان شعر سيزار ليكتسب من هذه الطريقة في فهم العنف ، دلالة تجعله كالنبوءة . ويحسن هنا أن ننقل صفحة حاسمة من صفحات مأساته ، صفحة يتحدث فيها « الثائر » عن نفسه :

الثائر

اسمي : مُذَل ، اسم عائلتي : مهان ، حالتي : ثائر والسن : عصر الحجر .

الأم

جنسي : الجنس الإنساني ، ديانتي : الأخوة .

الثائر

جنسي الجنس المعذب . وديانتي ... ولكن ما أنت من يهيئها بخلو يده من السلاح ... وإنما أهيئها أنا ، بثورتي بقبضتي المشدودتين ورأسي الأشعث .

(بهدوء كبير) .

ما زلت أذكر يوماً من أيام تشرين الثـاني . كان عمره أقل من ستة أشهر ، ودخل المولى الغرفة المسودّة بالشحار دخول قمر أحمر وجسّ أعضـاءه المعروقة الصغيرة ، إنه مولى طيّب جـــداً . وطاف بيديه الضخمتين على وجه المحفـر يداعبه . كانت عيناه الزرقاوان تضحكان ، وكان فمه يتحداه بأشياء مسكرة. قال وهو ينظر إليّ : ستكون حجرة جيدة ، وقال أيضاً أشياء أخرى لطيفة ، هذا السيد ، قال إن عليه ان يتدبر الأمر ، وان عشرين عامـــاً ليست كثيرة من أجل خلق مسيحي طيب ، عبد طيب ، تابع مخلص ، خادم طيّع ، حـاد النظرة ، قوي الذراع . وتصور هذا الرجل مهدَ ابني مهدَ خادم .

وزحفنا والخناجر في قبضة اليد .

الأم

ستموت ، واحسرتاه !

الثائر

قتلته .. قتلته بيديّ .

نعم : قتلاً خصباً متدفق الخيرات .

كان الوقت ليلاً . زحفنا بين شجرات قصب السكر .

وكانت الخناجر تضحك للنجوم ، ولكننا كنـا لا نبالي بالنجوم .

وكانت شجرات قصب السكر تخدّد وجوهنا بجداول من دموع خضر.

الأم

لقد حلمت بابن يغمض عيني أمه .

الثائر

آثرت أن أفتح عيني على شمس أخرى .

الأم

واحسرتا عليك يا بني ، ستموت شر ميتة .

الثائر

أماه ، بل خيرَ ميتة .

الأم

لأنك كرهت فأسرفت .

الثائر

بل لأنني أحببت فأسرفت .

الأم

ارحمني ، أغلالك تخنقني ، جروحك تدميني .

الثائر

العالم لا يرحمني ... ليس في العالم إنسان بائس يُعدم، ولا إنسان شقي يُعذّب ، إلا وأقتل فيه وأذل .

الأم

خلصه يا رب .

الثائر

لن تخلصني يا قلب من ذكرياتي .

كان ذلك في ذات مساء من شهر تشرين الثاني .

وفجأت ومضت في الصمت صيحات .

كنا قد وثبنا ، نحن العبد ، نحن الأوغاد، نحن البهائم الصابرة.

وأخذنا نركض كالمجانين ... ودوّت طلقات الرصاص ... وأخذنا نضرب . العرق والدم يرطبانا . ضربنا بين الصرخات ، وازدادت أصوات الصرخات ، وعلت صيحة في جهة الشرق ، إنها المنازل الفخمة تحترق ، وتدفق اللهب هنياً عذباً على خدودنا .

وجاء دور الهجوم على منزل المولى .

شددنا النوافذ .

حطمنا الأبواب .

انفتحت غرفة المولى كبيرة واسعة . الضوء في غرفة المولى يسطع متلألئاً .. والمولى في الغرفة ... إنه هادىء جداً . وتوقف رجالنا ... إنه المـــولى ..

ودخلت أنا قال لي بهدوء كبير : أهذا أنت ؟ فأجبته : نعم أنـا ، أنا نفسي ، العبد الطيّـع ، العبد الأمين ، العبد العبد ، وفجأة أصبحت عينـــاه خنفسيتين مروّعتـين في أيام المطر .. وضربت ، فانبجس الدم : هذا هو التعميد الوحيد الذي أتذكره اليوم [1] » .

إن عنف النظام الاستعماري ، وعنف المستعمَر ، يتوازنان ويتجـاوبان في تجانس مشترك ، وسيطرة العنف هذه لا بد أن تصبح أشد هولاً كلما زاد عدد المستوطنين . إن اشتداد العنف لدى الشعب المستعمَر سيكون متناسباً مع العنف الذي يمارسه النظام الاستعماري المرفوض. إن حكومات البلاد المستعمِرة هي في المرحلة الأولى من فترة الثورة ، مستعبـدة للمعمّـرين . فهؤلاء المعمّرون يهـددون المستعمَرين ويهددون في الوقت نفسه حكوماتهم . وسوف يستعملون في محاربة هذه وأولئك طرائق واحدة بعينها . إن اغتيال عمدة إيفيان لايختلف في دوافعه عن اغتيال علي بومنجل. إن المشكلة في نظر المعمّرين ليست الاختيار بين جزائر جزائرية وجزائر فرنسية ، بل بين جزائر مستقلة وجزائر مستعمرة. وكل ما عدا ذلك كلام أو خيـــانة . ان منطق المعمّر منطق حانق ، ولست تستغرب المنطق المعاكس الذي يعبر عنه سـلوك المستعمَـر إلا إذا كنت تدرك بوضوح آليات التفكير لدى المعمّـر . متى اختار المستعمَر ان يواجـــه العنف بالعنف ، رأيت أعمال الانتقام البوليسية تستدعي على نحو آلي أعمال انتقام تقوم بها القوى الوطنية . ومع ذلك ليس هنالك تعادل في النتائج . ذلك ان القصف بالرشاشات من الطائرات أو القصف بالمدافع من الأسطول، يفوقان ردود المستعمَر هولاً ورهبة . ومن شأن تكرر الإرهاب هذا أن يبدد الأوهام من رؤوس أكثر المستعمَرين ضلالاً وضياعاً . فإنهم يلاحظون ملاحظة مباشرة أن جميع الخطب التي تلقى عن المساواة بين أفراد البشر ، ويتكدس بعضهـــا فوق بعض ، لا تخفي هذه الحقيقة المبـذولة وهي أن الرجال السبعة الذين قتلوا أو جُرحوا في

---

١ - إيميه سيزار «الأسلحة المعجزة» و «سكت الطلاب» ، ص١٣٣ - ١٣٧ ، جاليمار.

مضيق ساكامودي قد أثاروا استيـاء الضمائر المتحضرة، على حين ان أحداً لم يعبأ بتدمير قرى جرجور وجرة ، ولا بذبح السكان الذين كانوا سبب الكمـين . إرهاب ، وإرهاب مقابل ، عنف وعنف مقابل .. ذلك ما يسجله المراقبون في مرارة ، حين يصفون دائرة الحقد ، الواضحة العنيدة في الجزائر .

إن في الكفاح المسلح شيئاً يصح أن نسميـه « النقطة التي لا عودة بعدها » . ونستطيع ان نقول أن الأمر الذي يحقق الوصول الى هذه النقطة إنما هو أعمـال القمع الضخمة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستعمَر . وهذه النقطة قد تم الوصول اليها في الجزائرعام ١٩٥٥حين وقعت الأحداث التي أودت باثني عشر الف ضحية في فيليبفيل ، وكذلك عام ١٩٥٦ حين أنشأ لاكوست ميليشا المدن والأرياف . فعندئذ أدرك جميع الناس ، وأدرك المعمِّرون أنفسهم « أن الأمر لن يرجـع بعد الآن الى ما كان عليه » . على أن الشعب المستعمَر لا « يفتح » حساباً بضحاياه . إنه يسجل الفراغ الضخم الذي حدث في صفوفه من حيث أنه شر لا بد منه ، لكنه ، وقد قرر أن يرد على العنف بالعنف ، يقبل جميع النتائج التي تترتب على ذلك . وكل ما يطلبه عندئذ هو أن لا يطالب « بفتح حساب » بضحايا الآخرين . إن المستعمَر يردّ على العبارة القائلة بأن « جميع السكان الأصليين سواء » بعبارة تقول : « إن جميع المعمِّرين سـواء » . إن المستعمَر لا يشكو أمره الى أحد حين ُيعذِّبونه ، أو حين يقتلون امرأته أو يغتصبونها . إن للحكومة التي تمـارس الاضطهاد أن تعيِّـن في كل يوم لجـان تحقيق . ولكن لجان التحقيق هذه لا وجود لها في نظر المستعمَر . وهذه سبع سنين تقريبـاً تنقضي في جرائم ترتكب بالجزائر ، دون أن يمثل فرنسي واحد أمـام القضاء لأنه قتل جزائرياً ، إن المستعمَر ، سواء في الهند الصينية أو في مدغشقر ، أو سائر المستعمرات، قد أدرك دائماً ان عليه ان لا ينتظر شيئاً من الضفة الأخرى، إن العمل الذي يقوم به المعمِّر هو ان يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحـرية مستحيلة . والعمل الذي يقوم به المستعمَر هو ان يتصور جميع الوسائل الممكنة لإبادة المعمّر . إن الانقسـام الثنائي الذي أوجده المعمّر قد ولـّد على مستوى

التفكير انقساماً ثنائياً في ذهن المستعمَر .

إن ظهور المعمّر كان معناه لدى المستعمَر موت المجتمع الأصلي ، وفناء الثقافة القديمة ، وتجمد الحياة في الأفراد ، في آن معاً . فالمستعمَر يرى الآن ان الحياة لا يمكن أن تعود الى الانبثاق إلا من جثة المعمّر حين يصبح المعمّر جثة متفسخة . ذلكم هو التقابل الكامل بين تفكير المعمّر وتفكير المستعمَر .

غير أن هذا العنف ، لأنه العمل الوحيد الذي يقوم به الشعب المستعمَر ، يكتسي طابعاً إيجابياً إنشائياً . فإن هذا الكفاح العنيف يجمّع الأفراد ، إذ ان كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة في السلسلة الكبرى ، في الجسم الكبير العنيف الذي انبجس رداً على عنف الاستعمار ، فإذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضاً ، ويلتقي بعضها ببعض ، وإذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة . إن الكفاح المسلح يعبىء الشعب ، أي يقذفه في اتجاه وحيد ليس له ثان .

إن تعبئة الجماهير ، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير ، تبث في ضمير كل فرد فكرة القضية المشتركة ، والمصير الوطني والتاريخ القومي . لذلك نرى المرحلة الثانية ، أي مرحلة بناء الأمة ، يسهّلها وجود هذا الاندماج الذي عُجن بالدم والحقد . وهنا نفهم أصالة الألفاظ المستعملة في البلاد المتخلفة . لقد كان الشعب يُدعى في عهد الاستعمار الى الكفاح ضد المستعمر الغاشم . حتى إذا تحقق التحرر الوطني ، أصبح يُدعى الى الكفاح ضد الفقر ، ضد الأمية ، ضد التخلف الاقتصادي . فالكفاح يظل مستمراً ، ويتحقق الشعب من أن الحياة معركة دائمة لا تنتهي .

قلنا إن العنف الذي تعمد إليه المستعمر يوحّد الشعب . والواقع ان الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذي النزعة الإقليمية . إن الاستعمار لا يكتفي بأن يعلم أن هناك قبائل ، وإنما هو يعزز وجود هذه القبائل ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويميز بعضها عن بعض . إن النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية . ولكن العنف يوحد بين الأفراد

على الصعيد القومي . وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الاقليمية والقبلية . ومن أجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليديين ، إن تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لتوحيد الشعب .

والعنف يطهر الأفراد من السموم . إنه يخلص المستعمَر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فساداً ، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس . انه يرد اليه شجاعته، ويرد اليه اعتباره في نظر نفسه . وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزياً، وحتى حين ينتهي بتصفية الاستعمار تصفية سريعة ، فإن الشعب يتسع وقته لأن يدرك أن هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد، وأن القائد لا يمتاز بفضل خاص . إن العنف يرفع الشعب الى مستوى القائد . ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة البروتوكولية التي تبادر بعض الحكومات الفتية الى استعمالها . ان الجماهير التي شاركت بالعنف في التحرير الوطني لا تسمح لأحد أن يعد نفسه « محرراً » . انها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها ، وهي تحاذر أن تعهد بمستقبلها وقدرها ومصير شعبها الى إله معبود . لقد كانت بالأمس غير مسؤولة ، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شيء وأن تقرر كل شيء . ان الضمير الذي أضاءه العنف بنوره ، يستعصي على كل محاولة لتهدئة الخواطر . ولذلك فإن مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة . ان النضال الذي قذف بالجماهير الى معركة حامية يكسبها ميلاً قوياً الى الأمور المحسوسة الملموسة . ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها .

في العنف

أشرنا مراراً في الصفحات السابقة الى أن المسؤول السياسي في المنـاطق المتخلفة لا يفتأ يدعو شعبه الى القتال ، قتال ضد الاستعمار ، قتال ضد الفقر والتخلف الاقتصادي ، قتال ضد التقاليد التي تفرض العقم والشلل . إن الألفاظ التي يستعملها في نداءاته إنما هي ألفاظ قائد حربي : « تعبئة الجماهير » ، « جبهة الزراعة » ، « جبهة الانتصار على الأمية » ، « الانكسارات التي منينا بها » ، « الانتصارات التي حققناها » إن الأمية الفتية المستقلة تعيش وتتطور أثنـــاء السنوات الأولى في جو من المعارك . ذلك ان القائد السياسي في البلد المتخلف يروّعه طول الطريق التي يجب ان تقطعها بلاده ، فإذا هو ينادي شعبه قائلا : « لنشدّ على بطوننا ولنعمل » . ويستبد بالبلاد نوع من الحمى الخلاقة ، فإذا هي تندفع في جهد جبار غير مألوف . ولا يكون هدف البرنامج الخروج من المأزق فحسب بل اللحاق بركب الأمم الأخرى بالوسائل المحدودة المتوافرة . فالناس يقولون : لئن وصلت الشعوب الأوروبية الى هذه المرحلة من النمو والتطور ، فإنها قد حققت ذلك بجهودها ، فلنبرهن إذن للعالم ولأنفسنا على أننا نستطيع ان نحقق ما حققت تلك الشعوب . وعندي ان هذه الطريقة في طرح مشكلة تطور البلاد المتخلفة ليست منصفة ولا معقولة .

لقد حققت البلاد الأوربية وحدتها القوية في لحظة كانت فيها بورجوازياتها

الوطنية قد ركزت في أيديها أكثر الثروات . كان التجـار وأصحاب الحرف ، والكهنوت ورجال المصارف ، يحتكرون في النطاق الوطني الأموال والتجارة والعلوم . كانت البورجوازية تمثل الطبقة التي تمتاز بأكبر تشاط وتنعـم بأكبر رخاء . وكان صعودها الى السلطة يتيح لها أن تندفع في عمليات حاسمة : كالتصنيع وتطوير وسائل المواصلات ، ثم ما لبثت أن أخـذت تبحث عن أسواق « فيما وراء البحار » .

وكانت شتى الدول تعيش وضعاً اقتصادياً واحداً إبان تحقيق وحدتهـا الوطنية ، باستثناء بعض الحالات التي تختلف اختلافاً طفيفاً (فبريطانيا كانت متفوقة بعض التفوق) فلم تكن أية أمة من الأمم تهـين الأمم الأخرى بصفات نموها ومزايا تطورها .

أما الآن ، فإن الاستقلال الوطني والنشوء القومي في المنـاطق المتخلفة يكتسبان وجوهاً جديدة كل الجدة . فهذه البلاد المتخلفة لا تتمتع بتطـور اقتصادي كبير ، باستثنـاء بعض المشاريع الباهرة . والجماهير في هذه البلاد تكافح فقراً واحداً ، وتناضل بحركات واحدة ، وترسم ببطونهـا الضامرة ما أسماه بعضهم جغرافية الجوع . هو عالم متخلف ، عالم بائس ، عالم ظالم للانسان. ولكنه ايضاً عالم لا أطباء فيه ولا مهندسين ولا إداريين . وإزاء هذا العالم ترتع الأمم الأوروبية في النعيم والرخاء والترف . والحق أن هذه البحبوحة التي تتمتع بها أوروبا فضيحة ، لأنها إنما قامت على أكتاف العبيد « واغتذت من دمـاء العبيد » وجاءت رأساً من أرض هذا العالم المتخلف، سطحها وجوفها . ان رخاء أوروبا وتقدمهـا قد جبلا من عرق وجثث الزنوج والعرب والهنود الصفر . هذا أمر قررنا ألا ننساه . حين يزعج بـلداً استعمارياً طموح مستعمرة من المستعمرات الى الاستقلال ، يقول للقادة الوطنين : « إذا شئتم الاستقـلال ، خذوه وعودوا الى القرون الوسطى » فإن الشعب الذي نال استقلالاً حديثاً يوافق على هذا ، ويقابل التحدي بتحدٍ مثله . ويعمد الاستعمار فعلاً الى سحب رؤوس أمواله وفنييه ، ويضع حول الدولة الناشئة سياجـاً من الضغط

الاقتصادي [1] . وبذلك تنقلب نعمة الاستقلال إلى لعنة الاستقلال . إن القوة الاستعمارية تحكم على الشعب الناشىء بالتقهقر ، بما تملك من وسائل ضخمة لإنزال العقوبة فيه . ان القوة الاستعمارية تعلن جهاراً نهاراً : « مادمتم تريدون الاستقلال، فخذوه وموتوا » . والقادة الوطنيون ليس لهم عندئذ إلا ان يلتفتوا نحو شعبهم، طالبين منه أن يبذل جهداً ضخماً . فمن هؤلاء الرجال الجائعين يُطلب أن يتقشفوا ، ومن هذه العضلات الناحلة الضامرة يطلب عمل جبار . ويقوم نظام أساسه الاكتفاء الذاتي ، وتحاول كل دولة بالوسائل الضئيلة التي تملكها ، أن تتدارك الجوع القومي الكبير ، أن تتدارك البؤس القومي الكبير. ونشهد تعبئة شعب ينهك ويرهق منذئذ ، أمام أوروبا المتخمة المزدرية .

إن بلاداً أخرى من العالم الثالث ترفض مقاساة هذا الامتحان ، وتقبل

---

١ ـ في الظرف الدولي الراهن نري الرأسمالية لا تعمد الى الحصار الاقتصادي ضد المستعمرات الآسيوية او الافريقية وحدها . فالولايات المتحدة قد دشنت بأعمالها العدائية ضد كاسترو ، في نصف الكرة الغربي فصلاً جديداً من تاريخ تحرر الانسان . يجب ان تأخذ افريقيا درساً من أمريكا اللاتينية المؤلفة من بلاد مستقلة ممثلة في هيئة الامم المتحدة . ان هذه البلاد التي كانت مستعمرة ما تزال منذ تحررها الى يومنا هذا تقاسي الارهاب والعوز من وحشية الرأسمالية الغربية . ان تحرر افريقيا ونمو الوعي لدى البشر قد أتاحا لشعوب امريكا اللاتينية ان تتخلص من تلك النغمة العتيقة ، أعني تعاقب الديكتاتوريات متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض . لقد استلم كاسترو زمام السلطة وأعطاه للشعب. وشعر الامريكان بأن هذا الخروج عن طاعتهم كارثة قوية، وأخذت الولايات المتحدة تنظم عصابات من المرتزقة لمحاربة الثورة ، وتختلق حكومة مؤقتة، وتحرق محاصيل قصب السكر ، وتقرر أخيراً ان تخنق الشعب الكوبي خنقاً بلا رحمة . ولكن هيهات ان تستطيع ذلك. ان الشعب الكوبي سيقاسي كثيراً من الآلام، ولكنه سينتصر. وهذا جانيو كوادروس ، رئيس البرازيل ، يعلن في خطاب ذي قيمة تاريخية ان بلاده ستدافع عن الثورة الكوبية بجميع ما تملك من وسائل . لعل الولايات المتحدة ستتراجع هي أيضاً أمام ارادة الشعب . وسنبتهج يومئذ أكبر الابتهاج لان ذلك اليوم سيكون حاسماً بالنسبة الى رجال العالم ونسائه قاطبة . إن الدولار الذي لا يكفله ، على وجه الاجمال ، إلا العبيد المنتشرون في الارض، في آبار البترول بالشرق الأوسط ، ومناجم البيرو أو الكونغو ، ومزارع شركة الفواكه المتحدة أو فايرستون ، لن يسيطر بعد ذلك سيطرة جبارة على هؤلاء العبيد الذين أوجدوه وما يزالون يغذونه من لحوم اجسامهم وقد خوت رؤوسهم وخوت بطونهم .

شروط الدولة التي كانت وصية عليها، فتستفيد من وضعها الاستراتيجي الذي يجعلها موقعاً ممتازاً في الصراع بين الكتلتين ، فتعقد اتفاقات وتنحاز . وبذلك يتحول البلد الذي كان محتلاً الى بلد تابع من الناحية الاقتصادية . فالدولة التي كانت تستعمر هذا البلد ، تبقي على بعض العلاقات التجارية ذات الطابع الاستعماري ، بل تعزز هذه العلاقات في بعض الأحيان . وتقبل أن تغذي ميزانية الأمة المستقلة بحقن صغيرة . وهكذا نرى ان وصول البلاد المستعمرة الى الاستقلال يضع العالم أمام مشكلة رئيسية : أن تحرر البلاد المستعمرة يكشف القناع عن حالتها الواقعية ويجعل احتمال هذه الحالة امراً لا يطاق . ان الصراع الأساسي الذي كان يبدو صراعاً بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار ، وحتى بين الرأسمالية والاشتراكية ، يفقد منذ الآن كثيراً من أهميته ، والمشكلة الهامة الآن، المشكلة التي تملأ الأفق ، إنما هي ضرورة إعادة توزيع الثروات ، وعلى الانسانية أن تلبي هذه المشكلة وإلا تزعزعت وتزلزلت .

وقد اعتقد الناس عامة أنه آن للعالم ، وللعالم الثالث خاصة ، ان يختار بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . إن البلدان المتخلفة التي استفادت من التنافس الضاري القائم بين النظامين من أجل أن تكفل انتصار كفاحها في سبيل التحرر الوطني ، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الإقامة في نطاق هذا التنافس . إن على العالم الثالث أن لا يكتفي بتحديد ذاته على أساس قيم مسبقة. ان على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيماً خاصة بها ، وأن تضع المناهج التي تناسبها، وان تتبع الأسلوب الذي يلائمها . ان المشكلة المحسوسه التي نجد أنفسنا أمامها ليست ان نختار ، مهما كلف الأمر ، بين الاشتراكية والرأسمالية كما حددهما أناس يختلفون عنّا مكاناً وزماناً . اننا نعرف طبعاً ان النظام الرأسمالي ، من حيث هو طراز حياة ، لا يمكن ان يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية والعالمية، فالاستغلال الرأسمالي والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة ، كما أننا نعلم أن اختيار نظام اشتراكي يلتفت برمته الى مجموع الشعب ، ويقوم على مبدأ اعتبار الإنسان أثمن قيمة ، سيتيح لنا أن نسير سيراً أعظم سرعة وأكثر انسجاماً ، وسيحول بذلك

دون قيام مجتمع مشوّه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة .

ولكن لكي يستطيع هذا النظام أن يعمل عملاً سليماً ، ولكي نستطيع في كل لحظة أن نحترم المبادىء التي نستوحيها ، فإننا نحتاج الى شيء آخر غير تشغيل الأفراد . ان بعض البلدان المتخلفة تقوم في هذا الاتجاه بجهد جبار ، فالرجال والنساء ، والشباب والشيوخ ، تدفعهم الحماسة الى القيام بأعمال شاقة حقاً ، ويعلنون أنهم خدم الأمة . فبذل النفس وازدراء كل شاغل غير جماعي ، يوجدان أخلاقاً قوية تشدّ أزر الإنسان وترد الى نفسه الثقة بمصير العالم ، وتحيّر المراقبين المتشككين . ولكننا نعتقد مع ذلك ان جهداً كهذا الجهد لا يمكن أن يتواصل مدة طويلة على هذه السرعة المحمومة . لقد ردّت هذه البلاد على التحدي بتحدٍ مثله بعد انسحاب الدولة المستعمِرة انسحاباً غير مشروط ، وآل حكم البلاد الى جماعة جديدة ، ولكن لا بد في الواقع من تغيير كل شيء ، ومن إعادة النظر في جميع الأمور . لقد كان النظام الاستعماري يهتم بثروات معينة ، بموارد معينة هي تلك التي تغذي صناعاته . وما من دراسة جدية حتى الآن تناولت الأرض ، سطحها وجوفها . لذلك ترى الأمة الناشئة المستقلة نفسَها مضطرة الى الاستمرار في الطرق الاقتصادية التي أنشأها النظام الاستعماري . صحيح أنها تستطيع الآن ان تصدّر الى بلاد أخرى ، الى مناطق نقدية أخرى ، ولكن الأساس الذي يقوم عليه التصدير لم يتبدل تبدلاً أساسياً .

لقد انشأ النظام الاستعماري دورات اقتصادية جامدة ، والأمة الناشئة مضطرة الى الإبقاء على هذه الدورات الاقتصادية ، وإلا كانت تعرّض نفسها لكارثة . فربما كان من الضروري إذن ان يستأنف كل شيء استئنافاً جديداً وأن تُبدّل طبيعة عمليات التصدير لا الجهات التي يتم التصدير اليها فحسب ، ويجب ان تُسأل الأرض من جديد عن مواردها ، ويجب ان يُسأل عن ذلك باطن الأرض ، وأن تُسأل عنه الأنهار ، وربما الشمس أيضاً ! ومن أجل هذا لا يكفي تجنيد الإنسان في العمل ، بل لا بد من رؤوس أموال ، ومن خبراء ،

ومهندسين، وميكانيكيين، وهلمّ جراً.. وفي اعتقادي – أقول هذا بصراحة – ان الجهد الجبار الذي يُهيب قادةُ الشعوب المتخلفة بشعوبهم أن يقوموا به لن يعطي الثمرات المرجوّة، فإذا لم تُبدّل شروط العمل فستنقضي قرون طويلة قبل ان نستطيع رد الإنسانية الى هذا العالم الذي أنزلته القوى الاستعمارية الى الحيوانية.

والحقيقة هي أن علينا ان نقبل هذه الشروط؛ علينا أن نرفض رفضاً قاطعاً الوضع الذي تريد البلاد الغربية أن تفرضه علينا. إن الاستعمار لم يشف غليله حين سحب من أراضينا أعلامه وشرطته. لقد ظل الرأسماليون قروناً يسلكون في العالم المتخلف سلوك مجرمي الحروب. لقد كان الترحيل والقتل والأعمال الشاقة والاستعباد، كان ذلك هو الوسائل التي تستعملها الرأسمالية لزيادة مخزوناتها من الذهب والألماس، ومضاعفة ثرواتها، وتحقيق قوتها وسلطتها. منذ زمن ليس ببعيد أحالت النازية أوروبا كلها الى مستعمرة، فلما انتهت الحرب رأينا مختلف الشعوب الأوروبية تطالب بتعويضات، وتطلب أن ترد إليها ثرواتها التي سرقت منها مالاً وبضاعة، ورأينا الآثار الثقافية، كاللوحات والتماثيل والزخارف، تُعاد إلى أصحابها. لقد كانت أفواه الأوروبيين غداة عام ١٩٤٥ تردد عبارة واحدة: «يجب أن تدفع المانيا». وهذا اديناور يعتذر من اليهود بلسان الشعب الألماني، عند افتتاح محاكمة إيخمان، ويجدد لهم العهد بأن تستمر بلاده في أن تدفع لدولة اسرائيل المبالغ الضخمة التي هي تعويض عن جرائم النازيين!

وعلى هذا المنوال نقول إن الدول الاستعمارية ترتكب خطأ فادحاً، وتقترف ظلماً لا يوصف اذا هي اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها العسكرية وأجهزتها الإدارية والاقتصادية التي كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها الى عواصم البلاد المستعمِرة. إن التعويض المعنوي الذي يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة، إنه لا يطعمنا من جوع. إن ثروات البلاد الاستعمارية هي ثروتنا أيضاً. لقد أُتخمت أوروبا ذهباً ومواد أولية من البلاد المستعمَرة: من

أمريكا اللاتينية والصين وإفريقيا . فمن جميع هذه القارات التي تتيه عليها أوروبا اليوم بثرائها الضخم ، كانت تمضي منذ قرون الى اوروبا هذه ، الأحجارُ الكريمة والبترول ، والحرير والقطن ، والأخشاب والمنتجات المحلية . إن اوروبا إنما خلقها العالم الثالث . والثروات التي تتخم أوروبا اليوم إنما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة ، إن موانىء هولانده وليفربول ، ومخازن بوردو وليفربول ، المتخصصة في تجارة الرقيق إنما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين . فإذا سمعنا رئيس دولة أوروبية يقول ، وقد وضع يده على قلبه ، ان من الواجب تقديم المعونة للشعوب المتخلفة المسكينة فإن هذا لا يجعلنا نرتعش اعترافاً بالجميل ، بل نقول : « هذا تعويض عادل سيقدم إلينا » . لذلك لا نقبل أن تكون المساعدات التي تقدم للبلاد المتخلفة برنامج « صدقات » . فإنما ينبغي ان تكون هذه المساعدات منبثقة عن وعيين ، وعي يعيه المستعمَرون فيفهمون ان هذا حقهم ، ووعي تعيه الدول الرأسمالية فتفهم ان عليها حقاً ان تدفع . فإذا أبت البلاد الرأسمالية — عن غباء ولا أقول عن نكران الجميل — إذا أبت ان تدفع ، فإن منطق نظامها نفسه سيتولى خنقها ان من الأمور الواقعة ان الأمم الفتية لا تجتذب رؤوس الأموال الخاصة كثيراً . هناك أسباب كثيرة تبرر وتعلل هذا التحفظ من قبل الاحتكارات . ومتى عرف الرأسماليون ، وهم يعرفون ذلك أول من يعرف ، ان حكومتهم تتهيأ للجلاء عن المستعمَرة ، فإنهم يسارعون الى سحب جميع رساميلهم من هذه المستعمَرة . إن هروب الرساميل على هذه الصورة السريعة ظاهرة من أثبت ظاهرات زوال الاستعمار .

إن الشركات الخاصة لا ترضى أن توظف رساميلها في البلاد المستقلة إلا إذا كُفلت لها شروط معينة ، وقد اتضح بالتجربة ان الشروط التي تطلبها هذه الشركات الخاصة لا يمكن قبولها إذ لا يمكن تحقيقها . إن الرأسماليين وهم يلتزمون مبدأ الربح المباشر متى خرجوا الى « ما وراء البحار » ، يترددون كثيراً إزاء كل توظيف لرساميلهم طويل الأمد . إنهم يرفضون بل يعادون في كثير من الأحيان برامج التخطيط التي تضعها الحكومات الفتية . وكل ما يمكن

ان يقبلوه ، عند الاقتضاء ، هو أن يقدموا للدول الفتية قروضاً ماليـــة ، على شرط ان يحتفظ بهذا المـال لشراء المنتجات المصنوعة والآلات ، أي لتشغيـل مصانع البلاد المستعمِرة .

والواقع أن هذا الحذر الذي تبديه الأوساط المالية الغربية إنما مردّه إلى حرصها على ألا تقوم بأية مجازفة ، لذلك نراها تشترط استقراراً سياسياً وجـواً اجتماعياً هادئـاً ، وهما أمران لا يمكن توافرهما ، لما يعانيه الأهلون غـــداة الاستقلال من وضع محزن . وترى تلك الأوساط المالية التي تبحث عن ضمانة لا يمكن أن توفرها لها هذه البلاد التي كانت مستعمَرة ، نراها تطالب بإبقاء بعض القوات العسكرية ، أو تطالب بدخول الدولة الناشئة في معـاهدات اقتصادية او أحلاف حربية . وتضغط الشركات الخاصة على حكوماتها مطالبة على الأقل بإقامة قواعد عسكرية مهمتها حماية مصالح هذه الشركات ؛ ثم تطلب الشركات من حكوماتها آخر الأمر أن تضمن الرساميل التي تقرر هذه الشركات استثمارها في هذه المنطقة أو تلك من المناطق المتخلفة .

ولما كان لا يقبل هذه الشروط التي تطلبها الشركات الكبرى والاحتكارات إلا عدد قليل من البلدان ، فإن الرساميل تحرم عندئذ من وجود أسواق ثابتة لها ، وتبقى محصورة في أوروبا ، وتتجمد ، وتتجمد خاصة لأن الرأسماليين يرفضون استثمارها في بلادهم نفسها ، لأن الأرباح هنالك ضئيلة ، ولأن رقـــابة الضرائب تبعث اليأس في نفوس أجرأ الرأسماليين .

وهذا الوضع إذا طال أدّى الى الكارثة . إن الرساميل لا تتحرك ، أو أن حركتها تقل كثيراً . ان البنوك السويسرية ترفض إيداع الرساميل ، وأوروبا تختنق . إن الرأسمالية العالمية تُحتضر ، رغم المبالغ الضخمة التي تبتلعها النفقات الحربية .

على ان هناك خطراً آخر يهدد الرأسمالية العالمية . إن شعوب العالم الثالث الذي تتركه الدول الغربية وتحكم عليه بالتقهقر الى وراء ، أو بالجمود في مكانه على الأقل، بسبب أنانيتها وخلوّها من الأخلاق ، إن شعوب العالم الثالث هذه ستقرر

ان تتطور على أساس الاكتفاء الذاتي الجماعي . فسرعان ما ستحرم الصناعات الغربية إذن من أسواقها فيما وراء البحار ، فترقد الآلات في مستودعاتها ، ويقوم عندئذ في السوق الأوروبية صراع عنيف بين الأوساط المالية والشركات الكبرى ،ومن شأن إغلاق المصانع وتسريح العمال وانتشار البطالة أن يدفع الطبقة العاملة الأوروبية إلى خوض كفاح صريح ضد النظام الرأسمالي . وستدرك الاحتكارات عندئذ ان مصالحها نفسها تملي عليها أن تساعد البلاد المتخلفة ، ان تساعد مساعدات ضخمة دون ان تفرض عليها شروطاً كثيرة . وهكذا نرى أن شعوب العالم الثالث الناشئة تخطىء إذا هي استجدت البلاد الرأسمالية . إننا أقوياء بحقنا وبعدالة مواقفنا . وعلينا أن نشرح للبلاد الرأسمالية أن المشكلة الأساسية في العصر الراهن ليست هي الحرب بين النظام الاشتراكي وبينها ، فيجب إنهاء هذه الحرب الباردة التي لا تؤدي إلى شيء ، ويجب وقف هذه الاستعدادات لنسف العالم بالقنابل النووية ، ويجب توظيف الأموال في المناطق المتخلفة بسخاء ، ويجب تقديم المساعدات الفنية لهذه المناطق المتخلفة . إن مستقبل العالم رهن بحل هذه المشكلة .

ولتكفّ البلاد الرأسمالية عن محاولة جذب البلاد الاشتراكية الى الاهتمام بـ « مصير أوروبا » في وجه الجموع الملونة الساغبة . ان الانتصار الذي حققه الكومندان غاغارين ليس نجاحاً « تفخر به أوروبا » ، على حد زعم الجنرال دوجول . ان رؤساء دول البلاد الرأسمالية ورجال الثقافة في هذه البلاد الرأسمالية ، قد أخذوا منذ حين يقفون من الاتحاد السوفياتي موقفاً ملتبساً ، فبعد ان كتلوا جميع قواهم للقضاء على النظام الاشتراكي أصبحوا يفهمون الآن أن عليهم أن يتعاونوا معه ، لذلك أخذوا يتوددون اليه ، ويكثرون من مناورات الإغراء ، ويذكرون الشعب السوفياتي دائماً بأنه « جزء من أوروبا » .

إنهم إذ يصورون العالم الثالث في صورة موجة تهدد بابتلاع أوروبا كلها ، لن يستطيعوا أن يفرقوا شمل القوى التقدمية التي تريد أن تقود الإنسانية إلى السعادة . ان العالم الثالث لا يريد أن ينظم حملة صليبية واسعة على أوروبا. وكل

ما يطلبه من هؤلاء الذين أبقوه عبداً خلال قرون ، هو أن يساعدوه على رد الاعتبار للانسان ، وعلى تحقيق النصر للانسان في كل مكان الى الأبد .

ولكن من الواضح أننا لا نبلغ من السذاجة حد الاعتقـــاد بأن هذا الامر سيتحقق بمعاونة الحكومات الأوروبية وحسن نيتها. ان هذا العمل العظيم الذي يبتغي إعادة إدخال الانسان الى العالم ، الانسان كله ، إنما يتم بمعونة الجمـــاهير الأوروبية التي يؤسفنا أنهـــا كثيراً ما تحالفت في مشكلات المستعمرات مع مستعبدينا الذين هم مستعبدوها أيضاً . ومن أجل تحقيق ذلك لا بد أن تقرر الجماهير الأوروبية أولاً ان تستيقظ من سباتها، وأن تنفض أدمغتها، وان تكف عن تمثيل ذلك الدور الذي كانت تمثله الى الآن بغير شعور بالمسؤوليـــة ، دور الحسناء النائمة في الغابة .

الانطلاق العفوي

عظمته ، ومواطن ضعفه

قادتنا تأملاتنا في العنف الى إدراك أن هناك في أكثر الأحوال مسافة وفرقاً في السرعة بين أجهزة الحزب الوطني وبين الجماهير . إن في كل منظمة سياسية أو نقابية هوة تقليدية بين الجماهير التي تطالب باصلاح أحوالها إصلاحاً مباشراً شاملاً ، وبين القيادات التي لمعرفتها بما يمكن ان يخلقه الرأسماليون من عقبات ، تجعل مطالبها محدودة مقصورة . لذلك نلاحظ في كثير من الأحيان ان الجماهير تظل في حالة استياء عنيد من القيادات . ان الجماهير تشعر ، بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها ، ان القيادات قد خانتهـــا ، في حين نرى القيادات تحتفل بالنصر . ان تكاثر الحركات التي تنطلق مطالبة بالحقوق، وتكاثرَ الصراعات النقابية ، هما اللذان سيحققان الوعي السياسي لدى هذه الجماهير ، والمقصود بالوعي السياسي لدى النقابي هو إدراك النقابي لهذه الحقيقة ، وهي أن النزاع المحلي ليس تصفية نهائية للحساب بينه وبين أرباب العمـــل . ان المثقفين المستعمَرين الذين درسوا في العواصم الاستعمارية نظام الأحزاب السياسيةوكيفية عملها ينشئون في بلادهم منظمات شبيهة بغية تعبئة الجمـاهير والضغط على الادارة الاستعمارية . إن قيام الأحزاب السياسية في البلاد المستعمَرة معاصر لنشوء نخبة من المثقفين والتجـار . وهذه النخبة تخلع على التنظيم قيمة كبيره من حيث هو تنظيم ، وكثيراً ما تتغلب عبـادة التنظيم هذه على الدراسة العقليـــة للمجتمع المستعمَر . ان فكرة الحزب مستوردة من البلاد المستعمِرة فترى النخبة تحاول أن تطبق هذه الأداة النضاليه الحديثة تطبيقاً آليـــاً على مجتمع بدائي ، غير متوازن ، مجتمع تعيش فيه أنظمة مختلفة معاً ، تعيش فيه أنظمـــة العبودية ، والقنانة ، والمقايضة ، والحرف ، وعمليات البورصة .

إن ضعف الأحزاب السياسية ليس ناشئاً فقط عن أنها تستعمل استعمالاً آلياً هذا التنظيم الذي يقود الطبقة العاملة في مجتمع رأسمالي بلغ درجة عالية من التصنيع . إن هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغي أن تنشأ . ان الخطيئة الكبرى ، ان الآفة الكبرى التي تعيب الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة هي انها تتجه باهتمامها الأول الى العناصر الواعية من الشعب : الطبقة العاملة في المدن ، أصحاب الحرف ، الموظفين ، أي الى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحداً في المائة .

ولئن كانت هذه البروليتاريا تفهم دعاية الحزب وتقرأ كتاباته ، فانها أقل استعداداً لتلبية نداء الشعارات التي قد تدعو الى الكفاح القوي في سبيل التحرير الوطني . إن البروليتاريا ، كما لوحظ ذلك مرات كثيرة ، هي من الشعب المستعمَر نواة يُفيض عليها النظام الاستعماري أكثر ما يفيض من خير . إن البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبياً ببعض الامتيازات . اذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى أن تخسر شيئاً ، لأنها الطبقة التي يمكن أن تربح كل شيء ، فإن البروليتاريا في البلاد المستعمَرة يمكن أن تخسر ، فهي من الشعب المستعمَر ذلك الجزء الضروري الذي لا يُستغنى عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية : سائقو حافلات الترام وسيارات الأجرة ، عمال المناجم ، عمال الموانىء ، التراجمة المرضون ، الخ . وهذه العناصر هي التي تضمها الأحزاب الوطنية أكثر ما تضم ، وهي ، بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري ، يمكن أن تُعدّ الجزء البورجوازي من الشعب المستعمَر .

إن المنتسبين الى الأحزاب السياسية الوطنية هم أفراد من سكان المدن قبل كل شيء : أصحاب حرف ، عمّال ، مثقفون ، تجار . حتى ان طراز تفكيرهم يحمل في كثير من النواحي علامة البيئة الراقية بعض الرقي ، الميسورة بعض اليسر ، التي تجري حياتهم فيها . وفي هذه البيئة تسود « الروح العصرية » . إن هذه الأوساط نفسها هي التي تحارب التقاليد البالية ، وتريد ان تصلح

العادات ، وبذلك تدخل في صراع صريح مع قوام الأمة .

إن الأكثرية الساحقة في الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير ، وارتياب شديد . إنها تحسّ أن هذه الجماهير عاطلة عقيمة . وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية (من عمال المدن والمثقفين) أن يصبح رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين . ولكن إذا حاولنا ان نفهم أسباب هذا الحذر الذي تشعر به الأحزاب الوطنية إزاء الجماهير الريفية ، كان علينا ان نتذكر هذه الحقيقة ، وهي أن الاستعمار قد عزّز دائماً سيطرته أو رسّخها بواسطة العمل على تجميد الأرياف وتحجيرها. إن الجماهير الريفية التي يحيط بها الدراويش والسحرة والزعماء التقليديون ، ما تزال تعيش في المرحلة الإقطاعية ، وهذه البنية الاجتماعية التي تذكر بالقرون الوسطى انما يغذّيها الموظفون الإداريون والعسكريون الاستعماريون .

وتدخل البورجوازية الوطنية الناشئة ، وهي بورجوازيه تجارية بوجه خاص، تدخل في تنافس مع هؤلاء السادة الإقطاعيين من نواحٍ شتى: الدراويش الدجّالون والسحرة المشعوذون يسدّون الطريق أمام المرضى الذين يستطيعون أن يستشيروا الطبيب ، ومجالس القبائل تفصل بين الناس فتصرفهم عن اللجوء الى المحامين ، والزعماء التقليديون يستعملون سلطتهم السياسية والادارية للقيام بتجارة ، أو لإقامة خط من خطوط النقليات ، والقادة المحليون يعارضون باسم الدين والتقاليد دخول تجارات جديدة ومنتجات جديدة .

إن هذه الطبقة الناشئة من التجار المستعمَرين في حاجة الى زوال هذه الأنواع من الخطر وهذه الأنواع من الحواجز ، حتى تنمو وتزدهر . وهكذا فإن هؤلاء الزبائن من السكان الأصليين الذين يمثلون في نظر الإقطاعيين صيداً يجب عليهم أن يحتفظوا به ، الذين يُمنعون بعض المنع من شراء منتجات جديدة ، يصبحون سوقاً متنازعاً عليها .

والقيادات الاقطاعية تقيم حاجزاً بين الوطنيين الشبان المطبوعين بالطابع الغربي وبين الجماهير ، فكلما حاولت النخبة أن تبذل جهداً من الجهود في صفوف

الجماهير الريفية تصدى لها زعماء القبائل ، وزعماء الحلقات الدينية ، وتصدت لها السلطات التقليدية ، فأخذت تصب عليها مزيداً من الوعيد والتهديد وتكيل لها اتهامات الكفر والزندقة . إن هذد السلطات التقليدية التي تدعمها قوة الاحتلال ، يسوؤها أن ترى ازدياد المحاولات التي تقوم بها النخبة من أجل التغلغل في الأرياف . إنها تعلم أن الأفكار التي يمكن ان يحملها الى الريف هؤلاء الناس القادمون من المدن تنكر حتى مبدأ دوام الاقطاعيات . لذلك تشعر أن عدوها الأول ليس هو السلطة المحتلة التي يقوم بينها وبينها نوع من التفاهم ، وإنما عدوها هؤلاء العصريون الذين يريدون أن يبدلوا نظام المجتمع وان يخطفوا خبزهم من أفواههم .

والعناصر المطبوعة بالطابع الغربي تشعر نحو جماهير الفلاحين بعواطف تذكرنا بالعواطف التي نراها في صفوف طبقة العمال في البلاد المصنّعة . لقد أوضح تاريخ الثورات البورجوازية وتاريخ الثورات البروليتارية ان جماهير الفلاحين كثيراً ما تكون حاجزاً يعطل اندفاع الثورة . ان الجماهير الريفية في البلاد المصنّعة هي على وجه العموم أقل عناصر المجتمع وعياً ، وأقلها تنظيماً وأكثرها فوضى . إنها تتصف بمجموعة من الصفات هي الصفات التي يمتاز بها السلوك الرجعي ، من ميل الى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب للربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة ولليأس العميق تارة أخرى .

وقد رأينا الأحزاب الوطنية تنقل أساليبها وعقائدها عن الأحزاب الغربية ، لذلك نراها في أكثر الأحوال تتجه بدعايتها نحو هذه الجماهير الريفية . ولكن هذه الأحزاب لو حللت المجتمع المستعمَر تحليلاً عقلياً سليماً ، لأدركت ان الفلاحين المستعمَرين يعيشون في بيئة تقليدية ظلت بنياناتها سليمة ، على حين أن هذه البيئة التقليدية في البلاد المصنعة هي التي صدّعها تقدم التصنيع . ان البروليتاريا الناشئة في المستعمرات هي الطبقة التي نرى لدى أفرادها سلوكاً فردياً . ان الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل الى حلها يهجرون الريف ويفدون الى المدن فيتكدسون في

أكواخ الصفيح، ويحاولون ان يتسربوا إلى الموانىء والمدنالتي أوجدتها السيطرة الاستعمارية، فيكوّنون هنالك البروليتاريا الدنيا. ان الجماهير الريفية التي تبقى في القرى تواصل حياتها في إطار ساكن، حتى اذا زاد عـدد الأفواه التي تحتاج إلى طعام لم تجد لها سبيلاً إلا ان تهاجر الى المـدن. ولكن الفلاح الذي يبقى في مكانه يحمي تقاليده في عنـــاد وإصرار، وهو في المجتمع المستعمَر يمثل العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائماً على التواصل بين أفراد الجمـاعة، وعلى ارتبـــاط بعضها ببعض ارتباطاً قوياً. صحيح أن هذا الركود وهذا الانكماش قد يولـدان من حين الى حين حركات قائمة على العصبية الدينية، وقد يولد حروباً قبلية. ولكن الجماهير الريفية تظل في عفويتهـا انضباطية تتصف بالغيرية. ان الفرد ذائب هنا في الجماعة.

والفلاحون يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه. انه يرتدي ملابس كملابس الأوروبيين، ويقطن احماناً في الحي الأوروبي. لذلك ينظـــر اليه الفلاحون نظرتهم الى إنســان خرج على قومه، وهجر كل ما هو تراث قومي. ان الفلاحين ينظرون إلى سكان المدن نظرتهم الى «خونة»، نظرتهم الى أناس «باعوا أنفسهم» فهم متفاهمون مع المحتل، يحاولون في إطار النظـــام الاستعماري ان يحققوا النجاح. لذلك نسمع الفلاحين في كثير من الأحيان يصفون أبناء المدن بأنهم أناس لا أخلاق لهم. ولسنا هنا بصدد ذلك التعارض المعروف بين الريف والمدينة. وإنما نحن هنا بصدد تعارض بين المستعمَر المحروم من منافع الاستعمار، وبين المستعمَر الذي يرتب أموره بحيث ينال من الاستغلال الاستعماري نصيباً.

والاستعماريون، من جهة أخرى، يستغلون هذا التعارض في صراعهم ضد الأحزاب الوطنية. فهم يجندون سكان الجبال والقرى ضد سكان المـــدن، ويثيرون مؤخرة البلاد ضد مقدمتها، ويحرضون القبائل، فما ينبغي أن يدهشنا أن يتوّج كالونجي نفسه ملكاً على كاساي، ولا أن نرى «مجلس زعمـاء غانا» يقف منذ سنوات في وجه نكروما ويخلق له المصاعب.

إن الأحزاب السياسية لا تتوصل الى ترسيخ قواعد منظماتها في الأرياف. فهي بدلاً من ان تستعمل البنيانات الموجودة من أجل إعطائها مضموناً قومياً أو تقدمياً ، تحاول في نطاق النظام الاستعماري ، ان تقلب الواقع التقليدي رأساً على عقب . إنها تتخيل أن في وسعها ان تطلق الأمة من عقالها وان تبعثها على المسير ، في حين ان حلقات النظام الاستعماري ما تزال مطبقة عليها جاثمة فوقها . إن هذه الأحزاب لا تمضي الى لقاء الجماهير . إنها لا تضع معارفها النظرية في خدمة الشعب ، وإنما تحاول ان تنظم الجماهير وفقاً لمخطط لم ينبثق من التجربة . وهكذا تراها ترسل من العاصمة الى القرى ، على حين غرة ، مسئولين مجهولين أو شباناً صغاراً تندبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب الى القرية أو الدوار ، كأنما هي تريد أن تقود القرية او الدوار كما تقاد خلية من خلايا الحزب في مصنع من المصانع ، وهي بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين ، وربما أهانتهم في بعض الأحيان . إن تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغياناً كبيراً على التواريخ المحلية الصغيرة التي هي الواقع الوطني الوحيد الراهن ، في حين أن من الواجب على هذه الأحزاب ان توفق توفيقاً منسجماً بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية ، بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذي تدعو الشعب الى خوض غماره . إن هذه الأحزاب كثيراً ما تسخر على رؤوس الأشهاد من الشيوخ الذين تحيط بهم في المجتمعات التقليدية هالة من الاحترام ، والذين يملكون على وجه العموم سلطة معنوية لا سبيل الى المماراة فيها. ولا تنسى دوائر السلطة المحتلة أن تستغل هذه الأحقاد ، فهي تتسقط أخبار أيسر القرارات التي تتخذها هذه السلطة الغِرّة ، فإذا هي تنزل ضربتها البوليسية في إحكام مستمد من دقة المعلومات التي وصلت اليها ويُعتقل المسئولون الذين وفدوا الى المدينة على حين غرة ، ويعتقل كبار أعضاء المجلس الجديد .

ويأتي هذا الاخفاق مصداقاً « للتحليل النظري » الذي قامت به الأحزاب الوطنية ، فالنازلة التي نزلت بالحزب حين حاول تنظيم الجماهير الريفية تعزز حذرة من الجماهير الريفية وتقوّي تهجمه على هذا الجزء من الشعب ، وبعد

انتصار كفاح التحرير الوطني تتجددهذه الأخطاة وتغذي الميول الى اللامركزية والى الانفصالية . وتحل محلّ العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد الاستعمار عصبيةٌ إقليمية تسود في عهد التحرر الوطني ، مناديةً بشعارها الدستوري : الفدرالية .

ولكن يتفق أحياناً ان نرى الجماهير الريفية ، رغم قلة تأثير الأحزاب الوطنية ، فيها ، تتدخل في الكفاح تدخلاً حاسماً ، فإما ان تزيد الوعي القومي نضجاً ، وإما أن تتناوب العمل مع الأحزاب الوطنية ، وإما – وهذا أندر – ان تُحل نفسها محل هذه الأحزاب العقيمة .

إن دعايه الأحزاب الوطنيةيتردد صداها دائماً بين صفوف الجماهير القروية. ان ذكرى مرحلة مقاومة الاستعمار تظل حية قوية في القرى . ان النساء ما تزال تدندن في آذان أطفالها الأغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو . ان أطفال القرى الذين هم في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من أعمارهم ، يعرفون أسماء الشيوخ الذين شهدوا آخر ثورة . والأحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى ليست تلك الأحلام المترفة التي تملأ أخيلة أطفال المدن ، أعني أحلام النجاح في الامتحانات ، وإنما هي أحلام تشبّه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقي دموعاً غزاراً.

وفي اللحظة التي تحاول فيها الأحزاب السياسية أن تنظم الطبقة العاملة الناشئة في المدن ، تشهد الأرياف في بعض الأحيان انفجارات تبدو في الظاهر غريبة غير مفهومة . فكذلك شبّت الثورة المشهورة في مدغشقر عام ١٠٤٧ . ان المصالح الاستعمارية قد فسرت هذه الثورة تفسيراً بسيطاً فقالت : عصيان . ولكننا نعلم اليوم ان الأمور كانت أعقد من ذلك كثيراً ، كما هي الحال دائماً . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية وسّعت الشركات الاستعمارية الكبرى سلطانها واستولت على جميع الأراضي التي كانت لا تزال حرة . وفي تلك الفترة نفسها شاع أن في النية إسكان لاجئين من اليهود، وأناس من القبائل ومن سكان جزر الأنتيل في مدغشقر . وشاع ايضاً ان السكان البيض في جنوبي افريقيا سيغزون

الجزيرة بالتواطؤ مع المستوطنين الأوروبيين. لذلك رأينا مرشحي القائمةالوطنية في الانتخابات التي جرت بعد الحرب يفوزون فوزاً ساحقاً . فإذا بأعمال القمع التى تقوم بها السلطات الاستعمارية تنصب فوراً على خلايا « الحزب الديموقراطي لبعث مدغشقر » واستعمل الاستعمار ، في حملة القمع هذه ، الأساليب التقليدية المعروفة لتحقيق أهدافه : اعتقالات كثيرة ، دعـــاية عنصرية للتفريق بين القبائل ، خلق حزب جديد من عناصر غير منظمة أخذتهـــا من بين صفوف البروليتاريا الدنيـا . وكان الغرض من خلق هذا الحزب الذي أسمي « حزب المحرومين » أن تكون استفزازاته حجة مشروعة تتذرع بها السلطة الاستعمارية للمحافظة على النظام . ولكن هذه العملية التافهة ، أعني تصفية حزب أعد لهذا الغرض سلفاً ، اتسعت اتساعاً هائلاً . فأدركت الجماهير الريفية التي كانت على أهبة الدفاع منذ ثلاث سنين او أربـع ، أدركت فجأة أنها مهـــددة بالموت ، فقررت ان تعارض القوى الاستعمارية معارضة وحشيـة ، فتسلحت بالرماح ، وبالحجارة في أكثر الأحيان ، وخاضت غمار تلك الثورة الجارفة التي عمت البلاد في سبيل التحرير الوطني .. والقارىء يعرف تتمة القصة .

وليست في هذه الثورات المسلحة إلا احدى الوسائل التي تستعملها الجماهير الريفية للتدخل في الكفاح القومي . وفي بعض الأحيان يحمل الفلاحون العبء عن المدينة ، حين تتناول حملة القمع البوليسي الحزب الوطني . ان الأنباء تصل الى الأرياف مضخّـمة ، مضخمة تضخيماً كبيراً : الزعماء اعتقلوا ، الرشاشات تقذف الناس برصاصها ، دم الزنوج يغرق المدينة ، المستوطنون يستحمون بالدم العربي . وتتفجر مراجل الحقـد المتجمع المكظوم . فيهجم الفـلاحون على مخفر الشرطة المجاورة فيحتلونه ، ويمزقون رجـال الدرك إرباً إرباً ، ويقتلون معلم المدرسـة ، ولا ينجو الطبيب إلا لأنه كان غائبـــاً ، الخ ، الخ .. وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل الى المنطقة فرقاً من جيوشها ، وتأخـــذ الطائرات تقذف قنابلها . وهكذا ترفع راية الثورة ، وتنبعث التقاليد الحربيـة القديمة ، وتزغرد النساء ، وينظم الرجال صفوفهم ويحتلون مواقعهم في الجبال ، وتبـدأ

الحرب . هكذا يخلق الفلاحون من تلقاء أنفسهم جواً عاماً من اضطراب حبل الأمن ، فيخاف الاستعمار ، فإما أن يستمر في الحرب وإما أن يفاوض .

فكيف تستجيب الأحزاب الوطنية لهذا الدخول المفاجىء الذي تدخله جماهير الفلاحين فى الكفاح الوطني ؟ لقد رأينا ان أكثر الأحزاب الوطنية لم تضع في برامجها ضرورة العمل المسلح . وهي الآن لا تعارض استمرار الثورة ، ولكنها تكتفي بالركون إلى عفوية القرويين . إنها بوجه الاجمال ، تتصرف إزاء هذا العنصر الجديد تصرفها إزاء معجزة نزلت من السماء ، مبتهلة إلى القدر أن تستمر هذه المعجزة . إن الأحزاب الوطنية تستثمر هذه المعجزة، ولكنها لا تحاول أن تنظم الثورة . إنها لا ترسل إلى الأرياف رجالاً من مسؤوليها لبث الوعي السياسي لدى الجماهير ولتنويرها ولرفع مستوى المعركة ، وإنما هي تأمل أن يستمر كفاح هذه الجماهير من تلقاء ذاته ، وترّجي أن لا يضعف أو يخور . فليس ثمة عدوى تسري من حركة المدينة إلى حركة الريف، وإنما تتطور كل حركة من الحركتين وفقاً لمنطقها الخاص .

إن الأحزاب الوطنية لا تحاول أن تدخل إلى الجماهير الريفية ، التي هي الآن مهيأة كل التهيؤ ، شعارات معينة . إنها لا تعرض عليها أي هدف . كل ما في الأمر أنها تأمل ان تستمر هذه الحركة إلى غير نهاية ، وأن لا يحقق قصف القنابل غرضه فيقضي على الثورة. وهكذا نرى أن الأحزاب الوطنية لا تستثمر، حتى في هذه المناسبة ، الفرصة المتاحة لها ، وهي ان تضم الجماهير الريفية إلى صفوفها ، وأن تبث فيها الوعي السياسي ، وأن ترفع مستوى كفاحها . إنها تظل على ذلك الموقف الإجرامي ، موقف الحذر من الأرياف .

إن المسؤولين السياسيين يقبعون في المدن ، ويُفهمون الاستعمار ان لا صلة لهم بالثائرين ، أو يسافرون إلى الخارج . ومن النادر أن ينضموا إلى الشعب في الجبال . ففي كينيا مثلاً لم يعلن أي وطني معروف ، أثناء ثورة الماو ماو ، انتماءه إلى هذه الحركة ، ولا حاول ان يدافع عن هؤلاء الرجال .

ما من مناقشة خصبة بين مختلف طبقات الأمة ، ولا من لقاء . لذلك نرى

عدم التفاهم هذا يبقى ويتفاقم حين يتحقق الاستقلال ، بعد قمع قاست ويلاته الجماهير الريفية ، وتفاهم تم بين الاستعمار والأحزاب الوطنية . ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات الاجتماعية ولو كانت تقدمية في نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية ، وما ذلك إلا لأن الذين أصبحوا الآن حكاماً لم يشرحوا لمجموع الشعب أثناء فترة الاستعمار ، لا أهداف الحزب ، ولا الاتجاه القومي ، ولا المشكلات العالمية ، الخ ...

فالحذر الذي كان القرويون والاقطاعيون يشعرون به إزاء الاحزاب الوطنية في عهد الاستعمار ، يستمر في عهد الاستقلال عداوة مماثلة: وتأخذ الدوائر الاستعمارية السرية التي لم تلق سلاحها في عهد الاستقلال ، تأخذ تغذي الشعور بالاستياء ، وتتوصل إلى خلق مصاعب كثيرة في وجه الحكومات الفتية . وتدفع الحكومة عندئذ ثمن كسلها وتقاعسها في إبان عهد التحرير ، وثمن احتقارها للقرويين . يمكن أن يصبح للأمة رأس عاقل حكيم ، بل قد يصبح لها رأس تقدمي ، ولكن الجسم الكبير يبقى ضعيفاً هزيلاً غير متعاون .

ويغري الحكومة في مثل هذه الحالة أن تحطم هذا الجسم بتركيز الحكم وإخضاع الشعب بالقوة . وهذا واحد من الاسباب التى تحمل كثيراً من الناس على أن يقولوا إنه لا بد من شيء من الديكتاتورية في البلاد المتخلفة . ان المسؤولين يشكون في الجماهير الريفية ، حتى لقد يأخذ هذا الشك أشكالاً خطيرة . من ذلك مثلاً أن بعض الحكومات تظل زمناً طويلاً بعد الاستقلال تعد مؤخرة البلاد منطقة لم يستتب فيها السلم ، فما يزورها رئيس الدولة ولا وزراء الحكومة إلا بمناسبة قيام الجيش الوطني ببعض المناورات العسكرية ، حتى لتكاد مؤخرة البلاد أن تكون شيئاً مجهولاً . والغريب في الأمر أن تصرف الحكومة الوطنية إزاء الجماهير الريفية يشبه بعض صفات تصرف السلطة الاستعمارية . فترى المسؤولين يقولون : « لا يعرف المرء كيف يمكن أن يكون رد الفعل لدى هذه الجماهير » ، بل إن الحكام الجدد لا يتورعون عن القول : « لا بد من استعمال السوط إذا نحن أردنا إخراج هذه البلاد من القرون الوسطى » ولكن تهاون

الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية في عهد الاحتلال ، هو الذي يؤدي ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، إلى تصديع الوحدة القومية ، وتعطيل انطلاق الأمة .

ويعمد الاستعمار أحياناً إلى تفريق الاندفاعة القومية وإلى تشتيتها . فـــلا يثير المشايخ وزعماء القبائل على « ثوريي » المـدن ، وإنما يشكل من الجماعات الدينية والقبائل أحزابـــاً . وهكذا تنشأ ، في وجه حزب المدينة الذي أخذ يجسّد الارادة القومية ، ويهدد النظام الاستعماري ، تجمعات وتكتلات وأحزاب تقوم على أساس قبلي أو محلي . فإذا قبيلة برمتها تصبح حزباً سياسياً يمـــده الاستعماريون بالنصح والتوجيه . حتى إذا حان وقت المفاوضات حول الدائرة المستديرة ، وجدتَ الحزب الموحّد غارقـــاً في حساب القوى والتجمعات ، ورأيت الاحزاب القبلية تعارض وجود سلطة مركزية ، وتناهض الوحـــدة . وتندّد بدكتاتورية الحزب الموحّد .

وهذا الأسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد . إن سلطة الاحتلال قد اختارت واحداً من الحزبين الوطنيين أو من الأحزاب الوطنية الثلاثة التي قامت بحركة التحرير . وأشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة : إذا فاز أحد الأحزاب بالاجماع الوطني وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد ، قـام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات إلى أقصى حد ، مستعملاً هذا التأخير في تفتيت مطالب هذا الحزب ، أو في الفوز من قيادته بإبعاد بعض العناصر « المتطرفة » . أما إذا لم يستطع أي حزب من الأحزاب أن يفرض نفسه حقاً ، اكتفى المحتـل بتفضيل الحزب الذي يبـدو له أكثر « تعقلاً واعتدالاً » من غيره . وعندئذ نرى الأحزاب الوطنية التي لم تشترك في المفاوضات تـأخذ باستنكار الاتفاق الذي تم بين المحتـــل والحزب الآخر . ويشعر الحزب الذي تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التي يقفهـا خصمه ، فيحاول أن يشتت الحزب المعارض ، ويتهمه بأنه غير شرعي . فلا يسع الحزب المعارض إلا أن يعتصم بأطراف المدن وبالأرياف ، محاولاً أن يؤلب الجماهير الريفية على « أهل الساحل الذين باعوا أنفسهم » ، على « سكان العاصمة الفاسدين المتفسخـين » .

ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع إلا ويستعملها، فهو يهاجم خصمه بحجج دينية ، وهو يتهمه بالخروج على التقاليد فيما يجنح إليه من اتجاهات تجديدية ، مستغلاً جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الأرياف من انفعالية وعفوية . وتسري الشائعات هامسة هنا وهناك . الجبل قد ثار ، الأرياف مستاءة حانقة ، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحين ، هبت الحكومة ترسل الامدادات والنجدات ، النظام كله أوشك أن ينهار . وهكذا فإن أحزاب المعارضة ، التي ليس لها برنامج واضح ، وليس لها هدف إلا ان تحل محل الفئة الحاكمة ، تضع مصيرها بين أيدي الجماهير الريفية العفوية الجاهلية .

وقد يحدث عكس هذا ، فما تعتمد المعارضة على الجماهير الريفية ، وانما تعتمد على العناصر التقدمية ، على النقابات في الأمة الفتية . وعندئذ تستعين الحكومة بالجماهير لمقاومة مطالب العمال ، قائلة إنها مناورات أناس مغامرين خارجين على التقاليد .

ان الحقائق التي أتيح لنا أن نلاحظها على صعيد الأحزاب السياسية تُلاحَظ هي نفسها على صعيد النقابات . ففي أول الأمر تكون التشكيلات النقابية في الأراضي المستعمَرة فروعاً محلية لنقابات البلاد المستعمِرة ، وتكون شعارات هذه النقابات أصداء لشعارات نقابات البلد المستعمِر .

حتى أذا توضحت المرحلة الحاسمة من الكفاح الوطني ، قرر عدد من النقابيين الوطنيين إنشاء نقابات وطنية ، وانسحب الوطنيون جماعات ووحداناً من المنظمة القديمة المستوردة من الخارج ، وأصبحت المنظمة النقابية الجديدة عنصراً جديداً من عناصر الضغط على الاستعمار لدى سكان المدن . لقد سبق أن قلنا ان البروليتاريا في المستعمَرات هي بروليتاريا ناشئة ، وهي من الشعب فئة محظوظة أكثر من سائر فئاته . وتنظم النقابات التي تنشأ أثناء الكفاح صفوفَها في المدن ، وترسم لنفسها برنامجاً سياسياً ، وطنياً في الدرجة الأولى . وما النقابة الوطنية التي تنشأ في إبان المرحلة الحاسمة من الكفاح في سبيل الاستقلال، ما هي

في واقع الأمر إلا تجنيد للعناصر الوطنية الواعية النشيطة .

ولكن الجماهير الريفية التي تزدريها الأحزاب السياسية ، تظل مبعدة . ولئن أمكن ان تتكون نقابة للعمال الزراعيين ، فإن هذه المنظمة لا تزيد على أن تلبي تلك الحاجة الشكلية ، أعني « تكوين جبهة متحدة ضد الاستعمار » . أما المسئولون النقابيون الذين تسلحوا بخبرتهم في إطار التشكيلات النقابية التابعة للبلاد المستعمِرة ، فإنهم لا يعرفون كيف ينظمون الجماهير الريفية . لقد فقدوا كل اتصال بطبقة الفلاحين ، فهم لا يعنون في الدرجة الأولى إلا بتنظيم عمال مصانع الفولاذ، وعمال الموانىء، وموظفي شركات الغاز والكهرباء وما إلى ذلك.

ولهذه التشكيلات النقابية قوة ضاربة مدهشة في عهد الاستعمار . إن هذه النقابات تستطيع في المدن ان تجمّد الاقتصاد الاستعماري في كل لحظة ، أو ان تعرقله على أقل تقدير . ولما كان الأوروبيون يقطنون في المدن غالباً ، فإن تأثير هذه المظاهرات في نفوسهم تأثير كبير ، فتراهم يصيحون : لا غاز ، لا كهرباء ، القمامة لم تُجمع ، البضائع تفسد على أرصفة الميناء ...

إن المدن ، وهي أشبه بجزر أوروبية ، تشعر في عهد الاستعمار شعوراً قوياً بأثر العمل النقابي . والعاصمة التي هي قلعة الاستعمار لا تستطيع أن تتحمل هذه الضربات . أما «الداخل» (الجماهير الريفية) فإنها تظل غريبة عن هذا الكفاح .

هكذا نرى أنه ليس ثمة تناسب بين عمل النقابات وعمل سائر طوائف الأمة من الناحية القومية . حتى إذا تحقق الاستقلال رأينا العمال المنخرطين في النقابات يشعرون بأنهم لا يقومون بعمل ذي بال ، وانهم يدورون على فراغ . فالهدف المحدود الذي رسموه لأنفسهم قد ظهر ، منذ تحقق ، أنه ليس له كبير شأن إذا قيس باتساع مهمة البناء القومي . ويكتشف القادة النقابيون ، إزاء البورجوازية الوطنية التي تكون علاقاتها بالسلطة وثيقة جداً في كثير من الأحيان ، أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يحصروا نشاطهم في نطاق العمل العمالي . ولأنهم معزولون بطبيعة الحال عن الجماهير الريفية ، ولا يستطيعون أن ينشروا شعاراتهم فيما وراء ضواحي المدن ، تراهم يتبنون مواقف ما تنفك تصبح سياسية

أكثر فأكثر . والواقع أن النقابات مرشحة السلطة ، فها هي ذي تحاول بجميع الوسائل أن تحرج البورجوازية : تحتج على بقـــاء القواعد الأجنبية في البلاد ، تستنكر الاتفاقات التجارية ، تهاجم السياسة الخارجية التي تتبعهـا الحكومة الوطنية . إن العمال يدورون على فراغ بعد أن فازوا « بالاستقلال » . وتدرك النقابات غداة الاستقلال أنهـــا لو أعلنت مطالبيها لكان ذلك فضيحة في نظر سائر فئات الأمة . ذلك أن العمال هم في الواقع فئة تنعم بخيرات العهد أكثر من سائر الفئات . إنهم هم الفئة التي تعيش في بحبوحة أكثر من سائر الفئات ، فلو قاموا بحركة تهدف إلى الحصول على تحسين ظروف المعيشة للشغيلة وعمال الموانىء لأسخطوا الشعب ، بل ولأثاروا عداوة الجماهير المحرومة في الارياف . وهكذا نرى النقابات ، وقد حرمت من العمل في سبيل الحصول على مزيد من الحقوق للعمال ، وقد أصبحت تتحرك وهي مكانها لا تبرحه .

وليس هذا الوضع الحرج إلا دليلاً على أن ثمة حاجـــة موضوعية إلى برنامج اجتماعي يتناول أخيراً جميـع فئات الشعب . إن النقابات تكتشف فجـأة أن مؤخرة البلاد يجب أن تنوّر وأن تنظّم هي أيضاً . ولكنها ، لأنها لم تهتم يوماً بإقامة جسور بينها وبين جماهير الفلاحين ، لأن هذه الجماهـير هي بعينها القوى الوحيدة ، الثورية من تلقاء ذاتها ، ما تلبث أن تبرهن على عجزها ، وما تلبث ان تكتشف أن برنامجها قد فات أوانه .

والقادة النقابيون ، الغارقون في بحر الاضطراب السياسي العمالي ، لا بـــد أن ينتهوا من ذلك أخيراً إلى الاعداد لانقلاب . ولكن « الداخل » يكون مستبعداً من هذا الاعداد للانقلاب أيضاً ، فالقضية محصورة بين البورجوازية الوطنية والعمالية النقابية . وتعمد البورجوازية إلى الأساليب القديمة الـتي كان يستعملها الاستعمار ، فتعرض قواتها العسكرية والبوليسية ، بينما تمضي النقابات تعقد الاجتماعات وتعبىء عشرات الألوف من أعضائها . ولا يزيـد الفلاحون ، إزاء هذه البورجوازية الوطنية وهؤلاء العمال الذين يأكلون بينما الفلاحـون جياع ، لا يزيـد الفلاحون إزاء هؤلاء وأولئك على أن ينظروا وهم يرفعون

أكتافهم غير مكترثين . انهم يرفعون أكتافهم لادراكهم ان هؤلاء وأولئك جميعاً لا ينظرون اليهم إلا نظراتهم إلى تكأة يتكأ عليها،فالنقابات والعمال والحكومة إنما يستغلون جماهير الفلاحين استغلالاً ميكافيلياً لا أخلاقياً ، استغلالهم لقوة عاطلة عمياء يحسن الانتفاع بها في المناروات .

ويحدث في بعض الظروف عكس ذلك ، فترى جماهير الفلاحين تتدخل تدخلاً حاسماً في نضال التحرير الوطني ، وفي تعيين المستقبل الذي تختاره الأمة في آن واحد . ولهذه الظاهرة أهمية أساسية في البلدان المتخلفة ، لذلك نريد ان ندرسها الآن بشيء من التفصيل .

لقد سبق أن رأينا ان في الأحزاب الوطنية إرادتين متجاورتين : أولاهما إرادة تحطيم الاستعمار ، والثانية إرادة التفاهم معه بالحسنى . ويحدث في داخل هذه الأحزاب أحياناً أمران . الأول هو عناصر مثقفة جهدت في تحليل الواقع الاستعماري والوضع الاستعماري تحليلاً دائباً ، تشرع في انتقاد الفراغ العقائدي التي تلاحظه في الحزب ، وتشرع في انتقاد ما تراه في هذا الحزب من فقر في أسلوب العمل وخطة النضال ، وتأخذ تطرح على القادة في غير كلال ولا ملال أسئلة أساسية كهذه الأسئلة : « ما هي القومية ؟ ما الذي تعنونه من هذه الكلمة ؟ ما مضمون هذه اللفظة ؟ لماذا تريدون الاستقلال ؟ بل أولاً ما هي الوسيلة التي تتصورون أنكم واصلون بها إلى الاستقلال ؟ » ويأخذون يطالبونهم في الوقت نفسه بأن يعالجوا قضية خطة العمل معالجة دقيقة صارمة ، ويقترحون على هؤلاء القادة أن يضيفوا إلى الوسائل الانتخابية « جميع الوسائل الأخرى». ولا يزيد القادة في أول هذه المجادلات على ان يتملصوا من هذا الغليان بقولهم : إنه حماسة شبان مراهقين ، ولكن لما كانت هذه المطالب لا تعبر عن غليان ولا عن حماسة شباب مراهقين ، فإن العناصر الثورية التي تدافع عن هذه المواقع ما تلبث ان تُعزل ، فالقادة المتدثرون بتجربتهم ما يلبثوا ان يَنبذوا ، في غير رحمة « هؤلاء المغامرين ، هؤلاء الفوضويين » .

ان آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد . وتجد الأقلية الثورية نفسَها

وحيدة أمام تلك القيادة المذعورة التي يقلقها أن تتصور انجرافها في إعصار لا تعرف وجهه ولا قوته ولا جهته .

وأما الأمر الآخر الذي يحدث فيتصل بالقادة الموجهين أو القادة الثانويين الذين تعرضوا بسبب نشاطهم ، للتعذيب البوليسي الاستعماري . ومن المهم أن نذكر هنا أن هؤلاء الرجال قد وصلوا إلى مراكز القيادة في الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد ، وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية ، وما يمتازون به من روح وطنية صادقة مثلى . وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة إنما هم في أكثر الأحيان عمال صغار أو شغيلة موسميون أو شبان عاطلون عن العمل . والانضمام إلى حزب وطني لا يعني عندهم أن يعملوا في السياسة ، وإنما يعني أنهم يختارون الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية إلى الحالة الانسانية . ان هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية ، يظهرون في الأعمال التي يعهد بها اليهم مبادهة وشجاعة وحساً نضالياً ، فسرعان ما تكتشفهم قوى القمع الاستعمارية ، فتعتقلهم ، وتحكم عليهم ، وتعذبهم ، ثم يخرجون على السجن ، ولكنهم يكونون في أثناء اعتقالهم قد محّصوا أفكارهم وشحذوا عزائمهم . انهم حين يضربون عن الطعام ، وحين يتضامنون في أعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة في السجن ، يتصورون إطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من أجل الشروع في الكفاح المسلح . وفي ذلك الوقت نفسه ، خارج السجن، يكون الاستعمار الذي أصبح يهاَجم في كل مكان ، أخذ يقدم عروضاً للمعتدلين من الوطنيين .

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية ، في صفوف الحزب ويشعر أصحاب الاتجاه الثاني أنهم أصبحوا أناساً غير مرغوب فيهم . فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم . ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة ، فهم يشعرون أنهم أصبحوا أجانب عن الحزب . وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنوات أن يعجبوا بمواقفهم،فيخرج من

هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي . ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التي أصبح لا يمكن استردادها ، تزداد بازدياد تقارب الحزب الشرعي من الاستعمار أملاً في تبديله « من داخل » فإذا بفريق اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي .

فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون ، أول الأمر ، في الضواحي المحيطة بالمدن . ولكن شبكة الشرطة تكتشف أمرهم . فيضطرون أخيراً إلى ترك المدن نهائياً ، وإلى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي ، ماضين إلى الأرياف ، الى الجبال ، إلى جماهير الفلاحين . والفلاحون ، في مرحلة أولى يحتضنونهم فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة . والمناضل الوطني الذي يقرر ان يهجر لعبة التخفي التي كان يلعبها مع الشرطة ، وأن يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين ، لا يخسر أبداً. ان الفلاحين يغطونه كمعطف ، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال . وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفياً،وانقطعوا عن بيئة المدن التي أنضجوا فيها أفكارهم عن الأمة وعن النضال السياسي ، قد أصبحوا الآن ثواراً حقاً . إنهم ، وهم مضطرون إلى التنقل بغير انقطاع تحاشياً لرجال الشرطة ، وإلى السير ليلاً حتى لا يلفتوا النظر ، يطوفون الآن في البلاد ويعرفونها . وداعاً زمان المقاهي ، وداعاً زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة ! ان آذانهم تسمع الآن صوت الشعب ، صوته الحق ، وان أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب ، بؤسه الكبير الذي لا نهاية له . ويدركون أنهم أضاعوا وقتاً ثميناً في تعليقات على النظام الاستعماري لا طائل فيها ولا نفع منها . ويفهمون ان التبديل لن يكون إصلاحاً،ولن يكون تحسيناً. ويفهمون، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم،ان التحرك السياسي في المدن سيظل عاجزاً عن تغيير النظام الاستعماري ، عن قلب النظام الاستعماري .

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين . ويكتشفون ان الجماهير الريفية لم تنقطع يوماً عن الاعتقاد بأن تحررها لا يتم إلا بالعنف ، وبأن القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب ، هي قضية كفاح وطني ، هي قضية ثورة

مسلحة . الأمر بسيط واضح. يكتشف هؤلاء الرجال شعباً متجانساً منسجماً، ان كان يعيش حياة ساكنة جامدة ، فانه ما يزال محافظاً على قيمه الاخلاقية وعلى ارتباطه بالأمة ؛ يكتشفون شعباً كريماً سخياً ، مستعداً للتضحية ، راغباً في العطاء ، نافذ الصبر ، قويّ الشمم والاباء . وواضح ان اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفزة ، يمكن أن يؤدي إلى مزيج متفجّر ذي قوة لا عهد بمثلها من قبل . فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب ، وفي الوقت نفسه يفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها الشعب السياسية والحرب . ويأخذ الشعب يشحذ أسلحته . فالدروس في المدرسة لا تطول ، وما تلبث الجماهير التي تسترد اتصالها بعضلاتها ، أن تحمل القادة على اقتحام الأمور . وينطلق الكفاح المسلح .

وتحار الأحزاب السياسية تجاه الثورة . ذلك أن عقيدتها قد أكدت دائماً أنه لا جدوى من اللجوء إلى القوة ، بل ان وجودها نفسه إنما هو نفي دائم لقيام أية ثورة مسلحة . حتى أن بعض الأحزاب السياسية تشارك المستعمِرين تفاؤلهم سراً ، وتهنىء نفسها بأنها في خارج هذا الجنون التي سيُقمع بإسالة الدماء . ولكن النار التي اشتعلت ما تلبث أن تسري إلى مجموع البلاد سريان وباء سريع . وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذي كان يُقدر لها . ويرى الاستعمار استفحال الداء ، فيأخذ يفكر . حتى أن أصواتاً في صفوف المضطهِدين تأخذ تلفت النظر إلى خطورة الوضع .

أما الشعب في أكواخه وفي أحلامه فإنه يتجاوب مع الحركة الوطنية الجديدة . ويأخذ ينشد للمقاتلين المظفّرين ، بصوت خافت ، في قرارة قلبه ، أناشيد لا تنتهي . لقد اجتاحت الثورة الأمة ، والأحزاب هي التي أصبحت الآن معزولة .

غير أن قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا في ذات يوم أن على الثورة أن تمتد إلى المدن أيضاً . إنهم ما يلبثون ان يعوا هذه الحقيقة . وليس وعيهم هذا أمراً عرضياً ، بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذي يخضع له تطور الثورة المسلحة

في سبيل التحرير الوطني . ذلك أن الاستعمار ، رغم أن الأرياف هي الينابيع التي لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية ، ورغم أن جماعات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب في الأرياف ، يظل واثقاً بقوته ، مطمئناً إلى أنه غير معرض للخطر . لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب الى مواقع العدو ، إلى المدن الهادئة الباذخة .

ونقل الثورة إلى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة . لقد رأينا أن أكثر القادة قد ولدوا أو شبّوا وترعرعوا في المدن ، ثم فرّوا من بيئتهم تلك تحاشياً لمطاردات الشرطة الاستعمارية ، ولأن القيادات المتعقلة المعتدلة في الأحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام ، فانسحابهم إلى الأرياف كان هرباً من أعمال القمع من جهة ، وكان من جهة أخرى يأساً من التشكيلات السياسية القديمة . والأشخاص الذين يمكنهم أن يتصلوا بهم في المدن إنما هم الوطنيون المعروفون في الأحزاب السياسيه . ولكننا رأينا أن هؤلاء الثوار قد انشقوا عن أولئك القادة الخائفين الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم في الكلام على مساوىء الإستعمار . ثم ان المحاولات الأولى التي يقوم بها رجال الثورة مع أصدقائهم القدامى هؤلاء ، وخاصة مع الذين يعدونهم أكثرهم تطرفاً ، تأتي مصدّقة لمخاوفهم ، وتجعلهم ، يكرهون حتى رؤية هؤلاء الأصدقاء القدامى . والواقع أن الثورة التي انطلقت في الأرياف ستدخل المدن عن طريق ذلك الجزء الذي لم يستطع حتى الآن ان يجد في عهد الاستعمار عظمة يقضمها . إن الرجال الذين أجبرهم تزايد السكان ، وأجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار على ترك أرض آبائهم وأجدادهم ، يأخذون يدورون حول المدن في غير كلال ولا ملال ، آملين أن يسمح لهم في يوم من الأيام بدخولها . فبين هذه الجماهير ، بين هذا الشعب الذي يسكن أكواخ القصدير ، بين هؤلاء الفعلة الكادحين ، إنما تجد الثورة حربتها في المدن . إن هؤلاء الفعلة الكادحين ، ان هذه الجموع الساغبة التي فصلت عن قبائلها وعشائرها ، هي بين القوى الثورية في الشعب المستعمَر من أكثرها عفوية وجذرية .

في السنوات التي أعقبت ثورة الماو مـــاو في كينيا ، رأينـا السلطات الاستعمارية البريطانية تضاعف إجراءات الإرهاب ضد هـذه الفئات الدنيا من الكادحين . ورأينا قوى الشرطة وقوى البعثات التبشيرية تنسق جهودهـا في عـــامي ١٦٥٠ و ١٩٥١ من أجـل وقف تدفق الشباب الكيني من الارياف والغابات ، وانغماسه في السرقة والفساد والإدمان وغير ذلك ، بعد أن يعجز عن إيجاد عمل . إن جنوح الشباب في البلاد المستعمَرة إنما هو ثمرة مباشرة لوجود هذه الطبقةالبائسة من صغار الكادحين . ومثل ذلك جرى في الكونغو ، إذ اتخذت إجراءات قوية ، منذ عام ١٩٥٧ ، من أجل ان يعاد إلى الارياف أولئك « الشبان الأوغاد » الذين يعكرون صفو النظام والأمن ، حتى لقد أنشئت معسكرات خاصة لإيوائهم وعهـد بهم إلى البعثات التبشيرية ، تحت حماية الجيش البلجكي طبعاً .

إن نشوء هذه الطبقة البائسة من الكادحين ظاهرة تخضع لمنطق خاص ، فلا الجهود الطافحة التي تبذلها البعثات التبشيرية ، ولا القرارات الكثيرة التي تصدرها الحكومة المركزية بقادرة على وقف نمو هذه الظاهرة . فهذه الطبقة من الناس أشبه بجموع الفئران التي تستمر على قضم جذور الشجرة ، رغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة .

إن أكواخ القصدير التي تتجمع حول المدن تعبّر عن عزم المستعمَر على أن يغزو قلعة العدو ، مهما يكن ثمن ذلك ، ومهما تكن المسارب الخفية التي يجب أن يعمد إليها لتحقيق هذا الهدف . ان نشوء هذه الطبقة الشقية التي تجثم على صدر المدينة ، وتعكر صفو « الأمن » فيها ، إنما يعني أن السيطرة الاستعماريةقد أخذ السوس ينخر فيها ، وان داءً قاتلاً قد أخذ ينتشر في جسمها . وها هم أولاء القوادون والأوباش والعاطلون والمجرمون الذي يطاردهم الحق العـام ، ينخرطون في كفاح التحرير مقـاتلين أقوياء الشكيمة ، ان هؤلاء العاطلين المنبوذين يجدون بالعمل النضالى الحاسم طريقهم إلى الاندماج في مجموع الأمة . ان هؤلاء الناس لا يُردّ اعتبارهم إليهم في نظر المجتمع الاستعماري وفي نظر الأخلاق

التي ينادي بها المستعمِر. ذلك أنهم ، على خلاف ذلك ، إنما يسلكون إلى دخول المجتمع طريق القنبلة والمسدس . ولكن بذلك يستردون اعتبارهم في نظر أنفسهم وفي نظر التاريخ . حتى المومسات ، والخادمات بألفي فرنك ، واليائسات ، وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار ، يستردون إذ ذاك توازنهم ، ويأخذون يسيرون ، ويشاركون مشاركة حاسمة في موكب الأمة التي استيقظت .

ان الأحزاب السياسية لا تفهم هذه الظاهرة التي تعجّل تفككها . ان ظهور الثورة في المدن على حين غرة يبدل ملامح الكفاح . لقد كانت الجيوش الاستعمارية متجهة كلها إلى الأرياف ، وها هي ذي الآن تقفل راجعة إلى المدن على جناح السرعة لتكفل الأمن للأرواح والأرزاق . وها هي ذي تبعثر قواها يمنة ويسرة في القيام بأعمال القمع . إن الخطر ماثل في كل مكان . أرض الوطن كلها ثائرة ، الشعب في المستعمرة قد انتفض بأسره . وتشهد جماعات الفلاحين المسلحين انفراج الحصار عنها . ان انطلاق الثورة في المدن يتيح لها أن تتنفس .

وحين يرى قادة الثورة ان الشعب الذي عصفت به نار الحماسة قد أخذ يكيل للآلة الاستعمارية ضربات حاسمة ، فان شكهم في جدوى السياسة التقليدية يزداد ويقوى ويصبح كل انتصار جديد دليلاً لهم على أنهم كانوا على حق في عداوتهم لتلك السياسة العقيمة التي يطلقون عليها الآن أسماء جديدة : سياسة الثرثرة الفارغة واللفظية السقيمة والتهويش العقيم . ويشعرون نحو « السياسة » والديماغوجية بكره شديد . لذلك نرى تقديس العفوية ينتصر في أول الأمر .

وتأتي الانتفاضات الكثيرة التي تولد في الأرياف ، فتؤكد حيثما تتفجر ان الأمة حاضرة في كل مكان ، وان حضورها حضور قومي كثيف . لقد أصبح كل مستعمَر مسلح جزءاً من هذه الأمة التي انبعثت فيها الحياة . ان هذه الانتفاضات تهدد النظام الاستعماري ، وتحمله على تعبئة قواه وبعثرتها ، وتوشك في كل لحظة ان تخنق هذه القوى وأن تقطع أنفاسها . وعقيدتها عقيدة بسيطة :

إجعلوا الأمة موجودة . وليس ثمة برنامج ولا خطب ولا قرارات ولا اتجاهات . المشكلة واضحة : يجب أن يرحل الأجانب . علينا أن نؤلف جبهة واحدة مشتركة ضد المستعمِر المضطهِد ، ويجب أن نعزز هذه الجبهة بالكفاح المسلح .

وما ظل القلق يهز الاستعمار ، فان القضية الوطنية تتقدم إلى أمام ، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الأمة . ان حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم ، وهي تتناول مجموع البلاد منذ الآن . والعفوية هي المسيطرة في هذه المرحلة والمبادهة مبادهة محلية . ففي كل منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغّرة تستلم زمام الأمر . ونرى سلطة وطنية في كل مكان ، في الوديان والغابات، في الأدغال والقرى . ان كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة، ويعمل على أن يكفل لها النصر في المنطقة التي هو فيها . وهكذا نشهد قيام استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذري . ان هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التي تتشكل تشكلاً عفوياً إنما هو تحرير المنطقة التي هي فيها . ذلك هو هدفها ، وذلك هو برنامجها . ما دامت الأمة موجودة في كل مكان ، فهي موجودة هنا أيضاً . وتتحد الاسلوب الخطة والاستراتيجية الحربيه ، بل يستحيل فن السياسة إلى فن حرب . فالمناضل السياسي إنما هو المقاتل الحربي . والحرب والسياسة شيء واحد .

ان هذا الشعب المحروم الذي اعتاد أن يعيش محصوراً في نطاق الصراعات والخصومات، يعمل الآن في جو رائع من تطهر الأمة في المنطقة التي هو فيها. انه يشعر بنشوة جماعية ، فإذا الاسر المتعادية تقرر ان تمحو كل شيء، ان تنسى كل شيء . والأحقاد الراسخة المدفونة تخرج الآن إلى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان إلى أنها تستأصل . إن تحمل مسئولية الأمة بأسرها يقوّي الوعي . فوحدة الأمة إنما هي وحدة الجماعة قبل كل شيء ، انها إزالة الخصومات القديمة وتصفية التردد . وفي الوقت نفسه يشمل التطهر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد بأعمالهم وبتواطؤهم مع المحتل الغاصب . اما الخونة والاشخاص الذين باعوا أنفسهم فانهم يحاكمون وينالون العقاب الذي يستحقونه .

ان الشعب الذي يسير هـــذا السير المتواصل ويخوض غمار المعركة ، يسن الآن القوانين ، ويكتشف نفسه ، ويريد أن يحكم نفسه بنفسه ، أن يكون سيّـد مصيره . إن الشعب يستيقظ كله من السُبات الاستعماري ، ويعيش في جو رائع من الحماسة ، الجموع تتدفق في القرى تدفقاً متصلا ، السخاء والكرم لا يقفان عند حد ، الشهامة والأريحية تنطلقان انطلاقاً قوياً ، الناس يريدون صادقـــين أن يموتوا في سبيل « القضية » التي يكافحون من أجلها . وهذا كله يشبه أن يكون ديناً جديداً . ما من أحد من أهل البلاد يستطيع الآن أن لا يكترث بهـــذا الايقاع الجديد الذي يجرف الأمة جرفاً . وتوفد الوفود سريعة الى القبائـــل المجاورة . هذه أول طريقة لربط الثورة بعضها ببعض . وتحمل هذه الوفود إلى المناطق التي لم تتحرك بعد ، حركة وسرعة . وتتصالح القبائل التي كان يحمل بعضها لبعض عداء مستحكماً معروفاً ، تتصالـح وهي تشعر بالفرح وتـذرف الدموع ، متعهداً بعضها لبعض بالمساعدة والدعم . إن الناس ، في الكفـاح المسلح ، يتساندون تساند الاخوة ، كتفاً بكتف وذراعاً في ذراع ،ويكتشفون العدو الحقيقي . وتتسع دائرة الامة ، وتشرع قبائل جديدة في إقامة كمائن ، داخلة بذلك في المعركة . وتعد كل قرية نفسها معسكراً من معسكرات القتال . وينعكس التضامن بين القبائل وبين القرى ، ضربات يكيلونها للعدو في كثرة ما تنفك تزداد . ويشير قيام كل فرقة جديدة من فرق المقاتلين ، وانطلاق كـل معركة جديدة من المعارك التي تشب هنا وهناك، الى أن كل واحد يضرب العدو ، الى أن كل واحد يجابه العدو .

ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح في المرحلة الثانية ، المرحلة التي يبدأ فيها العدو بشن هجومه . إن القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعـد حدوث الانفجار ، وتعيد تنظيم نفسها ، وتبدأ باستعمال طرائق في القتال تناسب طبيعة الثورة التي قامت . وهذا الهجوم الذي تشنه القوى الاستعمارية يبدل جـو الانطلاق الفرح الذي ساد المرحلة الاولى . إن العدو يشن هجومه مركزاً نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة . وسرعان ما تصبح قوى العدو أكبر من

القوة الوطنية الضاربة في نقطة معينة . ومما يفاقم الأمر أن القوة الوطنية المحلية تميل في أول الأمر إلى خوض المعركة وجهاً لوجه ، فالتفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الأولى يجعل القوة الوطنية متهورة ، ويفقدها شيئاً من الشعور بالواقع . ان الجماعة التي رسخ في اعتقادها أن منطقتها هي الأمة بأسرها ، ترفض أن ترخي الحبل ، ولا تطيق أن تقاتل متراجعة . وبذلك تسقط ضحايا كثيرة ، ويبدأ الشك بالتسرب الى النفوس . إن الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله . إنها تتصرف تصرف من يحسب أن مصير البلاد كله يتقرر هنا .

ولكن من الواضح أن هذا الاندفاع الشديد الذي تريد أن يصفي حسابه مع النظام الاستعماري فوراً ، لا بد أن يتنكر لنفسه من حيث هو مذهب يعتنق مبدأ « الفورية ». وتجيء الواقعية اليومية العملية فتحل محل اندفاعات الأمس. إن دروس الوقائع ، وضحايا التهور ، تحمل على إعادة النظر في الأمر ، وتفسير الأحداث تفسيراً جديداً شاملاً . إن غريزة البقاء وحدها تحمل على اتخاذ موقف أكثر مرونة وحركة . فهذا التبدل في أسلوب القتال قد تميزت به الأشهر الأولى من حرب تحرير الشعب الأنجولي . إنكم تتذكرون أن الفلاحين الأنجوليين قد هجموا في اليوم الخامس عشر من شهر آذار (مارس) ١٩٦١ على المواقع البرتغالية جماعات مؤلفة من ألفي شخص أو ثلاثة آلاف شخص . فالرجال والنساء والأطفال، سواء أكانوا مسلحين أم كانوا غير مسلحين ، أخذوا يزحفون كتلاً متراصة وموجات متعاقبة نحو المناطق التي يسيطر عليها المستوطن البرتغالي والجندي البرتغالي ، ويرفرف عليها علم البرتغال ، فحاصروا قرى ومطارات بل هاجموا قرى ومطارات ، ولكنكم تعرفون أن رشاشات الاستعمار حصدت ألوفاً من الأنجوليين . وما هو إلا وقت قصير حتى أدرك قادة الثورة الأنجولية أن عليهم أن يعمدوا الى طريقة أخرى إذا هم أرادوا أن يحرروا بلادهم حقاً لذلك رأينا الزعيم الأنجولي هلدان روبرتو يعيد تنظيم « الجيش الوطني الأنجولي » منذ بضعة أشهر ، مستفيداً من تجارب مختلف حروب التحرير ، مستعملاً

أساليب حرب العصابات .

ذلك أن القتال ، في حرب العصابات ، لا يتم في المكان الذي يكون فيه المقاتل ، بل في المكان الذي يذهب اليه . ان كل مقاتل في حرب العصابات إنما ينقل الوطن الى حيث تمضي قدماه العاريتان . إن جيش التحرير الوطني ليس هو الجيش الذي يعرِّض نفسه لقوى العدو مرة واحدة، بل هو الجيش الذي يمضي من قرية الى قرية ، ويختبىء في الغابات ، وتمتلىء قلوب جنوده فرحاً حين يرون في الوادي سحابة الغبار التي تثيرها أقدام العدو. القبائل في حرب التحرير تتحرك، وجماعات المقاتلين تنتقل، وتغير مواقعها في غير انقطاع. رجال الشمال يتحركون نحو الغرب ، ورجال السهل يتجهون الى الجبال. وما من موقع استراتيجي يُفضل على غيره . إن العدو يتخيل أنه يطاردنا ويلاحقنا ، ولكننا نتدبر الأمور دائماً بحيث نكون وراءه، نتعقبه ونهوي عليه في اللحظة التي يظن فيها أننا قد فنينا. نحن الذين نطارده الآن ونلاحقه . ونشعر أنه ، مع معداته وأسلحته ، يغوص في الوحل . ثم يغوص ويغوص . ونغني نحن ، ثم نغني.

وفي أثناء ذلك يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوّروا جميع المقاتلين ، أن يعلموهم ، أن يثقفوهم ، أن يبثوا فيهم عقيدة ، يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يخلقوا جيشاً ، أن يركزوا السلطة . ان علينا ان نصحح التبعثر والتشتت ، ان علينا ان نتجاوز تفتت القوى المقاتلة . وعندئذ نرى هؤلاء القادة الذين فروا من جو السياسة العقيمة الذي يسود المدن ، يعودون الى السياسة لا كأسلوب تخدير أو تضليل ، بل كوسيلة وحيدة الى تقوية الكفاح ، وإلى إعداد الشعب لقيادة البلاد قيادة واعية . إن قادة الثورة يشعرون بأن الانتفاضات ، ولو كانت رائعة ، في حاجة إلى إنكار المعركة من حيث هي انتفاضة ، ويحيلونها بذلك حرباً ثورية . إنهم يدركون ان انتصار الكفاح يقتضي أن تكون الأهداف بينة جلية ، وأن تكون أساليب العمل واضحة ، ويقتضي خاصة أن تعرف الجماهير ما في جهودها من قوة دافعة مثمرة . إن الجماهير تصمد ثلاثة أيام وربما ثلاثة شهور باستعمال الحقد المتراكم في صدورها ، ولكنك لا تستطيع ان تفوز

بالنصر في حرب تحريرية ، وان تحطم أداة العدو الرهيبة ، وان تبدل الناس، اذا انت أغفلت رفع مستوى الوعي لدى المقاتل . ليس يكفيك تأجج الحماسة، ولا عنف الشجاعة ، ولا جمال الشعارات .

ثم ان تطور حرب التحرير يتولى بنفسه تعزيزهذه القناعة لدى قادة الثورة. ذلك ان العدو يغير خطته . فهو يضيف الى سياسة القمع الوحشية في الظروف المؤاتية سياسة أخرى : يتظاهر بانفراج الأزمة ، ويقوم بمناورات لتفريق الصفوف ، ويعمد إلى « الأساليب السيكولوجية » لتضليل الناس . وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها ، حتى لينجح في ذلك أحياناً بدفع بعض الأفراد الى ارتكاب أعمال استفزازية ، مستعملاً نوعين من الناس . فأما النوع الأول فعملاؤه التقليديون من زعماء ومشايخ وسحرة ومشعوذين . ونحن نعلم ان جماهير الفلاحين التي عاشت زمناً طويلاً في جمود رتيب ، تظل تقدس الزعماء الدينيين ووجهاء الأسر العريقة ، فالقبيلة كلها تسير ، كرجل واحد ، في الطريق التي يعينها الزعيم التقليدي ، وفي وسع الاستعمار ان يكفل لنفسه مساعدة هؤلاء الرجال الموثوقين بما يغدقه عليهم من ذهب . وأما النوع الثاني فيصطاده الاستعمار من بين صفوف الطبقة الدنيا من الفعلة الأشقياء . ان بين صفوف هذه الطبقة عدداً ضخماً من العاطلين عن العمل. لذلك كان ينبغي لكل حركة تحرير وطني ان تنتبه أشد الانتباه الى هذه الطبقة . ورجال هذه الطبقة يلبون دائماً نداء الثورة ، ولكن اذا ظنت الثورة أن في وسعها ان تستغني عنهم ، فإن جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث أن تخوض غمار القتال ، وأن تشارك في الصراع ، ولكنها تقاتل عندئذ في صفوف العدو. ان العدو الذي لا يدع فرصة من الفرص لجعل الزنوج يأكل بعضهم بعضاً، سيستعمل الآن جهل أفراد هذه الطبقة البائسة وفقدان الوعي بين صفوفهم ، فإذا لم تبادر الثورة فوراً الى تنظيم هذا الاحتياطي المهيأ للعمل ، ضمهم الاستعمار الى جنوده المأجورين . إن هذه الطبقة هي التي أمدّت الاستعمار في الجزائر بأتباع مصالي الحاج . وهذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في انجولا بكشافي

الطرق الذين يتقدمون اليوم القوات المسلحة البرتغالية . وفي الكونغو نجد أفراد هذه الطبقة في المظاهرات الاقليميه بكاساي وكاتنجا ، كما وجدنا أعداء الكونغو يستعملونهم بمدينة ليوبولدفيل في تنظيم اجتماعات « عفوية » تعادي لومومبا .

ان العدو يحلل قوى الثورة ، ويعمق دراسته للخصم الذي هو الشعب المستعمَر ، فيدرك ما هنالك من فراغ ايديولوجي ، ويدرك ما هنالك من فقدان الاستقرار المعنوي في صفوف بعض طبقات السكان ، ويكتشف ان هنالك ، في مقابل الطليعة الثورية القوية المتراصة ، كتلة من الرجال يمكن دائماً أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص . لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعاً لها من أجل ذلك ثمناً كبيراً . ان الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسية تتقاطر غزيرة على الكونغو ، وفي مدغشقر تُدفع للخونة أجور طائلة ، وفي الجزائر يُضم الى القوى الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين . وخلاصة القول إن قادة الثورة يشعرون ان العدو يحاول أن يخرب الأمة . ان قبائل برمتها تنقلب على أعقابها ، ويحمِّلها العدو أسلحة حديثة ، ويوجهها إلى غزو القبائل المعادية التي يعينها لها . وهكذا فان الإجماع الذي نلاحظه في الساعات الأولى من الثورة خصباً رائعاً عظيماً ، ما يلبث ان يتعطل . وتتفتت الوحدة القومية ، وتصل الثورة الى منعطف حاسم . عندئذ تصبح التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية .

إن ذلك الاندفاع الذي كان يريد ان ينقل الشعب المستعمَر الى مستوى السيادة المطلقة دفعة واحدة ، وذلك الاعتقاد الذي كان يخامر النفوس بأن في إمكاننا أن نجر جميع أجزاء الأمة الى حركة واحدة تحت ضوء واحد ، وتلك القوة التي كان يقوم عليها هذا الأمل ، ان ذلك كله ينكشف الآن بالتجربة ضعفاً كبيراً . ان المستعمَر ، ما ظل يتخيل ان في إمكانه ان ينتقل رأساً ، بلا مراحل ، من حالة المستعمَر الى حالة المواطن الذي يملك السيادة ، وما ظل يستسلم لخداع فورية عضلاته ، لا يحقق تقدماً حقيقياً في طريق المعرفة ، بل

يظل وعيه بسيطاً ساذجاً . ان المستعمَر ينخرط في الكفاح في حرارة كما رأينا، وخاصة حين يكون هذا الكفاح مسلحاً . والفلاحون يندفعون في الثورة بحماسة عظيمة ، خاصة وانهم لم يكفوا لحظة عن الثبات على طراز من الحياة يعادي الأستعمار بطبيعته . إن الفلاحين قد حافظوا دائماً على ذاتيتهم تجاه الاستعمار بعد كثير من المخاتلة والمكر ، حتى انهم يبلغون من ذلك الى الاعتقاد بان الاستعمار لم ينتصر عليهم يوماً . ان أنفة الفلاح،وإحجامه عن النزول الى المدن ، واشمئزازه من مقاربة العالم الذي بناه الأجنبي ، وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعماري ، ان ذلك كله كان يعني دائماً انه يقابل الانقسام الذي أوجده المستعمِر بانقسام من عنده .

لا شك في أن التعصب العرقي الذي يقابل به المستعمَرُ تعصبَ المستعمِر ، وأن عزم المستعمَر على الدفاع عن جلده جواباً على اضطهاد المستعمِر ، لا شك في ان ذلك يهيب بالمستعمَر إهابة كافية الى الانخراط في الكفاح . ولكن المرء لا يصمد في حرب طويلة ، ولا يتحمل عذاباً كبيراً ، ولا يطيق أن يرى فناء أسرته كلها ، لمجرد أنه يريد أن ينتصر حقدُه وان ينتصر تعصبه العرقي . إن التعصب العرقي ، والكره ، والحقد ، و « الرغبة المشروعة في الانتقام » ، إن ذلك كله لا يمكن أن يغذي حرباً تحريرية . ان تلك البروق التي تومض في نفسي فتدفع جسمي في طرق هائجة ، وتلقيني الى تهاويل تشبه ان تكون هلوسات مرضى ، فإذا تصوُّرُ وجه العدو يجعلني في حالة دوار ، وإذا دمي يحدوني ان أسفح دمه ، وإذا موتي البطيء بالعطالة يحضني على أن احمل اليه الموت ، ان تلك البروق وهذه الحماسة الكبيرة التي تشب في النفس في الساعات الأولى ، ما تلبث أن تنحل إذا هي أرادت ان تتغذى من ذاتها.صحيح ان الجرائم المتصلة التي ترتكبها القوات الاستعمارية ما تنفك تدخل العناصر الانفعالية في الكفاح ، وما تفتأ تمد المناضل بدواعٍ جديدة الى الحقد ، وما تفتأ تزوده بأسباب جديدة تحفزه على أن يبحث عن « المستعمِر الذي يجب عليه أن يذبحه » . ولكن قادة الثورة يدركون يوماً بعد يوم أن الكره لا يمكن ان يكون برنامجاً . إنك لا

تستطيع أن تركن الى الخصم الذي يعرف دائماً كيف يتخلص من المآزق، وأن تطمئن الى أنه سيضاعف جرائمه ، فيعمق « الهوة » ويدفع بجموع الشعب دفعاً الى أحضان الثورة، وقد رأينا ان الخصم يحاول على كل حال أن يكتسب عطف بعض فئات السكان ، وبعض المناطق ، وبعض الزعماء . حتى أنه يصدر الى المستوطنين وإلى قوى الشرطة تعليمات بهذا الصدد ، فترى سلوك هؤلاء يتلطف ويصطنع شيئاً من « الروح الانسانية » ، حتى لقد يأخذون يخاطبون المستعمرين بقولهم : « سيدي وسيدتي » وما ينفكون يضاعفون التأدب والتهذب ، إلى ان يشعر المستعمِر حقاً أن ثمة تبدلاً قد حدث .

والمستعمَر الذي لم يحمل السلاح لمجرد أنه كاد يموت جوعاً ، وأنه كان يرى مجتمعه بسبيل الانحلال وإنما حمل السلاح أيضاً لأن المستوطن كان ينظر إليه نظرته إلى دابة ، ويعامله معاملة دابة ، لا بد أن يتأثر بهذه التدابير الجديدة . إن هذه الاكتشافات السيكولوجية تُضعف الكره . والأخصائيون في علم النفس وعلم الاجتماع ينيرون الطريق للمناورات الاستعمارية ، ويضاعفون دراساتهم « للعقد » : عقدة الحرمان ، عقدة القتال ، الخ .. وها هم الاستعماريون يرفعون منزلة السكان الأصليين ، محاولين أن يفلوا سلاحهم بعلم النفس، وببضع قطع من النقود أيضاً بطبيعة الحال . هذه التدابير التافهة ، هذه الاصلاحات الظاهرية ، التي لا تُبذل جزافاً مع ذلك ، وإنما تبذل بمقادير معلومة ، تتوصل الى تحقيق بعض النجاح . ذلك أن جوع المستعمَر ، جوعَه الى من يعامله معاملة إنسان ، ولو بأرخص الأثمان ، قد بلغ من القوة أن هذه الصداقات يمكن ان تؤثر في نفسه . إن شعوره قد بلغ من الضعف والكثافة أنه يهتز لأيسر بارقة . إن ظمأه الكبير الى الضوء في أول الأمر مهدد في كل لحظة بأن يغرر به وأن يُضلَّل . فإذا المطالب العنيفة الشاملة التي كانت تشق السماء شقاً تنطوي الآن على نفسها وتتواضع . إن الذئب المفترس الذي كان يريد أن يلتهم كل شيء ، والإعصار العاصف الذي كان يريد أن يحقق ثورة حقيقية ، مهددان بأن تتغير ملامحها فما يُعرفان ، إذا استمر الكفاح ، وأنه ليستمر . إن المستعمَر مهدد في

كل لحظة بأن يُسقطوا في يده بأي تنازل .

ويكتشف قادة الثورة فقدان الثبات هذا لدى المستعمَر ، يكتشفونه في رعب . ويحارون في أول الأمر ، لكنهم ما يلبثون أن يفهموا من هذه الزاوية الجديدة أن عليهم أن يشرحوا الأمور ، وأن يحملوا إلى النفوس وعياً يحررها من الانزلاق . إن الحرب تستمر ، والعدو ينظم صفوفه ، ويقوي نفسه ، ويدرك استراتيجية المستعمَر . وكفاح التحرير الوطني ليس اجتياز مسافة بوثبة واحدة. ان الملحمة تتتابع فصولها كل يوم ، والآلام التي يقاسيها المقاتلون أقوى من جميع الآلام التي قاساها الشعب في عهد الاستعمار . « يظهر أن المستوطنين قد أصبحوا في المدن غير ما كانوا بالأمس . لقد تبدلوا . لقد أصبح جماعتنا أكثر سعادة » . هذا هو الخطر . إن الأيام تتلو الأيام ، وما ينبغي للمستعمَر المنخرط في الكفاح ، ولا للشعب الذي يجب أن يستمر في مساندة الثورة ، أن يتوقفا . يجب أن لا يتوهما أن الغاية قد تحققت ، وأن الهدف قد تم الوصول إليه . يجب أن تُشرح لهم الأهداف الحقيقية التي يسعى الكفاح الى تحقيقها ، ويجب أن لا يتخيلوا أن بلوغ هذه الأهداف أمر مستحيل . نعم ، يجب أن تُشرح لهم الأمور ، يجب أن يعرف الشعب الى أين هو ماضٍ . وكيف ينبغي له أن يمضي الى حيث هو ماضٍ . ليست الحرب معركة كبيرة واحدة ، وإنما هي سلسلة من معارك محلية ليست واحدة منها فاصلة في حقيقة الأمر .

يجب إذن أن ندّخر قوانا ، أن لا نلقيها في الميزان دفعة واحدة . إن احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطيات المستعمَر . والحرب مستمرة. والعدو يدافع عن نفسه . وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غداً . لقد بدأت هذه التصفية منذ أول يوم في الواقع ، ولن تنتهي يوم لا يبقى ثمة خصم ، بل يومَ يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة أن مصلحته نفسها تقتضي أن ينهي هذا الصراع ، وأن يعترف بسيادة الشعب المستعمَر . يجب أن لا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها في الأيام الأولى. فإن لم نتنبه الى هذا تعرضنا في كل لحظة لأن نرى الشعب يتساءل عند أي تنازل يتنازله العدو : فيم نطيل هذه الحرب ؟

ذلك ان الناس قد بلغوا من تعودهم على احتقار المستعمِر لهم ، وعلى إصراره على الاستمرار في اضطهادهم مهما كلف الأمر ، انهم ما إن يلاحظوا بادرة طيبة منه ، وما ان يُظهرْ لهم شيئاً من حسن الاستعداد ، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين . ان المستعمَر يميل عندئذ الى أن يغني طرباً . فيجب إذن ان نضاعف الشرح والتوضيح ، ان نُفهم المناضل ان تنازلات الخصم مـا ينبغي ان تُضلـّه عن الحقيقة ، ان تعميه ، فهذه التنازلات ليست إلا تنازلات ، وهي لا تمسُّ جوهر الأمر ، حتى ليمكن ان يقال ، من وجهـة نظر المستعمَر ، ان كل تنازل لا يمس جوهر الأمر ما لم يتناول النظام الاستعماري في جوهره .

ان الأشكال الوحشية التي يكتسيها وجود المحتل قد تزول زوالاً تامـاً . والواقع أن زوالها هذا لا يعدو ان يكون تخفيضاً للنفقات التي ينفقها المحتـل ، ولا يعدو أن يكون إجراء إيجابياً من أجل الحيلولة دون بعثرة قواه . ولكن الشعب المستعمَر يدفع ثمن ذلك باهظاً ، يدفع ثمنه مزيداً من تحكم المستعمِر بمصير البلاد ، يجب علينا ان نذكر للشعب أمثلة تاريخية تساعده على الاقتناع بأن مهزلة التنازل هذه وبأن تطبيق مبدأ التنازل هـــذا ، قد أدّيا الى سيطرة المستعمِر سيطرة ان كانت أخفى فهي أكمل وأشمل . يجب أن يعرف الشعب وان يعرف مجموع المناضلين ذلك القانون التاريخي، وهو أن هناك تنازلات ليست في حقيقتها إلا أغلالاً . فاذا أغفلنا هذا الشرح وهذا التوضيح رأينا قادة بعض الاحزاب السياسية تتورط بسهولة في مساومات مع المستعمِر . يجب ان يقتنع المستعمَر بأن الاستعمار لا يهب له شيئاً ، وأن ما يحصل عليه المستعمَر بكفاحه السياسي أو كفاحه المسلح ليس ثمرة حسن النية أو طيب القلب لدى المستعمِر ، وإنما هو إفصاح عن عجز المستعمِر عن تأجيل التنازلات . ويجب ان يعـلم المستعمَر أيضاً أن المستعمِر ليس هو الذي يقدم هذه التنازلات، وإنما المستعمَر هو الذي يقدمها . فحين تقرر الحكومة البريطانية أن تمنح السكان الافريقيين عدداً من المقاعد الإضافية في « مجلس كينيا » فما من أحد يستطيع ان يدعي أن الحكومات البريطانية قد قامت بتنازلات ، اللهم الا أن يكون قليل الحياء

أو عديم الوعي . ان الشعب الكيني هو الذي تنازل هنا عن حقوقه . يجب على الشعوب المستعمَرة ، يجب على الشعوب التي كانت محرومة مجردة من حقوقها ، أن تتحرر من هذه الحالة النفسية التي لازمتها الى الآن . لقد يمكن عند الاقتضاء ان يقبل المستعمَر حلاً وسطاً ، ولكن ما ينبغي له أبداً أن يقبل مساومة .

هذه الشروح كلها ، وهذه التوضيحات المتصلة المتعاقبة التي تحمل الى النفوس الوعي والنور ، وهذا المسير في طريق معرفة تاريخ المجتمعات ، هذا كله لا يمكن أن يتم إلا في إطار تنظيم يتناول الشعب . وهذا التنظيم إنما يكون باستعمال العناصر الثورية التي وفدت من المدن في أول الثورة ، العناصر التي التحقت بالأرياف أثناء تطور الكفاح. ولكن الفلاحين الذين ينضجون معارفهم من اتصالهم بالتجربة ، يبرهنون أنهم قادرون هم ايضاً على قيادات الكفاح الشعبي ، فالمؤسسات التقليدية تقوى وتعمق ، حتى لقد تتبدل تبدلاً حقيقياً : مجالس « الجماعة » التي تفض الخلافات وتفصل في المنازعات، ومجالس القرى ، تستحيل الى مجالس ثورية ولجان سياسية حربية ، ويظهر في كل جماعة من جماعات المقاتلين ، وفي كل قرية من القرى ، رجال يتولون التوجيه السياسي ، ويأخذ هؤلاء الرجال بتنوير الشعب الذي بدأ يشعر من عزلته بحيرة ، ولا يحجم هؤلاء الرجال عن معالجة المشكلات التي يؤدي السكوت عنها الى مزيد من الحيرة والبلبلة . من ذلك مثلاً ان المناضل الذي حمل السلاح يُحنقه ان يرى كثيراً من أبناء وطنه ما يزالون يتابعون حياتهم في المدن كأنهم غرباء عما يحدث في الجبال، كأنهم يجهلون هذه الحركة الجوهرية التي انطلقت. إن صمت المدن ، واستمرار الحياة فيها على منوالها المألوف ، يولد في نفس الفلاح شعوراً مرّاً بأن قسماً بكامله من الأمة يكتفي بمشاهدة المعركة ولا يزيد على عدد الضربات . وهذا يثير الحنق والغيظ في نفوس الفلاحين ، ويعزز ميلهم الي احتقار سكان المدن ، وإلى الحكم عليهم بالسوء جميعاً . فعلى الموجّه السياسي في هذه الحالة أن يجعل الفلاحين قادرين على تمييز الأمور تمييزاً أدق ، فيُفهمهم أن هناك أجزاء من الشعب لها مصالح خاصة لا تتفق اتفاقاً كاملاً دائماً مع المصلحة الوطنية ، ويدرك الشعب

عندئذ أن الاستقلال الوطني يبرز وقائع كثيرة هي في بعض الأحيان متباعدة بل ومتعارضة . والشرح في هذه اللحظة بعينها من لحظات الكفاح ، أمر حاسم، لأنه ينقل الشعب من أفق الوطنية العامة الغامضة الى أفق الوعي الاجتماعي والاقتصادي . ان الشعب الذي تبنى في بداية الكفاح تلك الثنائية الأولى التي أوجدها المستوطن الأجنبي : البيض والسود ، العرب والأروام ، يدرك الآن في أثناء النضال أنه يتفق لسودٍ أن يكونوا اكثر بياضاً من البيض ، وأن هناك فئات من السكان لا يحملها إمكان ارتفاع راية وطنية وإمكان قيام أمة مستقلة على التنازل عن امتيازاتها وعن مصالحها . ويدرك الشعب أن هناك أناساً من بني وطنه لا يتمسكون بمصالحهم فحسب ، بل ينتهزون كذلك فرصة الحرب لتعزيز وضعهم المالي وقوتهم الناشئة . إن هناك أناساً من السكان الأصليين يتاجرون ويحققون أرباحاً طائلة من قيام هذه الحرب ، على حساب الشعب الذي يضحي بنفسه دائماً ، ويروّي بدمه تراب الوطن . إن المناضل الذي يجابه بوسائله البدائية آلة الحرب الاستعمارية يكتشف أنه بقضائه على الاضطهاد الاستعماري يساهم في خلق جهاز استغلالي آخر . وهو اكتشاف مؤلم شاق مثير . لقد كان الأمر بسيطاً في البداية : كان هناك في نظره أشرار من جهه ، وطيبون من جهة أخرى . أما الآن فقد حل محل الوضوح الخيالي اللاواقعي الأول ظلام يجزىء الشعور . ان الشعب يكتشف أن الاستغلال الظالم يمكن ان يكون زنجياً أو عربياً . وهو ينددّ عندئذ بالخيانة ، ولكن يجب أن نصحح هذا التنديد . فالخيانة ههنا ليست وطنية بل اجتماعية ، ينبغي لنا ان نعلّم الشعب أن ينددّ باللصوص . والشعب في مسيره الشاق الى المعرفة العقلية ، يترك أيضاً تلك النظرة التبسيطية التي كان يتميز بها إدراكه للمتسلّط . إن النوع يتجزأ الآن أمام بصره . إنه يلاحظ من حوله مستوطنين لا يشاركون في تلك الهستريا الإجرامية ، ويختلفون عن سائر أبناء جلدتهم . إن بين هؤلاء المستوطنين الذين كان يعدهم كتلة واحدة تمثل التسلط الأجنبي بغير تمييز أناساً يستنكرون الحرب الاستعمارية ، بل أعجب من ذلك أن افراداً من هذا النوع ينتقلون الى المعسكر

الآخر ، ويجعلون أنفسهم زنوجاً أو عرباً ويرتضون تحمل الآلام والتعذيب والموت .

هذه الأمثلة تضعف الحقد العام الذي كان المستعمَر يشعر به نحو جميع الأجانب . حتى لقد يحيط ذلك العددَ القليل من الأشخاص بعاطفة حارة ، ويميل بنوع من المزايدة العاطفية ، الى ان يمحضهم ثقة مطلقة . إن في عاصمة البلاد المستعمِرة ، التي ينظر اليها المستعمَر نظرته الى جلاد لا يرحم ، أصواتاً كثيرة ، شهيرة في بعض الأحيان ، تستنكر بغير تحفظ سياسةَ الحرب التي تتبعها الحكومة الاستعمارية ، وينصحون هذه الحكومة بأن تثوب الى رشدها ، وأن تحسب أخيراً حساب الارادة القومية للشعب المستعمَر . بل إن جنوداً من جنود الاستعمار يفرون من بين صفوفه ، كما أن جنوداً آخرين يرفضون صراحة ان يقاتلوا ضد حرية الشعب ، فيذهبون الى السجون ، ويتحملون العذاب باسم حق هذا الشعب في الاستقلال وفي إدارة شئونه بنفسه .

وعندئذ لا يكون المستوطن رجلاً يجب ذبحه ، وكفى ان افراد الكتلة الاستعمارية يظهرون أقربَ الى الكفاح الوطني ، أقرب كثيراً الى الكفاح الوطني من بعض أبناء الأمة . وبذلك يصبح التفريق العنصري والتعصب العنصري متجاوزاً في الاتجاهين . فلا كل زنجي وكل مسلم يستحق شهادة صدق ، ولا كل مستوطن يُستقبل بتناول البندقية أو السيف . هكذا الوعي يطل بكثير من الجهد والمشقة على حقائق جزئية محدودة غير ثابتة . وذلك كله صعب كما تقدرون . وإنما يُسهِّل مهمةَ ترشيد الشعب ان يكون التنظيم قوياً صارماً وأن يكون المستوى العقائدي لدى قادة هذا التنظيم عالياً . وعلو المستوى العقائدي إنما يتحقق ويتعزز خلال اتساع النضال ومناورات الخصم وخلال الانتصارات والهزائم . والقيادة تكشف عن قوتها وسلطتها بفضح الأخطاء وبالاستفادة من كل تقهقر في الوعي لاستخلاص الدرس ولتوفير شروط جديدة من أجل التقدم. فهي تستثمر كل نكوص محلي من أجل إعادة النظر في القضية على مستوى جميع القرى وجميع الشبكات . ان الثورة تبرهن لنفسها على أنها عقلية ، وتعبر عن

نضجها كلما استفادت من حالة من الحالات في تعميق وعي الشعب . وقيادة الثورة ، ولو كان ما يحيط بها يوهم أحياناً بأن الاهتمام بالفروق الطفيفة خطر ، وبأنه يحدث صدوعاً في كتلة الشعب ، تظل ثابتة على مبادىء الكفاح الوطني والكفاح العام الذي يخوضه الانسان لتحقيق تحرره . صحيح أن هناك وحشية تحتقر الفروق الطفيفة والحالات الفردية ، وحشية ثورية حقاً ، غير ان هناك وحشية أخرى تشبهها شبهاً كبيراً وليست من الروح الثورية في شيء ، بل هي منافية للثورية ، مغامرة فوضوية . فإذا لم تُحارب هذه الوحشية الصرفة الكلية فوراً ، أدت حتماً الى إخفاق الحركة في غضون أسابيع .

إن المناضل الوطني الذي هجر المدينة بعد أن آلمته المناورات الديماغوجية المتخاذلة التي يقوم بها المسئولون في الحزب ، بعد أن خيبت ظنه « السياسة » ، يكتشف أثناء النضال العملي المحسوس سياسة جديدة لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها ، إنها سياسة أناس مسئولين وقادة داخلين في التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير . إن هذا الواقع الجديد الذي سيعرفه المستعمَر الآن لا يوجد الا بالعمل النضالي . فالنضال الذي ينسف الواقع القديم الاستعماري ، يكشف عن جوانب كانت مجهولة ويفجّر معاني جديدة ، ويضع الاصبع على التناقضات التي كان يخبئها ذلك الواقع . ان الشعب الذي يكافح ، الشعب الذي يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه ، يسير حين يتحرر من الاستعمار متنبئاً بجميع محاولات التضليل ، متهيئاً لجميع الأكاذيب التي تُلفق باسم الوطنية . والعنف وحده ، العنف الذي يمارسه الشعب ، العنف المنظم الواعي الذي ينيره قادة الثورة ،هو الذي يتيح للجماهير ان تحلل الواقع الاجتماعي وأن تملك مفتاحه . وبدون هذا النضال ، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال، لا يكون ثمة إلا تهريج : قليل من التبديل ، بضعة إصلاحات في القمة ، راية وطنية ، أما تحت، فكتلة كبيرة من الناس ما تزال تعيش في «القرون الوسطى»، وما تنفك تجري حياتها على وتيرة ثابتة .

مزالق الشعور القومي

أما أن المعركة ضد الاستعمار لا تجري منذ البداية على مستوى قومي، فذلك ما يدلنا عليه التاريخ . إن المستعمَر يظل زمناً طويـلاً يوجه جهوده نحو إزالة بعض المظالم : العمل الإكراهي ، العقوبات الجسمية ، تفاوت الأجور ، تقييـد الحقوق السياسية ، الخ . وهذا النضال من أجل الديموقراطية ضد اضطهـاد الانسان ما يلبث أن يخرج شيئـاً فشيئاً من هذا الإبهام الليبرالي الجديد ، ومـا يلبث أن يُطل على المطامح القومية ولو بكثير من المشقة في بعض الأحيـان . ولكن عدمَ تأهب الصفوة ، وفقدان الاتصال العضوي بين هذه الصفوة وبـين الجماهير ، وكسلَ هذه الصفوة ، بل جبنها في اللحظة الحاسمة من لحظات الكفاح، كل ذلك يؤدي الى مزالق فاجعة .

إن الشعور القومي ما لم يكن تجسيداً متسجماً لأعمق مطامح الشعب بمجموعه، وما لم يكن ثمرة مباشرة حيـة نابضة للتعبئة الشعبية ، فلن يكون في أحسن الأحوال إلا شكلاً لا مضمون له ، سريـعَ الزوال قليلَ الدقـة والوضوح . والصدوع التي نجدها فيه عندئذ هي السبب في أن البلاد الناشئة المستقلة ، كثيراً ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة الى حالة القبيلة، ومن مستوى الدولة الى مستوى العشيرة . إن هذه الشقوق هي السبب فيما تعانيه الاندفاعـة القوميـة والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية . وسنرى الآن أن مواطن الضعف هـذه ، وما تشتمل عليه من أخطار فادحة ، إنما هي نتيجة تاريخية لعجز البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبي ، أي عن استخلاص معانيه ودوافعه .

إن الضعف الكلاسيكي المعروف الذي يعانيه الوعي القومي في البـلدان

المتخلفة لا يرجع فقط إلى أن النظام الاستعماري قـد أفسد الإنسان المستعمَر ، وإنما يرجع أيضاً الى كسل البورجوازية الوطنية، وإلى فقرها ، وإلى أن فكرها قد تكوّن تكوناً كوزموبوليتياً في قراراته .

إن البورجوازية التي تستلم مقاليد السلطة في نهاية العهـــد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة . قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفراً ، أو هي على الأقـل لا تقاس أبداً بالقوة الاقتصادية التي تملكها بورجوازية البـــلاد المستعمِرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية أن تحل محلها . لقد ظنت البورجوازية الوطنية لنرجسيتها وغرورها أن في وسعها أن تحل محـــل بورجوازية الاستعمار وأن تكون خيراً منها . ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها في مآزق حرجة، فإذا هي تلجأ الى وسائل تجلب الكوارث ، إذ تتجه بنداءات خائفة الى الدولة التي كانت تستعمر بلادها . ذلك أن العناصر الجامعية والعناصر التجارية الـتي هي أكثر أبناء الدولة الجديدة وعياً تتمـــيز بأنها قليلة العدد ، بأنها متمركزة في العاصمة ، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعيـة والمهن الحرة ، فليس بين أفراد هذه البورجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال . إن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهـــة نحو الإنتاج ، والابتكار ، والبناء ، والعمل ، وإنما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع الوساطة . إن نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية رجال أعمـــال ، لا روّاد صناعة . ويجب ان نعترف أن جشع المستوطنين ، ونظام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيراً .

إنه ليستحيل على بورجوازية أن تجمع رأسمالا في ظل النظام الاستعماري . والرسالة التاريخية التي يبدو أن البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف قد خلقت للنهوض بها هي أن تنكر نفسها كبورجوازية ، هي أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال ، وأن تضع نفسها وضعاً كاملاً في خدمة رأس المـال الثوري الذي هو الشعب .

إن على البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف أن تفرض على نفسها

خيانة المهمة التي كانت ميسّرة لها ، أن تدخل مدرسة الشعب ، أي أن تضع تحت تصرف الشعب الرأسمالي الثقافي والتكنيكي الذي استطاعت ان تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار . ولكننا نرى آسفين ان البورجوازية الوطنية كثيراً ما تتنكب هذا السبيل البطولي الإيجابي الخصب العادل ، لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع ، مناقض لمصلحة الأمة ، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية تقليدية ، بورجوازية بورجوازية ، بورجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة ان لا تكون إلا بورجوازية.

لقد رأينا أن هدف الأحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحل هدفاً قومياً تماماً . فهو يعبىء الشعب حول شعار الاستقلال ، مرجئاً مـا عدا ذلك للمستقبل . فإذا سألت رجـال هذه الأحزاب عن البرنامج الاقتصادي الذي ستلتزمه الدولة ، وعن النظـام الذي يريدون إقامته ، رأيتهم عاجزين عن الإجابة ، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم .

إن اقتصاد بلادهم قد تطور دائمـاً بعيداً عنهم وبدون تدخلهم . إنهم لا يعرفون عن الموارد الحالية والموارد الممكنة التي تشتمل عليها الأرض ويضمها جوف الأرض إلا أموراً قرأوها في الكتب ، أموراً تقريبية ، لذلك تراهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذه الموارد إلا حديثاً مجرداً عاماً . حتى إذا تحقق الاستقلال ، رأيت هذه البورجوازية المتخلفة ، القليلة العـدد ، التي لا تملك رؤوس أموال كبيرة ، والتي ترفض أن تسلك الطريق الثوري ، راكدة ركوداً يرثى له . إنها لا تستطيع أن تطلق العنان « لعبقريتها » التي كانت تستطيع ان تقول عنها بشيء من الطيش إن سيطرة الاستعمار هي التي حالت دون انطلاقها. وهكذا نرى فقر وسائلها وقلة رجالها تحصرها خلال سنوات طويلة في نطاق اقتصاد يقوم على الحرفة ، فإذا الاقتصاد القومي اقتصاد محدود الآفاق يستند الى ما يسمى بالمنتجات المحلية . ونسمع عندئذ خطباً طويلة عن قيمة الحرف ، فالبورجوازية الوطنية التي وجدت نفسها عاجزة عن إقامـة مصانع تدرّ لها وللبلاد أرباحاً أوفر ، تحيط الحِرف عندئذ بعواطف العزة القومية والكرامة

الوطنية ، وتستمد منها في الوقت نفسه فوائد جمة . وهذا التقديس للمنتجات المحلية ، هــذا العجز عن خلق طرق جديدة يتجليان كذلك في انغماس البورجوازية الوطنية في الانتاج الزراعي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . إنهم لا يوجهون الاقتصاد القومي توجيهاً جديداً . وتظل الأمور تسير على مــا كانت تسير عليه من قبل : غلال الأراشيد ، غلال الكاكاو ، غلال الزيتون . حتى ان هذه المنتجات الأساسية لا يطرأ أي تغير على طريقة استثمارها . وتظل البلاد تصدِّر مواد أولية ، ويظل الأهالي يعملون مزارعين صغاراً لدى أوروبا ، وتظل البلاد اختصاصيه في تقديم المحاصيل الخام .

ومع ذلك ما تفتأ البورجوازية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية . ذلك ان التأميم عندها لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الأمة ، وتحقيق كافة حاجات الأمة ،وهو لا يعني تنظيم شؤون الدولة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها ،وإنما يعني التأميم عندها نقلَ الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري الى أهل البلاد.

ولما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل المادية ،ولا الوسائل العقلية الكافية (مهندسين ، فنيين) ، نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب . إن البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها الأوروبيون : أطباءَ ومحامين وتجاراً وممثلي شركات ووكلاء عامين ووسطاء . إنها تشعر أن من واجبها ، حفاظاً على كرامة البلاد وحفاظاً على نفسها ، أن تحتل جميع هذه المراكز .

ومنذ ذلك الحين تراها تفرض على جميع الشركات الأجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها ، سواء أكانت تريد أن تبقى في البلاد أم كانت تنوي أن تدخل إلى البلاد . إن البورجوازية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهي أن تكون وسيطاً . وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة ، بل جعل نفسها وسيطاً بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة إلى التخفي ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد . وترتاح البورجوازية الوطنية إلى هــذا

الدور الذي تقوم به ، أعني دور وكيل للبورجوازية الغربية ، دون أن يكون ثمة عقد ولا غضاضة . وهذا الدور الذي يدر ربحاً ضئيلاً ، هذه الوظيفة التي تغل رزقاً يسيراً ، هذا الضيق في النظرة ، هذا النقص في الهمة والطموح ، هذا كله إنما يرمز الى عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخي الذي تنهض به البورجوازية . فما تُعرف به كل بورجوازية وطنية من أنها نشيطة زائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية . ان روح التمتع والتلذذ هي المسيطرة لدى البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة . ذلك أنها على المستوى النفسي تتشبه بالبورجوازية الغربية وتستمد منها تعاليمها ، وتقتفي آثارها في الجانب السلبي وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستكشاف والابتكار الأولى التي قطعتها البورجوازية الغربية، وحققت بها أشياء إيجابية على كل حال. ان البورجوازية الوطنية في أول عهدها تشبه بالبورجوازية الغربية في آخر عهدها . وما ينبغي أن نظن أنها تغذّ السير وتحرق المراحل . فإنما هي في حقيقة الأمر تبدأ بالنهاية . لقد دلفت الى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق ، وتهور ، واندفاع .

والانحطاط الذى تتردى فيه البورجوازية الوطنية تساعدها عليه البورجوازية الغربية مساعدة كبيرة ، بتوافد رجالها على البلاد سائحين مولعين بالغرائب والصيد والملاهي . إن البورجوازية الوطنية تنشىء مراكز للراحة والإستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال البورجوازية الغربية . وهي تطلق على هذا النشاط اسم السياحة ، تعده أشبه بصناعة وطنية . وإذا أردتم برهاناً على هذا النوع من تحول عناصر البورجوازية الوطنية التي كانت مستعمرة إلى طبقة تنظّم « حفلات » للبورجوازية الغربية ، فانظروا إلى ما حدث في أميركا اللاتينية. إن ملاهي هافانا ومكسيكو وشواطىء ريودي جانيرو ، والبرازيليات الصغيرات ، والمكسيكيات الصغيرات ، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر ، وآكابولكو ، وكوبا كابانا ، كل تلك إنما هي أمارات الفساد الأخلاقي الذي تتردى

فيه البورجوازية الوطنية . فلأن هذه البورجوازية الوطنية ليس لها أفكار ، ولأنها مغلقة على ذاتها ، منقطعة عن الشعب ، عاجزة عن التفكير في مجموع المسائل على أساس مجموع الأمة ، نراها تقوم بدور الوكيل عن الغرب في إدارة مشاريعه ، ونراها تنظم بلادها ماخوراً لأوروبا .

أعود فأقول يجب أن يكون ماثلاً في خيالنا ذلك المشهد المحزن، مشهدبعض جمهوريات أمريكا اللاتينية . إن رجال الأعمال في الولايات المتحدة وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة ، يطيرون بصفقة جناح الى « البلاد الحارة » ليغرقوا هنالك سبعة أيام أو ثمانية في ذلك الجو اللذيذ من الفسق الذي يهيأ لهم .

ولا يختلف سلوك ملاكي الأراضي عملياً عن سلوك بورجوازية المدن . لقد طالب كبار المزارعين ، منذ إعلان الاستقلال ، بتأميم الاستثمارات الزراعية ، واستطاعوا بأساليب ماكرة كثيرة أن يضعوا أيديهم على المزارع التي يملكها المستوطنون الأجانب ، فزادوا بذلك سيطرتهم على المنطقة . ولكنهم لا يحاولون أن يجددوا الزراعة ،أو أن يقووها، أو أن يجعلوها جزءاً من اقتصاد قومي حقاً.

إن ملاكي الأراضي يطالبون السلطات العامة بأن تحيل اليهم تلك التسهيلات والامتيازات التي كان ينعم بها المستوطنون الأجانب قبل الاستقلال . ويصبح استغلال العمال الزراعيين أقوى مما كان ، ويصبح كذلك مشروعاً . ويتزود هؤلاء الوطنيون الذين لا يختلفون عن المستوطنين الأجانب في شيء ، يتزود هؤلاء المستوطنون الجدد بشعارين أو ثلاثة شعارات ، ليطالبوا العمال الزراعيين بالقيام بجهود ضخمة باسم الاشتراك في المجهود القومي العام . فلا تجديد في أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية ، لأن المبادهات تقتضي حداً أدنى من المخاطرات ، والمخاطرات تبث الذعر في نفوس هؤلاء الناس ، وتجعل هذه البورجوازية الزراعية المترددة « المتعلقة » يطيش صوابها، فتؤثر ان تبقى الأحوال على ما هي عليه، وتكتفي بالطرق المعبدة التي شقها الاستعمار ؛ إن المبادهات في هذه المناطق إنما هي من شأن الحكومة . الحكومة هي التي تقررها، وهي التي تشجعها، وهي التي تمولها . إن البورجوازية الزراعية

تأبى ان تقوم بأية مجازفة . إنها تكره الرهان ، تكره المغامرة . إنها لا تريد ان تعمل على رمال . إنها تريد أرباحاً مضمونة ، وأرباحاً سريعة . وهذه الأرباح التي تجنيها ، هذه الأرباح التي تعد ضخمة بالقياس الى الدخل القومي ، يضعونها في جيوبهم ،ولا يستثمرونها من جديد . إن كَنْز َالمال هو السياسة التي تسيطر على نفسية هؤلاء الملاكين الزراعيين . وفي بعض الأحيان ، خاصة في السنوات التي تعقب الاستقلال ، نري هذه البورجوازية لا تتورع عن إيداع الارباح التي تجنيها من أرض الوطن في البنوك الأجنبية . ونراها في مقابل ذلك تنفق أموالاً طائلة في اقتنـاء الأشياء التي يدفع الى اقتنائهـا حب الظهور ، فهم يشترون السيارات الفخمة والفيلات الباذخة ، وسائر تلك الأشياء التي لاحظ علمـاء الاقتصاد أنها مميزات البورجوازية المتخلفة .

قلنا ان البورجوازية المستعمَرة التي تتسلم مقاليد السلطة ، تصبّ طموحها الطبقي على احتكار الوظائف التي كان يستأثربها الأجانب . وها هي ذي ، غداة الاستقلال ، تصطدم بالأجانب الذين خلفهم الاستعمار من محامين ، وتجـار وملاكي أراضٍ ، وأطباء، وموظفين كبار . وها هي ذي تقتتل اقتتالاً لا هوادة فيه مع هؤلاء الناس « الذين يهينون الكرامة الوطنية » ، وتنادي في كثير مـن القوة بفكرة تأميم الوظائف ، فكرة إسناد الوظائف الى الافريقيين . حتى لنرى سلوكها يصطبغ شيئاً فشيئاً بتعصب عرقي . وما تلبث ان تطرح على الحكومة هذه المشكلة بكثير من العنف : تريد هذه الوظائف ؛ ثم لا تخفف من شراستها الا بعد أن تحتل هذه المراكز احتلالاً كاملاً .

ومن جهة اخرى نرى طبقة العمال في المدن ، وجمهرة العاطلين عن العمل ، وصغار أصحاب الحرف ، أولئك الذين ألفنا ان نسميهم أهـل المهن الصغيرة ، نرى هؤلاء جميعاً يقفون هذا الموقف الوطني المتعصب . ولكن يجب ان ننصفهم فنذكر انهم إنما يقلدون في موقفهم هـذا موقف بورجوازيتهم . واذا دخلت البورجوازية في تنافس مع الأوروبيين،فإن أصحاب الحرف وأهل المهن الصغيرة إنما يبدأون الصراع ضد الافريقيين الذين ليسوا من أبناء هـذه الامة . هكذا

رأينا في ساحل العاج فتناً قائمة على تعصب عرقي ضد الداهوميين والفولتيين : ان الداهوميين والفولتيين الذين يحتكرون التجارة الصغيرة في قطاعات كبيرة قد قامت ضدهم ، في ساحل العاج ، غداة الاستقلال ، مظاهرات عدائية قوية ، وصارت القومية هنالك الى تعصب قومي، إلى تعصب عرقي : طالب المتظاهرون بترحيل هؤلاء الأجانب ، وحرقوا مخازنهم ، وهدموا حوانيتهم الخشبية ، واعتدوا عليهم اعتداءات وحشية ، واضطرت الحكومة ان تستجيب لرغبة المواطنين فأجبرتهم على مغادرة البلاد . وفي السنغال قامت مظاهرات ضد السودانيين ، وهذه المظاهرات هي التي حملت مامادو ديا على أن يقول : « الحق ان الشعب السنغالي لم يتبنّ عقيدة مالي الا تعلقاً منه بزعمائه ، وليس لاتحاده بمالي من قيمة غير قيمة تسليمه مرة أخرى بسياسة هؤلاء الزعماء . وظل شعور الناس بالوطن السنغالي شعوراً قوياً ، لا سيما ان وجود السودانيين في دكار كان يعلن عن نفسه إعلاناً ليس فيه شيء من التخفي بحيث ينسى الناس اقليميتهم . وهذه الظاهرة هي السبب في أن جماهير الشعب لم يؤسفها انفراط عقد « الاتحاد » الفدرالي ، بل استقبلته بارتياح ، ثم لم تظهر في أي مكان اية محاولة للإبقاء عليه »[١] .

وبينما كانت طبقات من الشعب السنغالي تنتهز الفرصة التي أتاحها لها القادة أنفسهم للتخلص من السودانيين الذين كانوا يضايقونهم سواء في قطاع التجارة أو في قطاع الإدارة ، رأينا الكونغوليين الذين شهدوا رحيل البلجيكيين عن بلادهم رحيلاً جماعياً وهم لا يكادون يصدقون أعينهم ، رأينا هؤلاء الكونغوليين يضغطون على السنغاليين المقيمين في ليوبولدفيل وإليزابتفيل من أجل ترحيلهم .

وهكذا نرى أن آلية هذين النوعين من الظاهرات واحدة . فلئن كان التنافس يقوم بين الأوروبيين وبين المثقفين والبورجوازية في الأمة الفتية ، فإن

---

١ – مامادو ديا ، « الامم الافريقية والتضامن العالمي » ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ص ١٤٠ .

تنافساً مثله يقوم بين جماهير الشعب المقيمة في المدن وبين إفريقيين ينتمون إلى أمة أخرى. وهؤلاء الافريقيون هم الداهوميون في ساحل العاج، والنيجريون في غانا، والسودانيون في السنغال.

فإذا كانت مطالبة البورجوازية بإسناد الوظائف الى السود أو الى العرب لا تهدف الى تأميم حقيقي، وإنما هي تهدف فقط الى جعل البورجوازية تملك السلطة التي كان يملكها الأجانب من قبل، فإن الجماهير تطالب بهذا الأمر نفسه على مستواها، ولكنها تقصر معنى الأسود أو العربي على الحدود الاقليمية. وثمة مواقف كثيرة تقع بين المناداة الحماسية بوحدة القارة الإفريقية وبين هذا السلوك الذي تسلكه الجماهير بوحي من المصلحة الاقليمية. وهكذا نرى تأرجحاً دائماً بين الوحدة الافريقية التي ما تنفك تضعف وتهزل، وبين عودة يائسة الى عصبية إقليمية كريهة حانقة. قال مامادو ديا: «أما من جهة السنغال، فإن الزعماء الذين كانوا هم دعاة الوحدة الافريقية، والذين ضحوا اكثر من مرة بمنظماتهم السياسية المحلية وبمراكزهم الشخصية في سبيل هذه العقيدة، يتحملون مسؤوليات لا سبيل إلى نكرانها، نتيجة خطأ ارتكبوه عن حسن نية طبعاً. إن خطأ هؤلاء الزعماء، إن خطأنا، هو أننا بحجة محاربة التجزئة نسينا واقع الإقليمية، فلم ننتبه في تحليلاتنا انتباهاً كافياً الى هذه الظاهرة التي هي ثمرة الاستعمار طبعاً، ولكنها أيضاً واقع اجتماعي لا يمكن ان تقضي عليه أية نظرية في الوحدة مهما تكن محمودة ومهما تكن محببة. لقد فتننا المثل الأعلى ثم ظننا المثل الأعلى واقعاً واقعاً، وحسبنا أنه يكفي أن نستنكر الاقليمية وما ينشأ عنها من تعصب لقوميات صغيرة حتى ننتصر عليها وحتى نحقق الظفر لمشروعنا الخيالي»[1].

ولن تكون المسافة كبيرة بين التعصب السنغالي وبين القبيلة الأوولوفية. والواقع أنه حيثما تعجز البورجوازية الوطنية بسلوكها الرخيص، وبغموض مواقفها العقائدية عن تنوير مجموع الشعب، وعن طرح المشكلات على أساس

---

١ – مامادو ديا المرجع المذكور.

الشعب أولاً وقبل كل شيء ، حيثما تعجز هذه البورجوازية الوطنية عن توسيع نظراتها الى العالم توسيعاً كافياً ، نشهد انتكاساً نحو الأوضاع القبلية ، وانتصاراً للانقسامات العنصرية يثير في النفس أشد الحنق . فما دام الشعار الوحيد الذي تنادي به البورجوازية هو الحلول محل الأجانب ، وما دامت تبادر فتنتصف لنفسها في جميع القطاعات وتحتل المراكز ، فإن صغار الوطنيين من سائقي سيارات الأجرة وباعة الحلوى وماسحي الأحذية ، لا بد أن يطالبوا أيضاً بأن يعود الداهوميون الى بلادهم ، وقد يذهبون الى أبعد من هذا فيطالبون بأن يرجع الفولتيون والبوهليون الى براريهم أو الى جبالهم .

على هذا الأساس إنما يجب أن نؤوِّل هذه الظاهرة التي نلاحظها في البلاد المستقلة الناشئة ، وهي أن النظام الفدرالي هو الذي ينتصر هنا وهناك . إن السيطرة الاستعمارية ، كما تعلمون ، قد خصّت بعض المناطق بامتيازات خاصة ، فجعلت اقتصاد المستعمرة غير متكامل مع مجموع الأمة ، وإنما نظمته على أساس التكامل مع اقتصاد البلاد المستعمِره المختلفة . إن الاستعمار لا يستثمر مجموع البلاد ، وإنما يكتفي باكتشاف موارد طبيعية معينة ، فيستخرجها ويصدِّرها الى صناعات البلاد المستعمِرة ، وبذلك يتيح لبعض المناطق شيئاً من الثراء ، بينما يبقى سائر المستعمرة على حاله من التخلف والبؤس ، وربما ازداد تخلفاً وبؤساً .

حتى إذا تحقق الاستقلال كان الوطنيون الذين يقطنون في المناطق المزدهرة يشعرون بما أوتوا من حظ ، فإذا هم بمنعكس لا أثر للتفكير فيه ، يرفضون أن يطعموا الوطنيين الآخرين الذين يعيشون في المناطق البائسة . إن المناطق الغنية بالأراشيد والكاكاو والألماس تبرز بروزاً ظاهراً على تلك الصفحة الخالية الخاوية التي يتألف منها سائر الأمة . ويشعر الوطنيون في هذه المناطق بكره نحو الآخرين ، ويصفونهم بأنهم أناس حاسدون وحاقدون شرهون ميالون الى الجريمة والقتل . وتنبعث الحزازات القديمة ، وتنتعش الأحقاد القبلية . إن قبائل البالوبا ترفض أن تطعم قبائل اللولوا ؛ وإقليم كاتانجا يُعلن أنه دولة مستقلة ؛

ألبير كالونجي يتوج نفسه ملكاً على جنوبي كاساي .

إن الوحدة الإفريقية ، هذا الشعار الغامض (ولكنه الشعار الذي تعلقت به قلوب الرجال والنساء بأفريقيا تعلقاً حماسياً قوياً ، وكان يضغط على الاستعمار ضغطاً هائلاً) يكشف الآن عن وجه آخر ، فإذا هو عصبيات إقليمية في داخل واقع قومي واحد . فالبورجوازية الوطنية ، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة ولأنها لا تنظر إلى أبعد من أطراف أظافرها ، تتكشف عاجزة عـــن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزة عن بناء الأمة على أسس وطيدة خصبه مثمرة . إن الجبهة الوطنية التي طردت الاستعمار تتفتت الآن وتنهزم .

وهذا الصراع القومي الذي يقوم بين القبائل ، هـــذا الحرص العنيف على احتلال المراكز التي أصبحت شاغرة برحيل الأجنبي، سيولـّدان أيضاًتنافسات دينية . ففي الأرياف والبراري نجد الطوائف الدينية الصغيرة ،والأديان المحلية ، وجماعات الطرق الصوفية ، تستعيد نشاطها وحيويتها ، وتستأنف لجوءها إلى تكفير غيرها . وفي المدن الكبرى ، على مستوى الوظائف الإدارية ، نجـــد صراعاً يقوم بين الديانتين المنزلتين الكبريين : الاسلام والكاثوليكية .

إن الاستعمار الذي ترنحت قواعده أمـــام نشوء فكرة الوحدة الافريقية يسترد الآن آماله ، ويحاول أن يحطم هذه الإرادة ، مستعملاً جميـــع مواطن الضعف في هذه الحركة ، فهو يعبىء الشعوب الافريقية كاشفاً لهـــا عن وجود خصومات «روحية » ، ففي السنغال تصدر جريدة «افريقيا الجديدة» كل أسبوع لتعبر عـــن كره أصفر نحو الاسلام والعرب ، وتستعدي الشعور القومي على اللبنانيين الذين يملكون في الساحل الغربي القسم الأكبر من التجـــارة الصغيرة . وتحض على الانتقام منهم . ورجال البعثات التبشيرية مـــا يفتأون يذكرون للجماهير ان الغزو العربي ، قبل وصول الاستعمار العربي بكثير ، قـــد حطم امبراطوريات زنجيـــة كبرى . ولا يترددون عن القول إن الاحتلال العربي هو الذي مهّد للاستعمار الغربي . وهم يتحدثون عـــن استعمار عربي ، ويندون بالاستعمار الثقـافي الذي يمارسه الاسلام . والمسلمون يُقْصَوْن عن المراكز

التوجيهية . وفي مناطق أخرى نلاحظ عكس هذه الظاهرة ، فالسكان الذين اعتنقوا المسيحية هم الذين يُعدُّون هنالك أعداء الاستقلال القومي عـامدين واعـين .

إن الاستعمار يحرك هذه الأسلاك كلها بدون خشية ولا حيـاء ، سعيداً كل السعادة بانه يثير الإفريقيين بعضهم على بعض بعد أن اتحدوا بالأمس ضده. وتبرز في بعض الاذهان فكرة مذبحة دينية على نوع مذبحـة سان بارتلمي ، ويضحك الاستعمار ساخراً في هدوء حين يسمع بعدئذتلك التصريحات الفخمة التي تتحدث عن الوحدة الافريقية . لقد أخذ الدين ، في نطاق أمة واحدة ، يجزىء الشعب ويثير الطوائف الدينية بعضها على بعض ، والاستعمار وأجهزته من وراء ذلك تغذيه وتقويه . وتنفجر هنا وهناك أحداث لم تكن في الحسبان. ففي بلاد تهيمن عليها الكاثوليكية أو البروتستانتية نرى الأقليات الاسلامية تظهر تمسكاً بأهداب الدين لم يكن مألوفاً من قبل ، ونرى الأعياد الاسلامية تنشط وتقوى،فالمسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد التعصب المتطرف المعهود في الكاثوليك .ونسمع وزراء يخاطبون بعض الأفراد بقولهم : إذا كنتم غير راضين فما عليكم إلا ان تذهبوا إلى القاهرة . وقد تحمل البروتستانتية الاميركية إلى الأرض الافريقية تعصبها ضـد الكاثوليك ، فتثير بواسطة الدين خصومات قبلية .

وعلى مستوى القارة الافريقية يمكن أن يتخذ هذا التوتر الديني وجهاً بغيضاً رخيصاً . فتراهم يقسمون إفريقيا قسمين : قسماً أبيض وقسماً أسود ؛ حتى إذا استبدلوا بهذه التسمية تسمية أخرى فقالوا: إفريقية جنوب الصحارى وإفريقية شمال الصحارى ، ولم تخف هذه التسمية الجديدة ما وراءها من تعصب عـرقي . فهنا يزعمون ان لافريقيا البيضاء حضارة عريقة ترجع إلى ألوف السنين ، وانهـا تنتمي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وانها امتداد لأوروبا ، وانها تشارك في الحضارة الاغريقية اللاتينية ، في حين أن إفريقيا السوداء منطقة جامـدة ، بدائية غير متحضرة .. متوحشة . وهناك ما ينفكون يتحدثون حديثاً بغيضاً كريهاً عن تحجب النساء عند العرب ، وعن تعدد الزجات عند العرب ، يزعمون

ان العرب يحتقرون المرأة . إن هذه الاحاديث يذكّر تهجمها بالأحاديث التي طالما دارت بها ألسنة المستعمِرين . إن البورجوازية الوطنية في كل منطقة من هاتين المنطقتين الكبيرتين ، هذه البورجوازية التي تشرّبت أحقر مبادىء التفكير الاستعماري تحمل العبء عن الأوروبيين، وتنوب عنهم في ترسيخ فلسفة عرقية تستشري في القارة وتحمل الى مستقبل القارة أشد الأذى . إن هذه البورجوازية ، بكسلها وتقليدها الأعمى تشجع وتعزز غرس التعصب العرقي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . لذلك يجب أن لا يدهشنا ان نسمع في بلد يسمي نفسه إفريقياً افكاراً أقل ما توصف به هو أنها أفكار عرقية ، وأن نرى تصرفات تفرق بين الناس في القيمة ، حتى ليحس المرء في البلد الإفريقي بأنه في باريز أو بروكسل أو لندن شاعراً بكثير من المرارة .

بل إننا لنرى تلك الفكرة الجارحة التي تفرق بين الناس في القيمة ، تلك الفكرة المأخوذة عن الثقافة الغربية ، القائلة بأن الأسود لا يمكن ان ينفذ المنطق الى عقله ولا يمكن أن يفهم العلوم ، تتجلى عارية كل العري مسيطرة كل السيطرة في بعض مناطق إفريقيا . حتى لقد يتاح لنا ان نرى الاقليات السوداء تعامَل هنالك معاملة أشباه العبيد ، وهو أمر يبرر ما تشعر به بلدان إفريقيا السوداء من تحفظ بل ومن حذر وسوء ظن . ليس نادراً أن يقع لمواطن من إفريقيا السوداء حين يتنزه في مدينة من مدن إفريقيا البيضاء، ان يسمع أطفالاً ينادونه « زنجي » ، أو أن يسمع موظفين يسمونه « عبداً » .

لا وليس مستبعداً ، وا أسفاه، أن يقع لطلاب من إفريقيا السوداء في كليات بإفريقية شمال الصحارى أن يسألهم رفاقهم في المدرسة : هل في بلادكم بيوت ، هل تعرفون الكهرباء ، هل يأكل أهلكم لحوم البشر ؟ لا وليس مستبعداً وا أسفاه أن نرى في بعض مناطق الشمال إفريقيين آتين من الجنوب ، يبتهلون إلى وطنيين أن يأخذوهم « الى أي مكان ، ولكن مع زنوج » . وكذلك نرى ، في بعض الدول الناشئة بافريقيا السوداء ، رجالاً من أعضاء المجالس النيابية بل ومن الوزراء ، يقولون غير ضاحكين : ليس الخطر أن يعود

الاستعمار الى احتلال بلادهم ، بل الخطر ان يغزوهم « عرب الشمال » .

وهكذا ترون أن إفلاس البورجوازية لا يتجلى في الصعيد الاقتصادي فحسب . إن البورجوازية ، وقد وصلت الى السلطة باسم قومية ضيقة ، باسم العرق ، رغم تصريحات جميلة جداً من ناحية الشكل ، ولكنها تصريحات فارغة كل الفراغ من ناحية المضمون ، تصريحات تستعمل على غير شعور بالمسؤولية جملاً مستمدة رأساً من كتب الأخلاق او الفلسفة السياسية التي تصدرها مطابع اوروبا ، إن هذه البورجوازية تبرهن على عجزها عن تحقيق النصر لحد أدنى من العقيدة الانسانية . إن البورجوازية حين تكون قوية وحين تنظم العالم على أساس سلطتها لا تتردد عن تأكيد أفكار ديموقراطية تساوي بين البشر ، ولا بد لهذه البورجوازية ، القوية اقتصادياً ، من ظروف استثنائية حتى تُضطر الى الخروج على نظريتها الانسانية هذه . والبورجوازية الغربية تتوصل في أكثر الأحيان ، رغم أنها في حقيقة أمرها عرقية ، الى إخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الإبقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الانسانية . لقد هيأت البورجوازية الغربية عدداً كافياً من الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقاً من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم . إن التعصب العرقي البورجوازي الغربي تجاه الزنجي انما هو تعصب احتقار ، وتعصب استهانة . ولكن النظرية البورجوازية التي تنادي بأن البشر متساوون في جوهرهم ، تحتال على الأمر من أجل أن تظل منطقية مع نفسها ، فتدعو هؤلاء البشر المتخلفين الى أن يصبحوا بشراً أسوياء من خلال النموذج الانساني الغربي الذي تجسده .

أما التعصب العرقي لدى البورجوازية الوطنية في البلاد المستعمَرة فهو تعصب دفاعي ، تعصب قائم على الخوف . إنه لا يختلف في جوهره عن القبلية الرخيصة بل لا يختلف عن الخصومات بين الفرق الصوفية أو الجماعات الدينية . لذلك رأينا المراقبين الدوليين الأذكياء لا يأخذون مأخذ الجد تلك النداءات الحماسية التي تدعو الى الوحدة الإفريقية . فالصدوع التي يرونها بأم أعينهم تجعلهم يشعرون

شعوراً واضحاً بأنه لا بد من أن تنحل جميع هذه التناقضات قبل أن يأتي أوان الوحدة .

إن الشعوب الإفريقية قد اكتشفت نفسها مؤخراً ، وقررت باسم القارة الافريقية كلها أن تحطم النظام الاستعماري . ولكن البورجوازيات الوطنية التي تسارع ، إقليماً بعد اقليم ، الى تشييد كيانها الخاص ، وإلى إقامة نظام وطني استغلالي ، تنشىء الحواجز تلو الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق هذا « الحلم » إن البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليوناً من البشر في سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللاانسانية . لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الافريقية لا يمكن ان تتحقق الا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب ، اي رغم أنف البورجوازية ومصالحها .

وعلى الصعيد الداخلي ، في الإطار الدستوري ، نجد البورجوازية تبرهن على عجزها أيضاً ، ففي عدد من البلدان المتخلفة نرى النظام البرلماني فاسداً فساداً عميقاً . ان البورجوازية الوطنية ، وهي ضعيفة اقتصاديا ، وعاجزة عن إقامة علاقات اجتماعية متسقة قائمة على مبدأ سيطرتها كطبقة ، تختار الحل الذي يتراءى لها أنه أسهل الحلول ، أعني نظام الحزب الواحد . انها لا تملك راحة البال والطمأنينة اللتين لا يمكن ان تؤمنهما لها إلا القوة الاقتصادية والهيمنة على نظام الدولة . انها لا تخلق دولة تطمئن المواطن بل تقيم دولة تبث القلق في نفس المواطن .

ان الدولة التي تؤهلها متانتها ويؤهلها تخفيها في الوقت نفسه ، لأن تهب للناس الثقة ، وان تفل سلاحهم وان تنميهم ، تصبح هنا دولة تفرض نفسها فرضاً صارخاً ، وتعرض قواها ، وتضرب وتقسو ، وتفهم المواطن بذلك انه في خطر دائم. ان نظام الحزب الواحد هوالشكل الحديث للدكتاتورية البورجوازية التي لا تتقنع ولا تتزين ولا يزعها وازع ولا يردعها حياء .

وهذه الدكتاتوريه لا تعمر طويلاً . ذلك واقع . ان هذه الدكتاتورية ما

تنفك تولّد تناقضها ذاته . إذ لما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل الاقتصادية لضمان سيطرتها وتوزيع شيء من الفتات على مجموع البلاد ، ولما كانت من جهة أخرى مشغولة بملء جيوبها بأقصى سرعة ممكنة ، وبأتفه طريقة ممكنة أيضاً ، فإن البلاد تزداد ركوداً وجموداً . ومن أجل أن تخفي البورجوازية هـذا الركود ، ومن أجل ان تقنّـع هذا التراجع ، ومن أجل أن تطمئن نفسها ، من أجل أن تهيىء لنفسها أسباب الزهو والافتخار ، تراها لا تجد سبيلاً الى ذلك كله غير ان تبني في العاصمة أبنية ضخمة فخمة ، وأن تعمـد الى ما يسمى بنفقات الهيبة .

وشيئاً فشيئاً تزداد البورجوازية إهمالاً للداخل ، وتزداد إهمالاً لواقع البلاد البور ، وتأخذ تنظر إلى البلد الأوروبي الذي كان يستعمرها ، تأخذ تنظر إلى الرأسماليين الأجانب الذين يضمنون ان تقدم لهم خدماتها . ولما كانت لا تقتسم أرباحها مع الشعب ، ولا تتيح له أبداً أن يستفيد من المغانم التي تصبها عليهـا الشركات الأجنبية الكبرى ، فإنها سرعان ما تكتشف ضرورة وجود زعيم شعبي تقع على عاتقه مهمة مزدوجة هي ضمان استقرار العهد القـائم وضمان استمرار سيطرة البورجوازية في آن واحـد . فالدكتاتورية البورجوازية في البلاد المتخلفة إنما تستمد متانتها من وجود زعيم . إن البورجوازية الدكتاتورية في البـلاد المتطورة هي كما تعلمون نتيجة القوة الاقتصادية الـتي تتمتع بهـا البورجوازية . أما في البلاد المتخلفة فإن الزعيم هـو القـوة المعنوية التي تريد البورجوازية ، الهزيلة الفقيرة ، ان تغتني في ظلها وتحت حمايتها .

والشعب الذي ظل خلال سنين طويلة يرى الزعيم ويسمع خطبه ، ويتابـع من بعيد ، وهو فيما يشبه الحلم ، ما يقوم بين الزعيم وبين السلطة الاستعمارية من مشاجرات ، يمحض هـذا الزعيم ثقة من تلقاء نفسه . لقـد كان الزعيم قبل الاستقلال يجسّـد آمال الشعب بوجه عام : الاستقلال ، الحريات السياسية ، العزة القومية . ولكنه بعد الاستقلال ، بدلاً من أن يجسّـد حاجات الشعب تجسيداً محسوساً ، وبدلاً من أن يكون رائد العزة القومية الحقيقية ، العزة القومية التي

تمر بالخبز والأرض وإعادة البلاد إلى أيدي الشعب المقدسة ، تراه يكشف عن وظيفته الصميمة ألا وهي أن يكون الرئيس العام لشركة المنتفعين المسرعين إلى التمتع ، أعني البورجوازية الوطنية .

إن الزعيم ،رغم أنه كثيراً ما يكون شريفاً، وكثيراً ما يقول أقوالاً صادقة، إنما هو من الناحية الموضوعية المدافع المتحمس عن مصالح أصبحت اليوم مترابطة، هي مصالح البورجوازية الوطنية ومصالح الشركات الاستعمارية السابقة . أضف إلى ذلك أن شرفه وصدقه ما يلبثان أن يأخذا بالتفتت شيئاً بعد شيء . ذلك أن اتصاله بالشعب اتصال غير واقعي ، فسرعان ما يقتنع ان الشعب أصبح متنكراً لسلطته ، وأن الناس أخذوا يشكون في الخدمات التي قدمها لوطنه . ويقسو الزعيم قسوة شديدة في الحكم على هذه الجماهير التي لا تعترف بالجميل ، وما ينفك ينحاز يوماً بعد يوم إلى معسكر المستغلين ، ثم ينقلب انقلاباً واعياً إلى شريك للبورجوازية الناشئة التي تتخبط في أحضان الفساد واللذة .

وتنحدر الحياة الاقتصادية للدولة الفتية نحو بنيان الاستعمار الجديد . لقد كان الاقتصاد القومي محمياً ، فأصبح اقتصاداً موجهاً . والميزانية تغذيها قروض وهبات . ورؤساء الدولة أو الوفود الوزارية تزور كل بضعة أشهر العواصم الأوروبية التي كانت مستعمِرة أو غيرها من البلدان تطلب المال .

والدولة التي كانت مستعمِرة تضاعف الآن مطالبها وشروطها ، وتطلب مزيداً من التنازلات والضمانات ، ولا تقوم بما كانت تقوم به قبل ذلك من احتياطات لاخفاء سيطرتها على السلطة الوطنية . ويركد الشعب ركوداً محزناً على بؤس لا يطاق ، ويدرك إدراكاً بطيئاً تلك الخيانة التي يرتكبها قادته، والتي لا يمكن أن تسمى باسم . وتقوى حدة هذا الشعور لدى الشعب على قدر عجز البورجوازية عن تكوين نفسها كطبقة . فإذا تنظيمها لتوزيع الثروات لا يجعل هذا التوزيع متدرجاً على طبقات،وإنما يحصر الثروة في أيدي فئة محتكرة.وهذه الفئة المحتكرة الجديدة تبعث على الشعور بالمهانة ، وتثير الحنق والتمرد ، خاصة وأن الأكثرية الساحقة من السكان ، وهي تشكل تسعة أعشار السكان ، ما تزال

تموت جوعاً . إن هذا الاثراء الفاضح السريع الذي لا يرحم ، هذا الاثراء الذي تحققه لنفسها الفئة المحتكرة ، يوقظ الشعب إيقاظاً حاسماً . ويتصور الشعب عندئذ أنه لا بد من غدٍ عنيف يحمل إليه الفرج ويعده بالخير . وهذه الفئة البورجوازية المحتكره، هذا الجزء من الشعب الذي يستأثر بمجموع ثروات البلاد، ينتهي ، بمنطق مفهوم وإن يكن غير متوقع ، إلى أن يرى في سائر الزنوج أو في سائر العرب آراء تحط من قيمتهم ، وتذكّر من عدة وجوه بالنظرية العرقية التي كان يدين بها ممثلو الدولة المستعمِرة. فهذا البؤس الذي يعانيه الشعب ، وهذا الاثراء الفوضوي الذي تحققه الفئة البورجوازية المحتكرة ، وهذا الاحتقار العلني الذي تشعر به هذه الفئة نحو سائر الأمة ، هذا كله هو الذي سيعمّق الآراء ويقوي الاتجاهات .

غير أن هذه الأخطار التي تلوح في الأفق ، تؤدي إلى تشديد السلطة وظهور الدكتاتورية . فالزعيم الذي يجر وراءه حياة مناضل جريء وطني مخلص هو حاجز يقوم بين الشعب وبين البورجوازية الجشعة ، لأنه يحمي أعمال هذه الفئة ، ويغمض عينيه عن وقاحة هؤلاء البورجوازيين وحقارتهم ومجافاتهم للأخلاق . إن الزعيم يساهم في لجم وعي الشعب . إنه يهبّ إلى نجدة الفئة المحتكرة، ويخفي عن الشعب مناوراتها ، ويصبح بذلك من اشد العاملين حماسة في تضليل الجماهير وتخديرها . إنه كلما خاطب الشعب ذكّره بحياته وهي حياة بطولية في كثير من الأحيان ، وذكّره بالمعارك التي خاضها باسم الشعب ، وبالانتصارات التي حققها باسم الشعب ، مشيراً بذلك إلى ان على الجماهير أن تستمر في محضه ثقتها . ما أكثر الأمثلة على أولئك الوطنين الافريقيين الذين أدخلوا على السياسة النضالية المتحفظة التي كان يتبعها سابقوهم أسلوباً حاسماً قومياً ! إن هؤلاء الرجال قد جاءوا من الأرياف وكانوا يتكلمون باسم الزنوج ، وكان ذلك مثار دهشة المستعمر المتسلط ، ومثار خجل الوطنيين المقيمين بالعاصمة ! ان هؤلاء الرجال يصبحون اليوم – وا أسفاه ! – على رأس فئة من الناس تدير ظهرها للأرياف ، وتعلن أن رسالة الشعب هي أن يكون تابعاً ، وان يظل تابعاً .

إن الزعيم يهدىء الشعب . إنه لعجزه عن دعوة الشعب الى اعمال محسوسة ملموسة ، لعجزه عن أن يفتح للشعب باب المستقبل حقاً ، وأن يدفع الشعب في طريق بناء الأمه ، وبالتالي في طريق بناء نفسه ، يظل سنين طويلة لا يزيد على أن يجتر تاريخ الحصول على الاستقلال ، وعلى ان يذكّر بالوحـدة المقدسة التي رافقت نضال التحرير . إن الزعيم ، لرفضه تحطيم البورجوازية الوطنية ، يطلب الى الشعب ان ينكفىء الى الماضي وأن يسكر بذكرى الملحمـة التي أدت الى الاستقلال . وفي وسعنا أن نقول إن الزعيم يوقف سير الشعب – موضوعياً – ويعمل جاهداً إما على طرده من التاريخ وإما على منعه من دخول التاريخ. لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرير يوقظ الشعب ويعِدُه بزحف بطولي جـذري . أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخدير الشعب وتنويمه ، ويذكّره ثلاث مرات أو أربعاً كلّ عام بعهد الاستعمار طالبـاً أن يقدّر الطريق الطويل الذي قطعته البلاد .

ولكن يجب أن نعترف بأن الجماهير تعجز عجزاً كامـلاً عن تقدير الطريق الطويل المقطوع . إن الفلاح الذي ما يزال يجهـد في الأرض ، والعاطل الذي ما يزال عاطلاً ، لا يستطيعان رغم الاحتفـالات ورغم الأعلام الجديـدة أن يقتنعا بأن شيئاً في حياتهما قد تغير حقـاً . ومهما تكثر البورجوازية الحاكمة من التظاهرات ، فإن الجماهير تظل عاجزة عن أن تؤخذ بالأوهام . الجماهـير ما تزال جائعة ، ومفوضو الشرطة الذين أصبحوا الآن إفريقيـين بعد ان كانوا أوروبين لا يطمئنون هذه الجماهير كثيراً . وتأخذ الجماهير بالحرون والإشاحة ببصرها وعدم الاكتراث بهذه الأمـة التي لا تفسح لها أي مجال ولا تخلق لها أي مكان .

وأثناء ذلك يعبىء الزعيم قواه من حين الى حـين ، فيتحدث في الراديو ، ويقوم بجولة لتهدئة الخواطر وتضليل العقول . والزعيم ضروري خاصة حين لا يكون ثمة حزب . لقد كان هناك حزب يقوده هذا الزعيم نفسه أثناء مرحلة الكفاح في سبيل التحرير . ولكن هذا الحزب قد تحلل بعد ذلك ، ولم يبـق

منه الا الشكل والاسم والرمز . ان الحزب المنظم الذي كان يتيح سريان فكرة تكونت على أساس الحاجات الحقيقية للجماهير ، قد استحال الآن الى نقابة لضمان مصالح أفراد . لقد أصبح الحزب منذ الاستقلال لا يساعد الشعب في التعبير عن مطالبه، وفي وعي حاجاته مزيداً من الوعي وفي توطيد قوته مزيداً من التوطيد. لقد أصبحت وظيفة الحزب الآن هي أن يوصل إلى الشعب التعليمات الآتية من القمة . وزال ذلك الذهاب والاياب من القاعدة الى القمة ومن القمة إلى القاعدة ، زال ذلك التواصل الخصب الذي هو أساس الأحزاب وضمانة ديموقراطيتها. إن ما بني من الحزب هو نقيض ذلك تماماً : لقد أصبح الحزب حاجزاً بين الجماهير وبين القيادة . أصبح الحزب بغير حياة . إن الخلايا الحزبية التي نُظمت في عهد الاستعمار قد سُرِّحت الآن من الخدمة تسريحاً كاملاً .

ويقضم الجاهل لجامه . ويدرك الناس صواب المواقف التي اتخذها بعض المناضلين أثناء كفاح التحرير . ان كثيراً من المناضلين قد طلبوا من أجهزة القيادة إبان المعركة ان تنشىء عقيدة ، وان توضح أهدافاً معينة ، وان تضع برنامجاً . ولكن القادة رفضوا يومئذ رفضاً باتاً ان يواجهوا هذه المهمة ، بحجة المحافظة على الوحدة الوطنية . كانوا يرددون قولهم : عقيدتنا هي الوحدة الوطنية ضد الاستعمار. وكانوا بتسلحهم بهذا الشعار القوي الذي اتخذوه عقيدة، وبقصرهم النشاط العقائدي على أقوال شتى عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها ، يمضون مع تيار التاريخ الذي لا بد أن يعصف بالاستعمار ، وان يطوِّح بة. حتى اذا طالبهم المناضلون بأن يحللوا تيار التاريخ هذا مزيداً من التحليل جابهوهم بقولهم :ان الاستعمار صائر الى زوال لا محالة. .

ويجيء الاستقلال ، ويوشك الحزب أن يصبح جثة هامدة . إنهم الآن لا يعبئون اعضاء الحزب إلا لمظاهرات يسمونها شعبية ، ولمؤتمرات دولية ولاحتفالات بأعياد الاستقلال . إن القيادات الحزبية المحلية قد عُيِّنت لوظائف إدارية ، والحزب استحال الى دائرة حكومية ، وعاد الحزبيون الى أماكنهم يحملون هذا الاسم الأجوف : مواطن .

إنهم بعد أن قاموا بمهمتهم التاريخيــة ، وهي ايصال البورجوازية الى سدة الحكم ، مدعوون بقوة إلى الانسحاب ، حتى يتيحوا للبورجوزاية أن تقوم برسالتها الخاصة في جو هادىء . ولكن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عاجزة ، كما رأينا ذلك ، عن تحقيق أية رسالة . وما هي إلا بضع سنين حتى يصبح تحلل الحزب واضحاً لكل عـــين ، ويدرك كل مراقب عندئذ ، ولو كان سطحياً ، أن الحزب القديم الذي أصبح الآن هيكلاً عظيماً ، لا يفيد إلا في تجميد الشعب . إن الحزب الذي جذب إليه أثناء معركة الكفاح مجموع الأمة يتحلل الآن . والمثقفون الذين انضموا الى الحزب غداة الاستقلال يؤكدون بسلوكهم أن انضمامهم ذاك لم يكن له من هدف إلا الاشتراك في المائدة التي جاء بها الاستقلال . لقد أصبح الحزب وسيلة نجاح فردي .

على ان هنالك تفاوتاً في الإثراء والاحتكار في داخل العهد الجديد . فبعض الأفراد يأكلون على عدة موائد ، ويُظهرون في مجال الانتهازية مقدرة فائقـة واختصاراً باهراً . وتتكاثر الامتيازات ، وتنتصر الرشوة ويعم الفساد وتنهار الأخلاق . لقد أصبحت الغربان أكثر عدداً وأشد شراهة من ان تكفيها المغانم الوطنية الهزيلة . والحزب الذي أصبح أداة للسلطة في أيـــدي البورجوازية ، يقوّي جهاز الدولة ويجمّد الشعب ، وما ينفك يصبح اداة قمع وعدواً للديموقراطية . لقد أصبح الحزب شريكاً للبورجوازية المتاجرة ، عن غير وعي وعن وعي . وكما تنسحب البورجوازية من مرحلة البناء وتغوص في حمأة الملذات ، كذلك هي على الصعيد الدستوري تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع الفاشستي . وأننا نعلم اليوم أن تلك الفاشستية الصغيرة التي انتصرت في أمريكا اللاتينية خلال نصف قرن إن هي إلا ثمرة منطقيـة لقيام دولة شبه استعمارية في عهد الاستقلال .

ففي هذه البلاد الفقيرة المتخلفة ، التي نرى فيها ، وفقاً للقاعدة ، أكبرَ ثراء يتاخم أبأس َفقر ، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم ، وهما جيش وشرطة يشرف على توجيهما خبراء أجانب ، وهذه قاعدة أخرى يجب ان

نتذكرها . وتكون قوة هذه الشرطة وسلطة هذا الجيش متناسبتين مع حالة الركود التي يعيش فيها سائر الأمة . إن البورجوازية الوطنية تبيع نفسها للشركات الأجنبية الكبرى بصراحة ما تنفك تزداد . وبالرشوة ينتزع الأجنبي الامتيازات تلو الامتيازات ، وتتكاثر الفضائح ، ويغتني الوزراء وتستحيل نساؤهم الى دمى ، ويدبر النواب أمورهم ايضاً ، ولا يبقى شرطي ولا موظف من موظفي الجمرك إلا ويشارك في هذه القافلة من الرشوة والفساد .

ويزداد تهجم المعارضة ، ويدرك الشعب دعايتها بنصف كلمة . وتبرز معاداة البورجوازية . إن البورجوازية الفتية التي دلفت الى الشيخوخة وهي في ريعان الشباب لا تقيم وزناً للنصائح التي تبذل لها ، وتبدو عاجزة عن ان تفهم ان من مصلحتها ان تحجّب استغلالها ولو بغلالة رقيقة .

إن جريدة مسيحية جداً ، جريدة « الأسبوع الأفريقي » ، هي التي كتبت تخاطب أمراء العهد القائم بقولها . « يا أيها الرجال الذين تحتلون المراكز ، وأنتن يا نساءهم ، إنكم تتمتعون الآن بالثراء والرخاء ، وربما كنتم تنعمون ايضاً بالتعليم والثقافة ، كما تنعمون بمنزلكم الجميل ، وبعلاقاتكم الاجتماعية ، وبالمهمات التي تسند إليكم فتفتح لكم آفاقاً جديدة . ولكن ثراءكم يعصب أعينكم فيحول بينكم وبين رؤية البؤس الذي يحيط بكم . ألا فاحذروا العواقب » . ولعل القارىء يدرك ان هذا التحذير الذي توجهه جريدة « الاسبوع الأفريقي » الى اعوان السيد « يولو » لا يشتمل على أي روح ثورية ، فانما الأمر الذي تريد جريدة « الأسبوع الأفريقي » أن توصله الى اسماع مجوّعي الشعب الكونغولي هو أن الله سيعاقبهم على سلوكهم هذا : «اذا لم يكن في قلوبكم مكان للعطف على هؤلاء الناس الذين هم دونكم ، فلن يكون لكم في بيت الله مكان » .

وواضح ان البورجوازية الوطنية لا تهتم كثيراً بهذه الاتهامات . إنها ، وهي معلقة بأوروبا ، تظل مصممة تصميماً قوياً على انتهاز الفرصة . والأرباح التي تجنيها من استغلال الشعب ما تلبث ان تصدّرها الى الخارج . إن البورجوازية الوطنية الفتية كثيراً ما يكون سوء ظنها بالنظام الذي أقامته أشدّ من سوء ظن

الشركات الأجنبية به . فهي تأبى ان تستثمر أموالهـــا في الوطن ، وتتصرف تجاه الدولة التي تحميها وتغذيها تصرفاً يتصف بنكران الجميل ، وهو أمر واضح يجب ان نشير إليه . إنهـا تشتري سندات مالية من أوروبا ، وتمضي الى باريس أو هامبورغ لقضاء عطلة الاسبوع . إن سلوك البورجوازية الوطنيـــة في بعض البلدان المتخلفة أشبه بسلوك أفراد عصابـة من اللصوص ، ما إن يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفـــوا مرابحهم عن شركائهم ، ويستعدوا للانسحاب في حكمة وتعقل . وهذا السلوك يدل على ان البورجوازية الوطنية تشعر قليلاً أو كثيراً أن لعبتها خاسرة على المدى الطويل إنها تدرك ان هـذا الوضع لن يدوم الى غير نهاية ، ولكنها تريد ان تستفيد منه الى اقصى حـــد ممكن من الاستفادة. غير ان هذا الاستغلال وهذا الظن السيىء بالدولة لا بد ان يثير الاستياء في صفوف الجماهير . وفي هـذه الظروف إنما يصلُب النظام القائم ويقسو ، ويصبح الجيش سنداً لا بد منه للقيام بأعمال قمـــع منظم . فالجيش يصبح هو الحكم وهو المرجع، لأنه ليس ثمة مجلس نيابي. ولكن الجيش يكتشف عاجلاً أو آجلاً أهميته ، ويصبح خطراً يهدد البورجوازية في كل لحظة بانقضاضه على الحكم .

وهكذا نرى ان البورجوازية الوطنية في بعض البـلاد المتخلفـة لم تتعلم من الكتب شيئـاً . فلو انها أمعنت النظر في بلدان أميركا اللاتينيـة ، لأدركت الأخطـار التي تتربص بها . ونخلص إذن الى هذه النتيجة : إن هـــذه البورجوازية الصغيرة التي تحدث كثيراً من الضجيج مآلها الى التحرك وهي في مكانها . ذلك ان المرحلة البورجوازية مستحيلة في البـلاد المتخلفة . فقـد تنشأ دكتاتورية بوليسية ، وقد تنشأ فئة من المنتفعين ، ولكن قيام مجتمع بورجوازي أمر مخفق لا محالة. ان فئة المنتفعين، الذين ينتزعون لأنفسهم أموالاً طائلة من رزق البلاد ، لا بد ان يروا أنفسهم، عاجلاً ، أو آجلاً ، كقشة بين يدي الجيش الذي يحركه خبراؤه الأجانب في مهارة . وهكذا نرى العاصمة الاوروبية التي كانت مستعمِرة تحكم البلاد حكماً غير مباشر ، بواسطة البورجوازيين الذين تغذيهم

وبواسطة الجيش الوطني الذي ينظمه خبراؤها والذي يجمّد الشعب ويرهبه.

هذه الملاحظات التي سقناها بصدد البورجوازية الوطنية تقودنا الى نتيجة يجب ألا تدهشنا : في البلاد المتخلفة يجب ان لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والازدهار. وبتعبير آخر : يجب أن ينصب الجهد المتعاون المنسّق الذي تقوم به الجماهير المنظمة في حزب ، ويقوم به المثقفون الواعون وعياً رفيعاً والمسلحون بمبادىء ثورية ، يجب ان ينصب هذا الجهد على سدّ الطريق أمام قيام هذه البورجوازية العقيمة الضارّة .

إن المسألة النظرية التي تطرح منذ خمسين عاماً حين يُعالج تاريخ البلاد المتخلفة ، أعني : هل يجب الوثب فوق المرحلة البورجوازية أم لا، هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثوري لا بواسطة الاستدلال النظري . ان المرحلة البورجوازية في البلاد المتخلفة لا تكون مبرّرة إلا إذا كانت البورجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفي لبناء مجتمع بورجوازي، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة ، لتصنيع الزراعة ، وأخيراً لقيام ثقافة وطنية أصيلة .

إن بورجوازيةً كالبورجوازية التي نشأت في أوروبا قد استطاعت أن تضع إيديولوجيا ، مع تعزيزها لقوتها الخاصة . إن تلك البورجوازية النشيطة الفعّالة المتعلمة ، العلمانية ، قد نجحت نجاحاً كبيراً في مهمة جمع الرساميل ، وأعطت الشعب حداً أدنى من الرخاء . أما في البلاد المتخلفة ، فقد رأينا أنه ليس هناك بورجوازية حقيقية ، بل فئة محتكرة طويلة الأنياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافه وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة المستعمِرة القديمة . وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثل أفكار كبرى ، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار. إنها تتذكر ما قرأته في الكتب المدرسية الغربية ، فإذا هي تستحيل شيئاً فشيئاً لا الى نسخة عن أوروبا ، بل الى كاريكاتور لأوروبا .

ان النضال ضدّ بورجوازية البلدان المتخلفة ليس موقفاً نظرياً . ليس الأمر

هاهنا أمر إدانة لهامستمدة من حكم التاريخ. يجب علينا أن لا نكافح البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة على أساس أنها قد تعوق نمو الأمة نمواً شاملا منسجماً ، وأنما يجب علينا ان نعارضها معارضة قاطعة لأنها في حقيقة الأمر لا تقوم بأي دور وليس لها أية فائدة . إن هذه البورجوازية التافهة في أرباحها وفي أعمالها وفي فكرها تحاول ان تحجّب هذه التفاهة بأقنعة شتى : بأبنية فخمة على المستوى الفردي ، بسيارات أمريكية غنية بالكروم ، بإجازات تقضيها على شواطىء الريفيرا ، بعطل أسبوعية في الكاباريهات المتوهجة بأضواء النيون . ذلك كل شأنها .

ان هذه البورجوازية التي تزداد تحولاً عن الشعب برمته يوماً بعد يوم لا تظفر حتى بحمل الغرب على تقديم بعض التنازلات : كتوظيف رؤوس أموالهم اقتصاد البلاد ، أو كإقامة بعض الصناعات . وفي مقابل ذلك نرى مصانع التجميع تزداد وتتكاثر ، معزّزة نموذج « الاستعمار الجديد » الذي يتخبط فيه الاقتصاد القومي . يجب ان لا نقول إذن إن البورجوازية الوطنية تؤخر تطور البلاد ، وانها قد تسير بالأمة الى طرق مسدودة غير نافذة . فالواقع هو أن المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد المتخلفة مرحلة لا لزوم لها . وحين ستزول هذه الفئة إذ تلتهمها تناقضاتها فسندرك أنه لم يتحقق شيء منذ الاستقلال ، وأن علينا أن نستأنف كل شيء من أوله ، ان نعود فنبدأ من الصفر . ولن يتم قلب الأمور عندئذ على مستوى البنيانات التي أنشأتها البورجوازية خلال حكمها ، لأن هذه الفئة لا تكون قد فعلت شيئاً غير استلام ميراث الاقتصاد الاستعماري والتفكير الاستعماري والمؤسسات الاستعمارية دون أي تغيير او تبديل.

ومما يسّهل تجميد هذهالطبقة البورجوازية أنها كمارأينا ضعيفة سواء مننا حية العدد ومن ناحية الثقافة ومن ناحية الاقتصاد . ان الطبقة البورجوازية في البلاد المستعمَرة تستمد قوتها الأساسية من الاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية القديمة . وحظ البورجوازية الوطنية من الحلول محل المضطهِد الاستعماري يكون على قدر ما أتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعماريه القديمة . ولكن تناقضات

عميقة تُحدث الاضطرابات والبلبلة في صفوف هذه البورجوازية، وهذا ما يجعل المراقب اليقظ يشعر بأنه ليس ثمة استقرار. إنه لم يتحقق لهذه الفئة حتى الآن شيء من التجانس. فكثير من المثقفين يُدينون هــذا النظام القائم على سيطرة عدد من الأفرد. ان في البـلدان المتخلفة مثقفين وموظفين ونخبة صادقة تشعر شعوراً قوياً بضرورة التخطيط الاقتصادي، وبضرورة إبعــاد المنتفعين ومنع التضليل منعاً صارماً. أضف الى ذلك ان هؤلاء الرجال يناضلون الى حدٍ ما في سبيل إشراك الشعب إشراكاً كبيراً في إدارة الشئون العامة.

انك تكاد تجد دائماً في البـــلاد المتخلفة التي نالت الاستقلال عدداً صغيراً من المثقفين الشرفاء الذين ليس لهم أفكار سياسية معينة واضحة، ولكنهم بغريزتهم يكرهون هذا السعي الحثيث الى المراكز والى المغانم، الذي تتميز بـه الأيام التالية للاستقلال في البلدان المتخلفة. إن الظروف الخاصة بهؤلاء الرجال (كإعالة أسرة كبيرة العدد) وتاريخهم الشخصي (تجارب صعبة، تربيـــة أخلاقية صارمة) هما السبب فيما يشعرون به من احتقار نحو الانتهازيين والمنتفعين. فيجب استعمال هؤلاء الرجال في المعركة الحاسمة التي يُراد خوضها لتوجيه الأمة توجيهاً سليماً. وإذا كان سدُّ الطريق أمام البورجوازية الوطنية يحقق إبعــاد الإثراءات السريعة التي تعقب الاستقلال، وتحاشي مزالق الوحـــدة القومية، وتفسخ الأخـلاق وهيمنة الرشوة والفساد والتقهقر الاقتصادي وقيـــام حكم دكتاتوري مستند الى القوة والتخويف، فإنه أيضاً السبيل الوحيد الى التقدم.

إن مما يضعف عزيمة العناصر التي تؤمن بالديمقراطية والتقدمية إيماناً عميقاً بين أبناء الأمة الفتية، ومما يجعلها خائفة وجلة، هو أن البورجوازية تبدو في الظاهر قوية وطيدة الأركان. ذلك أن جميع القيادات في البلاد المتخلفة التي نالت استقلالها حديثاً إنمــا تتجمع في المدن التي بناها الاستعمار. فيظن المراقب الذي لا يحلل مجموع السكان أن هناك بورجوازية قوية منظمة تنظيما كاملا. والحقيقة أن الأمر ليس كذلك. فنحن نعلم الآن أن البلدان المتخلفة ليس فيها بورجوازية. إن البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب، حتى ولا

آمال ، وإنما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة .

والواقع الاقتصادي في المستعمَرات إنمـــا هو واقع بورجوازي أجنبي. إن بورجوازية البلد المستعمِر هي الموجودة في مدن المستعمرات بممثّليهـــا . إن البورجوازية في المستعمَرات هي قبـــل الاستقلال بورجوازية غريبة ، هي فرع البورجوازية البلد المستعمَر يستمد منها مشروعيته وقوته واستقراره . وفي أثناء فترة الاضطراب التي تسبق الاستقلال تحاول عناصر ثقافية وتجارية من السكان الأصليين الذين يعيشون في نطاق هذه البورجوازية المستوردة ، ان تتشبه بها . ان المثقفين والتجار من السكان الأصليين يريدون دائماً ان يتشبهوا بممثلي بورجوازية البلد المستعمِر .

فهذه البورجوازية التي تبنت متحمسةً ، وبلا تحفظ ، الأساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمِر ؛ هذه البورجوازية التي ضيعت تفكيرهـــا الخاص تضييعاً عجيباً ، وأقامت وعيها على أسس أجنبية صرفة ، لا بد أن تدرك وقد جف حلقها ، أنه يعوزها ذلـــك الشيء الذي يصنع البورجوازية ، أعني المال . إن بورجوازية البلدان المتخلفـــة هي بورجوازية بالفكر . فلا قوتهـــا الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتهـا هي التي تكفل لها صفة البورجوازية . لذلك نراها في بداياتها وخـــلال مدة طويلة تظل بورجوازية موظفين . فالوظائف التي تحتلها في الادارة الوطنية الجديدة هي التي تهب لهـا الهدوء والمتانة . حتى إذا أتاح لها الحكمُ الوقت الكافي والإمكانيات اللازمة استطاعت أن تنسج لنفسها جورباً صغيراً من الصوف يعزز سيطرتها . ولكنها تظل عاجزة عن خلق مجتمع بورجوازي حقيقي مع كل النتائـج الاقتصادية والصناعية التي يعترضها قيام هذا المجتمع .

إن البورجوازية الوطنية تتجه منذ البداية الى فعاليات وساطية . فالأساس الذى تقوم عليه سلطتها إنما هو براعتها في التجارة وقدرتها على خطف الوكالات . فليست أموالها هي التي تعمل ، بل مهارتها في عقـد الصفقات إنها لا تستثمر أموالاً ، ولا تستطيـع تحقيق ذلـك التجمع لرأس المال ، الضروري لقيـام

بورجوازية حقيقية وازدهارها . ولو سارت بهذه الخطى لاحتاجت الى قرون من أجل أن تنشىء نواة تصنيع ، ولاصطدمت على أقل تقدير بمعارضة الدولة المستعمِرة القديمة التي تكون في إطار الاتفاقات التي تنتمي الى نوع « الاستعمار الجديد » قد اتخذت جميع احتياطاتها .

فإذا أراد الحكم أن يُخرج البلاد من الركود وأن يسير بها في طريق النمو والتقدم بخطى سريعة ، كان يجب عليه قبل كل شيء أن يؤمم قطاع الوساطة . ذلك أن البورجوازية التي تغلّب روح الربح واللذة وتقف من الجمهور مواقف احتقار ، وتتهالك على الفائدة بل على السرقة ذلك التهالك الفاضح ، إنما تصب كل نشاطها على ذلك القطاع ؛ إن البورجوازية الوطنية الناشئة تغزو ميدان الوساطة الذي كان يحتله المستوطنون المستعمِرون . إن ميدان الوساطة هو في الاقتصاد الاستعماري أهم الميادين . فاذا أردنا التقدم كان علينا أن نؤمم هذا القطاع منذ الساعات الأولى. ولكن من الواضح أن هذا التأميم يجب أن لا يأخذ طابع سيطرة الدولة على هذا القطاع سيطرة صلبة جامدة . يجب أن لا نعيّن لهذه المصالح رؤساء لا يملكون وعياً سياسياً. فلقد لاحظنا في جميع الحالات التي تم فيها التأميم بهذه الطريقة السيئة أن السلطة قد ساهمت في انتصار دكتاتورية يمارسها موظفون تلقوا ثقافتهم في عاصمة البلاد المستعمِرة ، فسرعان ما ظهروا عاجزين عن فهم الأمور على أساس مجموع الأمة . إن هؤلاء الموظفين سرعان ما يأخذون في تخريب الاقتصاد القومي ، وتفكيك الأجهزة، فاذا الفساد والرشوة والتحيز والمحاباة والتهريب والتحايل والسوق السوداء ، اذا كل ذلك يظهر ويستقر . يجب أن يكون تأميم قطاع الوساطة تنظيماً ديموقراطياً لتعاونيات البيع والشراء، وأن تكون هذه التعاونيات لا مركزية لجعل الجماهير تهتم بإدارة الشئون العامة . وذلك كله لا يمكن تحقيقه ، كما ترون ، إلا بإدخال الجماهير في الحياة السياسية . والواقع أن مبدأ إدخال الجماهير في الحياة السياسية أصبح مبدأ معروفاً في البلدان المتخلفة . ولكن ليس يبدو أن هذه المهمة الأساسية مفهومة فهماً صحيحاً. فحين يؤكدون ضرورية إدخال الشعب في الحياة السياسية

فأنما يعنون في الوقت نفسه أنهم يريدون أن يدعمهم الشعب في عملهم . إن الحكومة التي تصرح بأنها تريد إدخال الشعب في الحياة السياسة انما تعبر عن رغبتها في أن تحكم من الشعب ومن أجل الشعب . ولكن يجب أن لا يكون هذا لغةً غايتها تقنيع اتجاه بورجوازي . ان الحكومات البورجوازية في البلاد الرأسمالية قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه المرحلة الصبيانية من الحكم . انها الآن تحكم ، بهدوء وبرود، بواسطة قوانينها وقوتها الاقتصادية وشرطتها. انها، وقد أصبحت سلطتها متينة وطيدة ، غيرُ مضطرة الى ان تضيّع وقتها في مواقف ديماغوجية ، إنها تحكم بما يحقق مصالحها ، جريئة غير هيّابة . لقد أوجدت مشروعية ، فهي قوية بحقها .

أما الفئة البورجوازية في البلاد التي استقلت حديثاً فانها لا تتصف بعدُ بما تتصف به البورجوازية القديمة من استخفاف ورباطة جأش قائمين على القوة . ومن ثم نرى لديها ذلك الاهتمام باخفاء قناعاتها العميقة ، وبالتظاهر بالشعبية ... ولكن ادخال الشعب في الحياة السياسية لا يكون بحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف من الرجال والنساء ثلاث مرات أو أربع مرات في العام . انهذه الاجتماعات التي تعقد من حين الى حين تشبه الأسلوب القديم الذي كان يُتبع قبل الاستقلال حين كان هؤلاء الناس يعرضون قواهم بغية أن يبرهنوا لأنفسهم وللآخرين على أن الشعب معهم . ان إدخال الشعب في الحياة السياسية لا يعني أن تردَّه طفلاً ، بل أن تجعله راشدا .

وهذا يقودنا الى الكلام على دور الحزب السياسي في بلد متخلف . لقد رأينا في الصفحات السابقة أن هناك أناساً ممن ينظرون الى الامور نظرة تبسيطية ، وهم ينتمون من جهة أخرى الى البورجوازية الناشئة ، ما يفتأون يرددون في كثير من الأحيان أن من الضروري أن تُقاد الامور في البلد المتخلف بسلطة قوية وحتى بحكم دكتاتوري . وعلى هذا الأساس يكلف الحزب بمهمة مراقبة الجماهير . ويكون سندا لرجال الادارة والشرطة ، فيراقب الجماهير لا ليتأكد على أنها تشارك في شؤون الامة حقاً ، بل ليذكّرها دائماً بأن السلطة تنتظر

منها الطاعة والنظام والخضوع. إن هذه الدكتاتورية التي تظن انها ضرورية غداة الاستقلال ، انما تشير في الواقع الى أن الفئة البورجوازية قد قررت أن تحكم البلد المتخلف بمساندة الشعب أولاً ، وضد الشعب بعد ذلك . وما تحولُ الحزب شيئاً فشيئاً الى مصلحة مخابرات إلا دليل على أن الحكومة أخذت تقف موقفاً دفاعياً أكثر فأكثر . إن الحكومة التي تنظر الى الشعب نظرتها إلى كتلة ليست بذات شكل ، تعدّ الشعب قوةً عمياء يجب ترويضها سواء بالتضليل أو بالخوف الذي توقظه في نفسها قوى الشرطة . وليس الحزب إلا بارومترا ، الا مصلحة مخابرات . انهم يحيلون عضو الحزب الى جاسوس . ويعهدون اليه بمهمات تأديبية في القرى . فاذا كانت هناك نواة حزب معارض ضُرب أعضاؤه بالعصا والحجارة من أجل تصفيتهم . حتى أن مرشحي المعارضة يرون الحريق يشب في بيوتهم . وتُضاعف الشرطة استفزازاتها . وطبيعي ان الحزب في هذه الظروف حزب واحد ، والطبيعي والحالة هذه أن يفوز مرشح الحكومة بـ ٩٩،٩٩ ٪ من الأصوات . يجب علينا ان نعترف ان سلوك عدد من حكومات افريقيا هو هذا السلوك . إن جميع أحزاب المعارضة – وهي أحزاب تقدمية على وجه العموم – التي عملت على أن يكون للجماهير مزيد من التأثير في ادارة الشئون العامة ، والتي تمنت إزاحة البورجوازية الحقيرة التجاريه ، قد اضطرت الى الصمت بقوه السياط والسجون ، ثم الى التنظيم السري .

إن الحزب السياسي في كثير من المناطق الافريقيه التي أصبحت الآن مستقلة يعاني إفلاساً خطيرا كل الخطوره . والشعب لا يزيد ، اذا حضر عضو من أعضاء الحزب ، على ان يصمت وعلى ان يتظاهر بأنه حمل وديع ، وعلى ان يكيل الأماديح جزافاً للحكومة وللزعيم . ولكن ليتكم تسمعون في الشارع عند المساء ، في ظاهر القرية أو في المقهى أو على النهر ، ليتكم تسمعون تعبير الشعب عن خيبة ظنه ، عن المرارة التي تعتمل في نفسه ، عن اليأس الذى يملأ قلبه ، ولكن أيضاً عن الحق المكظوم الذي يضطرم في أعماقه . ان الحزب ، بدلاً من ان يشجع على تعبير الشعب عن شكاواه وأوجاعه ، وبدلاً من ان يجعل مهمته تسهيلَ انتقال

افكار الشعب الى القيادة انتقالاً حراً ، ينصب نفسه حاجزاً ومانعاً . إن قادة الحزب يتصرفون تصرف جنود برتبة عريف ، وما يفتأون يذكرون الشعب بضرورة « الصمت في الصف » . إن هذا الحزب الذي كان يعلن انه خادم الشعب ، وانه يعمل على تحقيق الازدهار للشعب ، ما إن تعهد اليه السلطة الاستعمارية بالحكم حتى يسارع إلى إعادة الشعب إلى كهوفه . وعلى صعيد الوحدة القومية ايضاً يرتكب الحزب الأخطاء تلو الأخطاء . ان الحزب الذي يزعم أنه حزب قومي يتصرف تصرف حزب قبلي . إنه قبيلة صارت حزباً . ان هذا الحزب الذي ينادي بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله ، يمارس في السر دكتاتورية قبلية حقيقية ، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة في بعض الأحيان . ونحن لا نشهد عندئذ دكتابورية بورجوازية ، بل دكتاتورية قبلية . فالوزراء ، ورؤساء المكاتب ، والسفراء ، والمحافظون ، انما يتم اختيارهم من بين أفراد قبيلة الزعيم ، حتى لقد يتم اختيارهم من بين أفراد أسرته رأساً في بعض الأحيان . إن هذه الأنواع العائلية من الحكم تذكّر بالقوانين القديمة التي كانت تفرض ان لا يتزوج الرجل الا امرأة من أسرته . والمرء لا يشعر إزاء هذه الحماقة بالغضب بل بالعار ؛ انه يشعر بالعار تجاه هذا الانحطاط العقلي والروحي . ان رؤساء الحكومات هم الخونة الحقيقيون ، هم الذين يخونون افريقيا ، لأنهم يبيعونها لعدو هو ألدّ اعدائها طراً : الحماقة ولا شك في أنكم تقدرون أن سيطرة هذه القبلية على الحكم لا بد أن تؤدي إلى الإقليمية والى الانفصالية. فاذا نحن نرى اتجاهات لا مركزية تظهر وتنتصر ، واذا الشعب يتفكك وتتقطع أوصاله . إن الزعيم الذي كان ينادي « وحدة افريقيا » وهو لا يفكر الا في عائلته ، يستيقظ ذات صباح فاذا هنالك خمس قبائل تطالب هي أيضاً بأن يكون لها سفراؤها ووزراؤها ، فيأخذ يندد « بالخيانة » وهو لا يزال على ما كان عليه من فقدان الشعور بالمسئولية ، ومن فقدان الوعي ، ومن صغار النفس .

لقد أشرنا مراراً إلى أن الدور الذي يقوم به الزعيم كثيراً ما يكون دوراً ضاراً مشئوماً . ان الحزب في بعض المناطق يكون منظماً كتنظيم عصابة يتولى قيادتها الشخص الذي يكون أشد أعضائها قسوة . ويحلو لبعضهم أن يتحدث عن سيطرة هذا الزعيم وعن قوته ، حتى قد يتورع أن يقول بلهجة فيها الرضاوالاعجاب إن هذا الزعيم يرعب أقرب المقربين اليه من معاونيه. فلكي نتحاشىهذه المخاطر الكثيرة يجب أنناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل ان لا يستحيل الحزب أبداً الى أداة طيّعة بين يدي زعيم . ان كلمة زعيم الانكليزية Leader مشتقة من فعل : ساق يسود . فيجب ان نعلم ان الشعب لا ُيساق الآن سوقاً . ليست الشعوب الآن قطعاناً ُتساق ، ولا هي في حاجة الى ُتساق : واذا ساقني الزعيم فانني أريد ان يعلم في الوقت نفسه أنني أسوقه . ما ينبغي ان تكون الأمة كتلة يصرّف شئونها رجل . ومن هنا نفهم ذلك الذعر الذي يستولي على الأوساط الحاكمة حين ُيصاب واحد من هؤلاء الزعماء بمرض . ذلك ان المسألة التي تشغل بال هذه الاوساط وتقض مضاجعها هي مسألة الخلف الذي سيخلف الزعيم إذا مات . ما عسي ان تسير اليه البلاد اذا مات الزعيم ؟ ان الأوساط الحاكمة التي امّحت أمام الزعيم غيرَ شاعرة بالمسؤولية غيرَ واعية للوضع ، مشغولة بالحياة المرهفة التي تعيشها ، وبالحفلات التى تشهدها ، وبالأسفار المأجورة التي تقوم بها والأرباح الكثيرة التي تجنيها، ان هذه الاوساط الحاكمة تشعر من حين إلى حين بالفراغ الروحي الذي يرين في قلب الشعب .

إن البلاد التي تريد حقاً أن تحل القضايا التي يطرحها عليها التاريخ ، التي تريد حقاً أن تحقق لمدنها الازدهار، وأن تنمي عقول سكانها ، يجب انيكون لها حزب حقيقي . وليس الحزب أداة بين يدي الحكومة ، بل الحزب أداة بين يدي الشعب . الحزب هو الذي يقرر السياسة التي تطبقها الحكومة . ليس الحزب،وما ينبغي للحزب أن يكون - المكتبَ السياسي الذييلتقي فيه اعضاء الحكومة وكبار المسئولين على راحتهم . ان المكتب السياسي كثيراً ما يكون

الحزبَ كله وا أسفاه ! وأعضاء المكتب السياسي يقيمون دائماً في العاصمة . مع أن من الضروري في البلاد المتخلفة أن يفرّ المسئولون الحزبيون من المدن فرارَهم من الطاعون . إن عليهم أن يقيموا في المناطق الريفية ، إلا عدداً قليلا منهم . يجب أن نتحاشى تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة . وما من عذر من الاعذار الادارية يمكن أن يسوّغ هذا الغليان الشديد في العاصمة التي تكشو منذ الآن من فرط عدد السكان ومن فرط النمو بالقياس ألى تسعة أعشار مساحة البلاد . يجب تخليص الحزب من التمركز إلى حد ممكن . فتلك هي السبيل الوحيد إلى تنشيط المناطق الميتة التي لم تستيقظ على الحياة بعد .

يجب عملياً أن يقيم عضو واحد على الأقل من أعضاء المكتب السياسي في كل منطقة من المناطق ، ويجب أن نتحاشى تعيينه رئيساً للمنطقة . يجب أن لا يتسلم سلطات إدارية . ليس من الضروري أن يحتل عضو المكتب السياسي أعلى مركز في الجهاز الإداري للمنطقة . يجب أن لا يكون جزءاً من السلطة بالضرورة . يجب أن لا يكون الحزب في نظر الشعب هو السلطة ، بل الجهاز الذي بواسطته يستطيع الشعب من حيث هو شعب ان يمارس سلطته ويحقق ارادته . وكلما فرقنا بين الحزب والحكم ، أزلنا ازدواج السلطة وكنا نكفل للحزب ان يحقق رسالته كمرشد وموجه ، كما كنا نكفل له أن يكون في نظر الشعب ضمانة حاسمة . أما إذا كان هناك اندماج بين الحزب والسلطة ، كان الانتساب الى الحزب يعني سلوك الطريق الأقصر الى تحقيق غايات أنانية ، الى الحصول على منصب في جهاز الحكم ، الى نيل ترفيع في الوظيفة أو تغيير في الوضع ، أو ما الى ذلك .

إن من شأن القيادات المحلية النشيطة في البلاد المتخلفة أن توقف عملية تضخم المدن ، وأن تحول دون تدفق الجماهير الريفية الى هذه المدن تدفقاً مضطرباً غير متسق . إن خلق قيادات محلية منذ الأيام الأولى للاستقلال ، قيادات تملك في المنطقة كل الصلاحيات اللازمة لإيقاظ المنطقة وإحيائها وتعجيل وعي المواطنين فيها ، ان خلق هذه القيادات المحلية ضرورة ليس في وسع أي بلد يريد التقدم

أن يفلت منها . وإلا رأينا المسؤولين الحزبيين ورجال الحكم يتجمعون حول الزعيم ، ورأينا الإدارات تتضخم ، لا لأنها تنمو وتتنوع ، بل لأن أقرباء جددا وحزبين جدداً ينتظرون منصباً ويأملون أن يتسربوا الى عجلة الوظائف ، ورأينا كل مواطن يحلم أن يجيء الى العاصمة لينال نصيبه من الحلوى ، ورأينا المناطق البعيدة تخلو من سكانها ، والجماهير الريفية التي ما نظمت ولا ربيت ولا دعمت ، تتحول عن الأرض التي لم تحسن حرثها وتتجه الى الضواحي المحيطة بالمدن ، فتتضخم بها البروليتاريا تضخماً لا يقف عند حد .

وتوشك الأمة أن تعاني أزمة وطنية اقتصادية جديدة . إننا نعتقد أن المناطق الداخلية في البلاد هي التي يجب أن تخص بالامتياز . بل قد لا يكون هناك أي ضرر من انتقال الحكومة الى مكان غير العاصمة . يجب أن لا تظل العاصمة عاصمةً الى الأبد . يجب أن نبرهن للجماهير المحرومة أننا من أجلها إنما نقرر ان نعمل . وهذا ما حاولته الحكومة البرازيلية ، بمعنى من المعاني ، حين شيدت برازيليا . إن امتيازات ريو دو جانيرو إهانة للشعب البرازيلي . ولكن من المؤسف ان العاصمة الجديدة برازيليا لا تقل عن العاصمة الأولى شموخاً أشوه. والفائدة الوحيدة التي تحققت من تشييد هذه العاصمة الجديدة انه يوجد الآن طريق يشق الغابات ليدخل إليها . نعم ليس هناك أي باعث ذي بال يمكن أن يحول دون اختيار عاصمة أخرى . وان يمنع انتقال مجموع الحكومة الى منطقة من المناطق المحرومة . إن فكرة العاصمة في البلاد المتخلفة هي فكرة تجارية من مخلفات عهد الاستعمار . يجب علينا في البلاد المتخلفة أن نضاعف الاتصال بالجماهير الريفية . علينا أن نجعل سياستنا قومية تتناول الجماهير. يجب أن لا نفقد اتصالنا بالشعب الذي كافح في سبيل استقلاله وفي سبيل تحسين حياته تحسيناً محسوساً ملموساً .

إن على الموظفين والفنيين من أهل البلاد أن يغوصوا لا في الخطوط البيانية والإحصاءات ، بل في جسم الشعب . يجب عليهم أن لا يغضبوا أشد الغضب كلما أُريدَ نقلهم إلى « المناطق الداخلية » . يجب أن نرى بعد الآن أولئك

النساء الشابات في البلدان المتخلفة يهددن أزواجهن بالطلاق إذا هم لم يتوسلوا بجميع الذرائع الممكنة ليحولوا دون تعيينهم لوظيفة في الريف. لذلك كان لزاماً على المكتب السياسي للحزب أن يجعل المناطق المحرومة هي المناطق التي يخصها بالامتياز وينبغي لحياة العاصمة، الحياة المصطنعة السطحية اللازقة بالواقع القومي لزوق جسم غريب عنه، أن لا تحتل إلا أقل مكان ممكن في حياة الأمة التي هي الحياة الأساسية المقدسة.

وعلى الحزب في البلاد المتخلفة أن لا يكتفي بالاتصال بالجماهير، وإنما ينبغي له أن يكون تعبيراً مباشراً عن الجماهير. ليس الحزب جهازاً مهمته نقل أوامر الحكومة، بل الحزب هو الناطق القوي بلسان الجماهير، وهو المدافع الصامد عن الجماهير. وللوصول إلى فهم الحزب هذا الفهم يجب قبل كل شيء أن نتحرر من تلك الفكرة الغريبة جداً، البورجوازية جداً وبالتالي المسيئة جداً، الفكرة القائلة بأن الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها. إن التجربة تبرهن في الواقع على أن الجماهير تفهم أعقد المشكلات فهماً كاملاً. إن من أهم الخدمات التي أدتها الثورة الجزائرية للمثقفين الجزائريين أنها وصلتهم بالشعب، وأتاحت لهم أن يروا ذلك البؤس الفظيع الرهيب الذي يعانيه الشعب، وأن يشهدوا في الوقت نفسه يقظة الذكاء وتقدم الوعي لدى هذا الشعب. إن الشعب الجزائري، هذه الكتلة من الجائعين والأميين، من الرجال والنساء الذين ظلوا غارقين في أحلك ظلمات الجهل قروناً طويلة، قد صمد للدبابات والطائرات، للقذائف المحروقة والدوائر السيكولوجية، وصمد خاصة لمحاولات الرشوة والافساد وغسل الدماغ، وصمد للخونة والجيوش «الوطنية» التي يقودها الجنرال بيلوني. صمد هذا الشعب رغم الضعاف والمترددين والأجراء، صمد لأن كفاحه خلال سبع سنين قد فتح له ميادين كان لا يتصور حتى وجودها. واليوم تعمل مصانع الأسلحة في الجبال على عمق عدة أمتار تحت الأرض، وتعمل محاكم للشعب بجميع درجاتها، وتتولى لجان محلية للتخطيط حصر الملكيات الكبيرة، استعداداً لبزوغ جزائر الغد. قد يعجز رجل منعزل عن فهم مشكلة من

المشاكل أما الجماعة، أما القرية بكاملها فانها تفهم الأمور بسرعة تحيّر العقل. صحيح أنك إذا حرصت كل الحرص على أن تستعمل لغة لا يفهمها إلا الحاصلون على شهادة الليسانس في الحقوق أو العلوم السياسية، تستطيع أن تبرهن على أن الجماهير يجب أن تساق سوقاً. أما إذا استعملت اللغة المحسوسة الواضحة، ولم تكن ممن يستبد بهم حرص شاذ على تلبيس الأمور، على التخلص من الشعب، فإنك ما تلبث أن تدرك أن الجماهير تدرك أدق المشكلات وأرهف المسائل. إن لجوءك إلى لغة تكنيكية معناه أنك قررت أن تعد الجماهير جاهلة. إن هذه اللغه تدل على رغبة أصحابها من المحاضرين في أن يخدعوا الشعب وفي أن يدعوه خارج القضية. ليس استعمال لغة غامضة إلا قناعاً يخفي وراءه حرصاً على النهب. إن من يستعمل هذه اللغة الغامضة إنما ينتزع من الشعب رزقه وسيادته معاً. إن المرء يستطيع أن يشرح للشعب كل شيء متى أراد حقاً أن يفهمه الشعب. فإذا ظن أنه ليس في حاجة إلى الشعب، إذا حسب أن الشعب يعرقل سير الشركات الخاصة ذات المسئولية المحدودة، التي تهدف إلى جعل الشعب يعاني مزيداً من البؤس والفقر، فقد حسمت المشكلة...

من ظن أن في الإمكان أن يقاد بلد من البلدان دون أن يقحم الشعب أنفه في ذلك، من ظن أن الشعب يبلبل بمجرد حضوره الأمور، فيؤخر التقدم أو يخرب الوضع بجهله الطبيعي، من ظن ذلك فلا تردد عنده: يجب إبعاد الشعب. ولكن الواقع هو أن الشعب إذا دعي إلى قيادة البلاد لا يؤخر الحركة بل يعجلها. وقد أتيح لنا نحن معشر الجزائريين خلال هذه الحرب التي نخوضها أن نلمس بأيدينا عدة أشياء. إن المسئولين السياسيين والعسكريين من رجال الثورة قد واجهوا في بعض المناطق الريفية ظروفاً اقتضت حلولاً جذرية. وسنعرض الآن لبعض هذه الظروف.

في أثناء عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧، حرّم الاستعمار الفرنسي بعض المناطق، فأصبح تنقل الأشخاص في هذه المناطق خاضعاً لقيود صارمة. وأصبح الفلاحون لا يستطيعون أن يذهبوا إلى المدينة بحرية لتجديد مؤنهم. فأخذ

البقّالون يكدسون أرباحاً ضخمة ، حتى بلغت أسعار الشاي والقهوة والسكر والتبغ أرقاماً خارقة ، وانتصرت السوق السوداء انتصاراً هائـــلاً . وأصبح الفلاحون الذين لا يستطيعون المقايضة يرهنون محاصليهم بـل وأراضيهم ، أو يأخذون يبيعون إرث الأسرة قطعة قطعة ، ثم ينتهون في مرحلة ثانية إلى العمل في الأرض لحساب البقّال . فما أن أدرك المفوضون السياسيون هذا الخطر حتى بادروا إلى اتخاذ الاجراءات اللازمة فوراً ، فوضعوا نظاماً عقليـــاً للتموين : فالبقّال الذي يذهب إلى المدينة عليه أن يشتري بضائعه من تجار وطنيين يعطونه فواتير تذكر فيها أسعار البضائع ، حتى إذا عاد إلى القرية كان عليه أن يذهب فوراً إلى المفوّض السياسي الذي يدقق في الفواتير ، ويحدد الربح ويعين تسعيرة البيع . وعلى البقال بعد ذلك أن يسجل على البضائع في حانوته أسعارهـــا المفروضة ، ويكون هنالك رجل من رجال القرية يبصّر الفلاح بأسعار البضائع ويكون أشبه برقيب على البقال . غـير أن البقالين ما لبثوا أن اكتشفوا حيلة يلجأون إليها ، فما هي إلا أيام ثلاثة أو أربعة حتى يدعوا أن البضاعة قد نفذت ، ثم يأخذون يبيعون خفية بأسعار فاحشة .

وكان ردّ السلطة السياسية العسكرية جذرياً ، فُرضت غرامات ضخمة على المخالفين ، وجُمعت الغرامات وأودعت صندوق القرية لانفاقها في الـــبرّ ، أو لاستعمالها في أعمال ذات مصالح مشتركة . حتى لقـد تقرر في بعض الأحوال إغلاق الحانوت إلى أجل مسمى . فإذا تكررت المخالفة صودر المحل فوراً وعهد إلى لجنة منتخبة بادارته ، وأعطى صاحب المحل مرتباً شهرياً .

وعلى أساس هذه التجارب شرحنا للشعب القوانـين الاقتصادية الكبرى بالاستناد إلى حالات محسوسة . فلم يعد قانون تجميع رأس المـــال نظرية من النظريات ، بل سلوكاً واقعياً جـــداً راهناً جداً : أدرك الشعب كيف أن في وسع فرد من الأفراد يعمل في تجارة أن يصيب ثراءً كبيراً ، وأن يوسع تجارته وعندئذ فقط أخذ الفلاحون يقصّون كيف ان هذا البقـال كان يقرضهم أموالاً بربا فاحش ، وذكر آخرون كيف أنه طردهم من أراضيهم وكيف أصبحوا عمالاً

بعد أن كانوا مالكين. وكلما ازداد الشعب فهماً للأمور ، ازدادت يقظته وأصبح يدرك أن كل شيء متوقف عليه ، وأن سلامته رهن باتحاده ، وبمعرفة مصالحه وبتعيين أعدائه . وفهم الشعب أن الغنى الذى حصّله الأغنياء لم يكن ثمرة العمل بل كان ثمرة سرقة منظمة محميّة . وأصبح لا ينظر إلى الاغنياء نظرته إلى أناس محترمين بل إلى حيوانات مفترسة، إلى ذئاب، ألى غربان تتمرغ في دماء الشعب . وفي مضمار آخر قرر المفوّضون السياسيون ان لا يعمل أحد أجيراً لأحـــد ، فالأرض لمن يزرعون الأرض . وهذا مبدأ أصبح بالشرح قانوناً أساسياً في الثورة الجزائرية ، وُحمل المزارعون الذين كانوا يستعملون عمالاً زراعيين على أن يدفعوا لهؤلاء الذين عملوا لهم أنصبةً من الأرباح .

ولاحظنا عندئذ أن غلة الهكتار قد تضاعفت ثلاثة أضعاف ، وذلك رغم هجمات الفرنسيين وقصف الطائرات وصعوبة الحصول على الأسمـــدة . وأراد الفلاحون الذين استطاعوا عند الحصاد أن يقدروا محاصيلهم وأن يزنوها ، أرادوا أن يفهموا هـذه الظاهرة ، فسرعان مـا اكتشفوا أن العمـل ليس أمراً بسيطاً ، وأن العبـــودية لا تتيح العمل ، وأن العمل يفترض الحرية والمسئولية والوعي .

في هذه المناطق التي استطعنا أن نطبق فيها هذه التجارب البناءة ، في هذه المناطق التي شهدنا فيها تحقق الانسان بالتشريـع الثـــوري ، أدرك الفلاحون إدراكاً واضحاً جداً ذلك المبدأ الذي يقول إن الانسان يستمتع بالعمل على قدر إقدامه على بذل الجهد عن وعي واضح . لقد استطعنا أن نُفهم الجمـاهير أن العمل ليس إنفاق طاقة أو تشغيل عضلات فحسب ، فإنمـــا يعمل المرء بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه . وكذلك اضطررنا في هذه المناطق الـتي تحررت ولكنها أُبعدت في الوقت نفسه عن الدورة التجارية القديمة ، اضطررنا أن نبدل الانتاج الذي كان قبل ذلك متجهاً نحو المدن ونحو التصدير فحسب . فنظمنا الانتاج علي أساس حاجة الشعب وحاجة وحدات جيش التحرير الوطني إلى الاستهلاك . ضاعفنا إنتاج العدس أربعة أضعاف ونظمنا صنع فحم الخشب .

وأصبحت الخضار والفحم الحجري تأتي من مناطق الشمال إلى الجنوب عن طريق الجبال ، وأخذت مناطق الجنوب ترسل اللحوم إلى الشمال . وكانت جبهة التحرير الوطني هي التي قررت إحداث هذا التنسيق ووضعت خطة نقل المحاصيل . ولم يكن لدينا إخصائيون في التخطيط متخرجون من مدراس الغرب الكبرى ، ولكن هذه المناطق المحررة قد بلغ الراتب الغذائي اليومي فيها حداً لم تعرفه من قبل وهو ٣٢٠٠ حريرة . ولم يكتف الشعب بتحقيق النصر في هذه التجربة ، بل أخذ يطرح مسائل نظرية . مثال ذلك : لماذا كان بعض المناطق لا يرى البرتقال قبل حرب التحرير مع أن البلاد كانت تصدّر منه إلى الخارج ملايين الأطنان سنوياً، ولماذا كان عدد كبير من الجزائريين لا يعرف العنب مع أن ملايين العناقيد من عنب الجزائر كانت تتلذذ بها الشعوب الأوروبية ؟ لقد أصبح الشعب يعرف اليوم ما يملكه معرفة واضحة . أصبح الشعب الجزائري يعلم اليوم أنه المالك الوحيد لأرض بلاده ولما يضمه جوف هذه الأرض من ثروات . وإذا كان هناك أناس لا يفهمون لماذا تحرص جبهة التحرير الوطني هذا الحرص كله على أن لا تتهاون أي تهاون في حق التملك هذا، ولا يفهمون عزمها العنيد الوحشي على رفض أية تسوية حول هذه المبادىء ، فليتذكروا أن الشعب الجزائري أصبح اليوم شعباً راشداً ، مسئولاً ، واعياً . إن الشعب الجزائري قد أصبح اليوم شعباً مالكاً .

لقد استشهدنا بمثال الشعب الجزائري في توضيح كلامنا ، لا من أجل أن نمجد شعبنا، بل لأننا أردنا أن نبين الدور الكبير الذي حققته معركته في تنمية وعيه . وواضح أن هناك شعوباً أخرى وصلت إلى هذه النتيجة نفسها بطرق شتى . إن لجوء الشعب الجزائري إلى استعمال القوة أمر لم يكن منه بد ، والناس يدركون اليوم ذلك أكثر مما كانوا يدركونه من قبل ، غير أن هناك مناطق أخرى استطاعت بالنضال السياسي والشرح والتنوير الذي تولاه الحزب ، أن تصل إلى هذه النتائج نفسها . لقد أدركنا في الجزائر أن الجماهير في مستوى المشكلات التي تجابهها . والتجربة تدل على أن المهم في بلد متخلف ليس هو أن يفهم وأن

يقرر ثلاثمائة شخص ، وإنمـــا المهم أن يفهم الشعب كـله وأن يقرر كله ولو اقتضى ذلك وقتاً مضاعفاً ضعفين أو ثلاثة أضعاف . فالوقت الذي تنفقه في الشرح ، الوقت الذي « تضيّعه » في توعية العاملين ، لا يذهب هدراً ، بل يُتدارك ويُسترد في التنفيذ . يجب أن يعرف الناس إلى أين هم ماضون ، ولماذا يمضون إلى حيث هم ماضون ؟ ينبغي لرجل السياسة أن لا يجهل أن المستقبـل سيظل مسدوداً ما ظل وعي الشعب قاصراً ضعيفـــاً كثيفاً . إن علينا ، نحن رجال السياسة الإفريقيين ، أن تكون أفكارنا عن حالة شعبنا واضحة جداً . ولكن هذا الادراك الواضح يجب أن يظل ديالكتيكياً إلى الأعماق . إن يقظة الشعب كله لن تتم دفعة واحدة ، وانخراط الشعب في عمل البـــناء القومي انخراطاً منظماً أمر طويـل ، أولاً لأن طرق المواصلات ووسائل النقل غـــير متطورة تطوراً كافياً ، وثانياً لأن الزمانية لن تكون زمانية اللحظة الراهنة أو المحصول القادم بل زمانية العالم ، وأخـــيراً لأن اليأس الراسخ في قرارة العقول بنتيجة السيطرة الاستعمارية ما يزال متأهبـــاً . ولكن يجب علينا أن لا نجهـل أن الانتصار على عُقـَدِ الانزلاق في الطريق الأسهل ، وهي من مواريث السيطرة على البـــلاد مادياً وروحياً ، ضرورة ليس في وسع أية حكومة أن تتملص منها . انظروا مثـــلاً إلى العمل في عهد الاستعمار . إن المستوطنين المستعمِـرين لم ينقطعوا لحظة عن القول إن السكان الأصليـين كسالى بطيئون . اليوم نرى في بعض البلاد المستقلة أناساً مسئولين يعودون إلى هـذه النغمة ويرددون هذه الإدانة . وواقـع الأمر إن المستوطن المستعمِـر كان يريد أن يكون العبد متحمساً . كان يريد ، بنـــوع من التضليل ، أن يقنـع العبد بأن الأرض التي يزرعها هي له ، وأن المناجم التي يفقد فيها عافيته هي ملكه . وكان المستوطن المستعمِـر ينسى نسياناً عجيباً أنه إنمـــا يغتني بفضل احتضار العبد . لقد كان المستوطن المستعمِـر يقول للمستعمَر عمليـاً : « لتفطس أنت ، ولأغتن أنا » . وعلينا الآن أن لا نفعل مثل هذا . علينا أن لا نقول للشعب : « لتفطس أنت ولتغتن البـــلاد » إذا نحن أردنا أن نزيد الدخل القومي ، وإذا

نحن أردنا أن نمنع استيراد بعض المنتجات غير المفيدة بل والضاره ، وإذا نحن أردنا أن نزيد الانتاج الزراعي ، وأن نحارب الأمية ، فعلينا أن نشرح للشعب الأسباب التي تدفع إلى ذلك كله . يجب أن يفهم الشعب أهمية ما نقدم عليه من عمل . يجب أن يعرف الشعب الشؤون التي تتصل بالشعب . ومن هنا تفهمون ضرورة إكثار خلايا القاعدة إن ما يحدث في كثير من الأحيان هو أننا نكتفي بإنشاء منظمات وطنية في القمة وفي العاصمة دائماً . « اتحاد النساء » ، « اتحاد الشباب » ، « النقابات » ، الخ ... حتى إذا بدا لك أن ترى ماذا وراء المكتب الذي مقره العاصمة ، إذ بدا لك أن تنتقل الى القاعة الخلفية التي يجب أن توجد فيها الاضبارات والملفات ، ها لك ما ستراه من فراغ ، من عدم ، من خديعة . لا بد من قاعدة ، لا بد من خلايا هى التي تبث في الحركة مضموناً ونشاطاً . ينبغي أن تُمكِّن الجماهير من أن تجتمع وتناقش وتقترح وتتلقى تعليمات . ينبغي أن يستطيع المواطنون أن يتكلموا وأن يعبروا وأن يبتكروا. إن اجتماع الخلية أو اجتماع اللجنة أشبه بصلاة إنه فرصة فذة تتاح للانسان فيستطيع أن يصغي وأن يتكلم . وفي كل اجتماع ، يغتني عقل الانسان تطل عيناه على آفاق ما تنفك تتسع .

وكثرة الشباب في البلاد المتخلفة تطرح على الحكومة مشكلات خاصة يجب أن تُعالج معالجة واضحة . إن الشبيبة التي تعيش في المدن ولا تقوم بعمل والتي هي أمية في كثير من الأحيان ، تنساق في طرق كثيرة من طرق الانحلال والتفسخ . ان ألهيات البلاد المصنّعة معروضة على شبيبة البلاد المتخلفة في أكثر الأحيان . والأمر الطبيعي في الواقع هو أن هناك تجانساً بين المستوى العقلي والمادي لأفراد مجتمع من المجتمعات وبين اللذات التي يستمتع بها هذا المجتمع. ولكن الشبيبة في البلاد المتخلفة تنعم بألهيات خُلقت لشبيبة البلاد الرأسمالية : الروايات البوليسية ، ماكينات القمار ، الصور الفوتوغرافية الماجنة ، الأدب الخليع ، الأفلام الممنوعة عمن هم دون السادسة عشرة من العمر ، والمشروبات الكحولية خاصة . ففي الغرب نرى الجو العائلي ، والمواظبة على المدارس ،

ومستوى معيشة الطبقات الكادحة ،العالي نسبياً،نرى كل ذلك يحول بعض الشيء دون انجراف الشبيبة في هذه الألهيات انجرافاً مؤذياً . أما في بلد إفريقي ، حيث النمو النفسي متفاوت ، وحيث يصطدم عالمان اصطداماً عنيفاً فتزعزع من ذلك التقاليد القديمة تزعزعاً كبيراً ويتفكك عالم الادراك ، فإن عواطف الفتي الإفريقي وحساسيته يخضعان لهجمات الحضارة الغربية ويتأثران بها تأثراً كبيراً ، وكثيراً ما تعجز أسرة الفتى عن محاربة هذه الاندفاعات العنيفة بالاستقرار والتجانس .

ففي هذا المجال يجب على الحكومة أن تكون مصفاة وان تكون عامل استقرار وصمود . إن قادة « منظمات الشبيبة » في البلاد المتخلفة كثيراً ما يرتكبون خطأ فادحاً ، إذ يتصورون رسالتهم على غرار رسالة قادة «منظمات الشبيبة» في البلاد المتطورة . إنهم يتكلمون على ضرورة تقوية النفس ، وتربية الجسم ، وخلق الصفات الرياضية . وعندنا أن على هؤلاء القادة أن يعزفوا عن هذا المفهوم الخاطىء . إن شبيبة البلد المتخلف شبيبة عاطلة عن العمل في كثير من الأحيان ، فيجب شغلها بالعمل أولاً وقبل كل شيء . لذلك يجب أن يكون قادة منظمات الشبيبة تابعين لوزارة العمل . ووزارة العمل التي هي حاجة ماسة في البلاد المتخلفة .يجب أن تكون على تعاون وثيق مع وزارة التخطيط التي هي حاجة ماسة أخرى في البلاد المتخلفة . يجب أن لا توجّـه الشبيبة الأفريقية نحو الملاعب الرياضية ، بل نحو الحقول ، نحو الحقول ونحو المدارس . ويجب أن لا يكون ملعبهم ذلك المكان المخصص للعرض في المدن ، بل فسحة في طرف من أطراف الأرض التي يحرثونها ويزرعونها ويقدمونها للأمة . إن المفهوم الرأسمالي للرياضة مختلف اختلافاً أساسياً عن المفهوم الذي يجب أن تأخذ به البلدان المتخلفة . يجب على السياسي الإفريقي أن لا يُعنى بخلق رياضيين بل بخلق رجال واعين يكونون من جهة أخرى رياضيين . إذا لم نجعل الرياضة متكاملة مع الحياة القومية أي مع البناء القومي، إذا نحنا خلقنا رياضيين لا رجالاً واعين ، فسرعان ما سنشهد تفسخ الرياضة لعباً . يجب أن لا تكون الرياضة

ألهية تلهو بها بورجوازية المدن . إن المهمة الكبرى التي تقع على عاتقنا هي أن ندرك في كل لحظة ما يحدث في بلادنا . يجب أن لا ينصرف همنا إلى إيجاد الفرد الفذّ ، الى خلق البطل ؛ يجب أن نرفع مستوى الشعب، أن ننمّي عقل الشعب أن نجهز الشعب ، أن ننوعه ، أن نجعله إنسانياً .

وها نحن أولاء نعود إلى تلك الفكرة الهامة التي نريد أن يعتنقها جميع السياسيين الإفريقيين ، أعني ضرورة تنوير الجهد الشعبي ، ضرورة تنوير العمل، وتخليصه من الظلام الذي تراكم عليه عبرَ التاريخ. إن على من يتحمل مسئولية الحكم في بلد متخلف أن يدرك أن كل شيء مرهون أخيراً بتربية الجماهير ، بتثقيف الجماهير ، برفع مستوى تفكير الجماهير ، بما يسمى إدخال الجماهير في السياسة .

وكثيراً ما يُظن في خفة وطيش إجرامي أن إدخال الجماهير في السياسة إنما يكون بإلقاء خطاب سياسي كبير من حين الى حين . كثيراً ما يُظن أنه يكفي أن يتولى الزعيم أو أحد المسؤولين أن يتحدث الى الجماهير بلهجة متفيهقة متعالمة عن كبريات مشكلات الساعة حتى يكون قد قام بواجبه في مضمار توعية الجماهير وإدخالها في الحياة السياسية . ولكن التوعية السياسية انما تعني في الواقع فتح الأفهام ، إيقاظ العقول ، إقحام الأذهان في العالم . إنها كما قال سيزار : « خلق نفوس » . إن ادخال الجماهير في الحياة السياسية لا يكون ولا يمكن أن يكون بإلقاء خطاب سياسي ، وإنما يكون بالعمل العنيف الدائب على إفهام الجماهير أن كل شيء رهن بها ، فاذا ركدنا فهي المسؤولة عن ركودنا وإذا تقدمنا فهي المسؤولة أيضاً عن تقدمنا ، وأن الشعب هو الخالق ، وأنه ما من رجل شهير يمكن أن يكون مسؤولاً عن كل شيء، وأن الأيدي الساحرة التي تحقق المعجزات إنما هي ايدي الشعب. ومن أجل تحقيق هذه الأمور ، ومن أجل تجسيدها حقاً، لا بد من الابتعاد عن السيطرة المركزية الى أبعد حد ممكن من الابتعاد. إن الانتقال من القمة الى القاعدة ومن القاعدة الى القمة يجب أن لا يكون هو المبدأ الصلب الذي نتمسك به أشد التمسك لا من قبيل الحرص على الشكل ، بل لأن التقيد

بهذا المبدأ هو الذي يكفل لنا السلامة . فمن القاعدة إنما تصعد القوى التي تحرك القمة وتتيح لنا أن نحقق وثبة جديدة : وأعود فأقول إننا معشر الجزائريين قد أدركنا هذه الأمور بسرعة عظيمة ، فما من عضو من أعضاء أية قمة احتكر لنفسه مهمة تحقيق الخلاص . إن القاعدة هي التي تقاتل في الجزائر ، وهذه القاعدة لا تجهل أن القمة لا يمكن أن تصمد إلا بما تخوضه القاعدة من كفاح يومي بطولي شاق ، لا ولا تجهل أنه ما لم يكن هنالك قمة وما لم يكن هنالك قيادة فإن الفوضى والبلبلة ما تلبثان أن تهدما القاعدة . إن القمة لا تستمد قيمتها وقوتها الا من وجود الشعب في ساحة القتال ، بل قل ان الشعب هو الذي يخلق لنفسه قمة ، وليست القمة هي التي تحمل الشعب .

يجب أن تعلم الجماهير أن الحكومة والحزب هما في خدمتها . والشعب الذي يشعر بكرامته ، الشعب الذي يعي كرامته ، لا يمكن أن ينسى هذه الحقائق. لقد قيل للشعب أثناء الاحتلال الاستعماري ان عليه أن يضحي بحياته في سبيل الكرامة ، ولكن الشعوب الإفريقية سرعان ما أدركت أن كرامتها لا يجحدها المحتل فحسب ، سرعان ما أدركت أن هناك تساوياً مطلقاً بين الكرامة والسيادة . فالشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي ينعم بالسيادة. إن الشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي يتحمل المسؤولية . وليس يجديكم أن «تبينوا» أن الشعوب الإفريقية كالأطفال أو كضعاف العقول. إن للحكومة والحزب شعباً هو الذي يستحقانه ، وإن للشعب بعد زمن يقصر أو يطول حكومة هي التي يستحقها .

إن التجربة المحسوسة في بعض المناطق تدل على وجود مثل هذه المواقف . ففي أثناء بعض الاجتماعات يتفق لبعض اعضاء الحزب أن يعودوا ، من أجل حل المسائل الصعبة ، الى هذه الصيغة : « لا شيء إلا ... » . وهذا الاختصار القطعي الذي تسيطر عليه العفوية والتبسيطية سيطرة خطرة ولا يقوم على إنضاج عقلي هو الذي ينتصر في كثير من الأحيان . فعلينا حين نصادف مثل هذا الصدوف عن المسئولية لدى عضو من اعضاء الحزب أن لا نكتفي بتخطئته ،

وإنما يجب أن نجعله مسئولاً ، أن ندعوه إلى المضي في تفكيره إلى أقصاه ليلمس بإصبعه ما يتصف بـه هذا القول : « لا شيء إلا ... » من قسوة وشراسة ، ومن بعد عن الروح الإنسانية ، ومن عقم في آخر الأمر . ما من أحـد يستأثر بالحقيقة ، لا القائد ولا العضو. إن البحث عن الحقيقة في أوضاع محلية إنما هو من شأن الجماعة كلها . قد تكون تجربة بعض الأفراد أغنى من تجربة بعضهم الآخر ، قد يكون بعض الأفراد أقدر من بعض في سرعة البت في الأمور ، قد يكون بعض الأفراد أوسع من بعضهم نظرة بحـكم ما أتيح لهم من خبرة . ولكن على هؤلاء أن لا يطغوا على الشعب طغياناً ، لأن نجـاح القرار المتخذ متوقف على التزام الشعب كله لهذا القرار التزاماً منسجماً واعياً . مـا من أحد يمكن أن يتنصل من القضية. إن جميع الناس سيُصرعون أو سيعذبون ، وإن جميع الناس في إطار الاستقلال سيجوعون وسيشاركون في الفقر والركود . إن المعركة الجماعية تستلزم مسئولية جماعية في القاعدة ومسئولية مشتركة في القمة . نعم ، يجب أن نورط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام . ليس هناك أيدٍ نقية ، ليس هناك أبرياء ، ليس هناك « متفرجون » . نحن جميعاً بسبيل تلطيخ أيدينـا في مستنقعات أرضنا وفي الفراغ الرهيب الذي يرين على عقولنا . كل « متفرج » جبان أو خائن .

إن من واجب القيادة أن تكون الجماهير معهـا . والمناصرة تفترض الوعي ، تفترض فهم المهمـة التي يجب النهوض بهـا ، تفترض حـداً أدنى من إدراك الأمور إدراكاً عقلياً . يجب أن لا نفتن الشعب ، يجب أن لا نغرق الشعب في الانفعال والإبهـام . إن البلاد المتخلفة التي تقودها صفوة ثورية منبثقة عن الشعب تستطيع وحدهـا اليوم أن تتيح للجماهير أن تصعد إلى مسرح التاريخ . ولكنني أعود فأقول يجب علينـا أن نعارض معارضة شديدة حاسمة في نشوء بورجوازية وطنية ، في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات . إن إدخـال الجماهير في السياسة معناه أن نجعل الأمـة كلها حاضرة في كل مواطن ، معناه أن نجعل تجربة الأمة تجربة كل مواطن . وكما قـال الرئيس

أحمد سيكوتوري في رسالته التي وجهها الى المؤتمر الثاني للكتاب الافريقيين :
« يستطيع الانسان على صعيد الفكر أن يتشوف إلى أن يكون دماغ العالم ، أما على صعيد الحياة المحسوسة الملموسة حيث نرى كل عمل يؤثر في الوجود المادي والروحي فان العالم هو دماغ الانسان دائماً ، إذ على هذا المستوى إنما تتجمع القدرات والوحدات المفكِّرة والقوى المحرِّكة التي تحقق التقدم والكمال ، على هذا المستوى إنما يتم انصهار الطاقات ويتحقق مجموع القيم الفكرية للانسان . »
ان التجربة الفردية متى كانت قومية ، متى كانت خيطاً في نسيج الوجود القومي لم تبق فردية محدودة ضيقة ، بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة والعالم . وكما كان كل مقاتل في مرحلة الكفاح يحمل الأمة كلها على ذراعيه ، فكذلك يجب في مرحلة البناء القومي أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط في عمله اليومي المحسوس بمجموع الأمة ، على أن يجسّد حقيقة الأمه في حركتها ، على أن يريد انتصار الانسان هنا والآن. إذا كان بناء جسر لا يغني وعي أولئك الذين يبنون الجسر ، فلا كان الجسر ... وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة أو على قارب ... يجب أن لا يهبط الجسر من السماء، يجب أن لا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى، بل يجب ان يخرج الجسر عن عضلات المواطنين ومن أدمغتهم . صحيح أننا ربما احتجنا الى مهندسين والى معماريين قد يكونون أجانب تماماً ، غير أن على المسئولين المحليين في الحزب أن يعملوا على ان ينفذ التكنيك الى دماغ المواطن ، بحيث يستطيع المواطن ان يفهم الجسر جملة وتفصيلاً وعلى ان يتصوره ويتبناه . يجب ان يستطيع المواطن ان ينسب الجسر إليه . وعندئذ فقط إنما يصبح كل شيء ممكناً .

إن على حكومة تنادي بأنها قومية ان تحمل مجموع الأمة ، والشبيبة في البلاد المتخلفة هي أهم قطاعات الأمة ، فيجب أن نرفع مستوى وعي الشبيبة ، يجب أن ننور الشبيبة. وهذه الشبيبة هي التي يجب أن نجدها في الجيش الوطني . فمتى قمنا بالشرح والتنوير على مستوى الشبيبة ، متى حقق « إتحاد الشبيبة الوطني » مهمته ، أعني مهمة إدماج الشبيبة في الأمة ، كان في وسعنا عندئذ أن

نتفادى الأخطاء التي آذت بل خرّبت مستقبل جمهوريات أمريكا اللاتينية . ليس الجيش مدرسة حرب بل مدرسة تنوير للمواطنين ، مدرسة سياسية . ليس الجندي في أمة راشدة جندياً مستأجراً بل هو مواطن يدافع عن الأمة بالسلاح لذلك كان من الأمور الأساسية أن يعرف الجندي أنه في خدمة بلده لا في خدمة ضابط من الضباط مهما يكن لهذا الضابط من هيبة وتأثير . يجب أن نستفيدمن الخدمة الوطنية ، المدنية والعسكرية ، في رفع مستوى الوعي القومي ، في القضاء على القبلية ، في توحيد الصفوف ، ويجب في البلاد المتخلفة أن نعمل بأقصى سرعة ممكنة على تعبئة الرجال والنساء . يجب على البلاد المتخلفة أن تتحاشى الاستمرار على التقاليد الاقطاعية التي تغلِّب عنصر الرجال على عنصر النساء. يجب أن تنال النساء منزلة كمنزلة الرجال سواء بسواء لا في مواد الدستور بل في الحياه اليومية ، في المصنع ، وفي المدرسة ، وفي المجالس . وإذا كانت البلاد الغربية تضع العسكريين في ثكنات ، فليس هذا أحسن الحلول دائماً . لسنا مضطرين الى جعل المجندين عسكريين . إن خدمة العلم يمكن أن تكون مدنية مثلما يمكن أن تكون عسكرية ،ويجب على كل حال أن يكون كل مواطن سليم قادراً على ان ينضم في كل لحظة الى وحدة من وحدات القتال دفاعاً عن المكتسبات القومية والاجتماعية .

إن الانشاءات الكبرى ذات المصلحة المشتركة يجب أن نستطيع تنفيذها بواسطة المجندين . تلكم وسيلة رائعة لتنشيط المناطق الركداة ، ولاطلاع عدد كبير من المواطنين على واقع البلاد . يجب أن نتحاشى تحويل الجيش الى هيئة مستقلة يحملها الفراغ والتعطل وعدم وجود مهمة تضطلع بها على أن « تعمل في السياسة » عاجلاً أو آجلاً . إن جنرالات الصالونات يحلمون باستلام السلطة من كثرة ما يختلفون إلى مكاتب السلطة . والسبيل الوحيدة الى تفادي ذلك هي أن نحمل الوعي السياسي الى الجيش ، هي أن ندخل الجيش في حياة الأمة . وكذلك يجب أن نبادر الى مضاعفة الحرس الوطني . فإذا قامت حرب كانت الأمة كلها تقاتل وتعمل . يجب أن لا يكون هناك جنود محترفون ،

ويجب أن نخفض عدد الضباط المحترفين الى أدنى حد ، أولاً لأن الضباط ينتقون في أكثر الأحوال من بين صفوف الجامعيين الذين يمكن أن يكونوا أنفع كثيراً في هذا المجال : إن الأمة أحوج ألف مرة الى مهندس منها إلى الضابط ، وثانياً لأن علينا أن نتحاشى تبلور عقلية طبقية عسكرية . لقد رأينا على الصفحات السابقة أن الدعوة القومية ، هذه الأنشودة الرائعة التي أثارت الجماهير على المتسلط الغاشم ، تتحلل غداة الاستقلال ، لأنها لم تكن عقيدة سياسية ولم تكن برنامجاً اجتماعياً . فإذا أردنا حقاً أن نجنب البلاد أمثال هذه النكسات وهذه الوقفات وهذه التدهورات كان علينا أن نسارع الى الانتقال من الوعي القومي إلى الوعي السياسي والاجتماعي . لا وجود للأمة إلا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقاً قائماً على الفهم الواضح والحماسة الثابتة . ويجب علينا دائماً أن نضع الجهد القومي في هذا الاطار العام ، إطار البلاد المتخلفة . يجب أن تكون الجبهات التي نقاتل فيها ، جبهة الجوع ، جبهة الجهل ، جبهة البؤس ، جبهة تأخر الوعي ، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة في أذهان رجالنا ونسائنا وفي عضلاتهم ؛ ويجب أن يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التي أبعدتها عن تاريخ العقل الانساني قروناً طويلة ، يجب أن يكون هذا العمل وهذا العزم مرتبطين بعمل وعزم سائر الشعوب المتخلفة . هناك نوع من الجهد الجماعي والمصير المشترك في مستوى الناس المتخلفين . ان الأنباء التي تهم شعوب العالم الثالث ليست هي الأنباء التي تتحدث عن زواج الملك بودوان أو عن فضائح البورجوازية الايطالية . إن ما نريد أن نعرفه هو التجارب التي قام بها الأرجنتينيون أو البرمانيون في مضمار مكافحة الامية أو محاربة النزعات الدكتاتورية لدى الحكام . تلكم عناصر تقويتنا ، وتعلمنا ، وتضاعف جدوى عملنا . هكذا ترون أن وجود برنامج أمر لا بد منه لحكومة تريد حقاً أن تحرر الشعب سياسياً واجتماعياً : هو برنامج اقتصادي ، ولكنه أيضاً مذهب في توزيع الثروات وفي العلاقات الاجتماعية . فالواقع أنه يجب أن يكون لنا مفهوم عن الانسان ، يجب أن يكون لنا مفهوم عن مستقبل

الانسانية . معنى ذلك أنه ما من أسلوب ديماغوجي ، وما من تواطؤ مع المحتل القديم يمكن أن يغني عن برنامج . إن الشعوب التي كان ينقصها الوعي ثم أصبحت تسير في طريق الوعي سيراً حثيثاً تطالب بهذا البرنامج مطالبة قوية . إن الشعوب الافريقية ، الشعوب المتخلفة ، تبني وعيها السياسي والاجتماعي بسرعة كبيرة خلافاً لما يُظن والأمر الذي يمكن أن يكون خطراً هو أن تصل إلى هذا الوعي الاجتماعي قبل المرحلة القومية ، لذلك قد نجد في البلدان المتخلفة مطالبة بالعدل الاجتماعي مرتبطة ارتباطاً غريباً بقبلية كثيراً ما تكون بدائية . إن سلوك الشعوب المتخلفة هو سلوك أناس جائعين . معنى هذا ان أيام اولئك الذين يتسلون ويلهون في إفريقيا هي أيام معدودات . أريد أن أقول إن حكمهم لا يمكن أن يستمر إلى غير نهاية . ان البورجوازية لا تقدم للجماهير غذاء غير الحماسة القومية مخفقة في تحقيق مهمتها ، متورطة حتماً في سلسلة من المزالق والمهالك . إنك ما لم تبرز مضمون الدعوة وتعمقها ، وما تحلها بسرعة الى وعي سياسي واجتماعي ، الى تطلع انساني ، فإنك تسير في طريق مسدودة غير نافذة . ان القيادة البورجوازية في البلاد المتخلفة تحيل الشعور القومي الى شكلية عقيمة . لا شيء غير انخراط جماهير الرجال والنساء في القيام بأعمال نيّرة خصبة يمكن ان يبث في هذا الشعور القومي مضموناً ، وان يهب له كثافة . وعندئذ لا يظل العلم الوطني وقصر الحكومة هما الرمزين اللذين يمثلان الأمة ، وإنما تهجر الأمة هذه الأماكن المضاءة بالأنوار ، هذه الأماكن الاصطناعية ، وتمضي إلى الأرياف تستمد منها الحياة والحركة . إن التعبير الحيّ عن الأمة إنما هو الوعي الذي يحرك مجموع الشعب ، هو العمل المنسق النيّر يندفع فيه الرجال والنساء . إن تولي الجماعة بناء مصيرها هو تحمل مسئولية على مستوى التاريخ . وإلا فثمّ الفوضى ، والقمع ، وظهور الأحزاب القبلية ، وظهور الدعوة الفدرالية ، وما إلى ذلك . على الحكومة القومية ، إذا هي أرادت أن تكون قومية ، أن تحكم بالشعب ومن أجل الشعب ، ان تحكم من اجل المحرومين وبالمحرومين . ما من زعيم ،

مهما تكن قيمته ، يمكن أن يحل نفسه محل الارادة الشعبية . وعلى الحكومة القومية قبل أن تُعنى بمهابتها الدولية ، أن ترد الكرامة إلى كل مواطن ، أن تجز العقول ، أن تملأ الأعين بأشياء إنسانية ، أن تمـــلأ الأفق بنظر إنساني ، إنساني لأنه يسكنه أناس واعون أسياد .

في الثقافة القومية

« ليس يكفي أن تؤلف اغنية ثورية حتى تشارك في الثورة الافريقية ، وإنما ينبغي ان تصنع هذه الثورة مع الشعب ، ثم تأتي الأغاني من تلقاء ذاتها .

من اجل ان تؤثر تأثيراً صادقاً، يجب ان تكون انت نفسك جزءاً حياً من إفريقيا وفكرها ، يجب ان تكون عنصراً من عناصر هذه الطاقة الشعبية المجندة كلها لتحرير إفريقيا وتقدمها وسعادتها. ليس هناك اي مكان في خارج هذه المعركة.. لا للفنان ولا للمثقف الذي ليس منخرطا هو نفسه وليس معبأ كله مع الشعب ، في المعركة الكبرى التي تخوضها إفريقيا والإنسانية المعذبة » .

سيكوتوري (١)

لا بد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام ، فإما أن يحققها وإما أن يخونها . والأجيال السابقة في البلاد المتخلفة قد قامت بعملين في آن واحد : قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار ، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن . فيجب علينا ونحن في قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التي تعودناها وهي أن نبخس الأعمال التي قام بها آباؤنا حقها ، وأن نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم . فالحق أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا ، ناضلوا بالأسلحة التي كانوا يملكونها أيامئذ ، وإذا لم تترجع أصداء نضالهم على المستوى الدولي ، فليس مرد ذلك إلى نقص بطولتهم بل إلى أن الظرف الدولي في ذلك العهد يختلف عن الظرف الدولي الحالي اختلافاً كبيراً . لقد كان لا بد أن يقول أكثر من مستعمَر : « لا يمكن أن يدوم هذا الوضع » ، وكان لا بد أن تقوم أكثر من

---

١ – احمد سيكوتوري ، « الزعيم السياسي كممثل لحضارة » ، خطاب في المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود ، روما ، ١٩٥٩ .

قبيلة بعصيان ، وكان لا بد أن تُخمد أكثر من ثورة ، وأن تقمع أكثر من مظاهرة ، كان لا بد من ذلك كله حتى نستطيع نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر.

إن مهمتنا التاريخية نحن الذين قررنا أن نمزّق أحشاء الاستعمار ، هي أن نرتب جميع الثورات وجميع الأعمال المستميتة وجميع المحاولات التي أجهضت أو غرقت في الدم .

وسأحلل في هذا الفصل تلك المسألة التي نشعر أنها أساسية ، أعني مشروعية المطالبة بانشاء أمة . يجب أن نعترف ان الحزب السياسي الذي يعبىء الشعب لا يُعنى كثيراً بمسألة المشروعية هذه فالأحزاب السياسية تنطلق من الواقع الحيّ المعيش ، وهي باسم هذا الواقع ، باسم هذا الواقع الراهن الذي يجثم على الحاضر والمستقبل ، إنما تدعو الى العمل . قد يتحدث الحزب السياسي عن الأمة بعبارات تؤجج العاطفة ، ولكن الشيء الذي يهمه هو أن يفهم الشعب الذي يسمع حديثه ضرورةَ المشاركة في المعركة إذا هو كان يطمح الى الوجود والبقاء .

لقد أصبحنا نعرف الآن أن الاستعمار ، في المرحلة الأولى من مراحل الكفاح الوطني ، يحاول ان يشل المطمح القومي ، باسباغ طابع اقتصادي عليه ، فتراه منذ بزوغ المطالب الأولى يتظاهر بالفهم ويعترف في تواضع مسرحي بأن البلاد تشكو من تخلف خطير يوجب بذل جهد اقتصادي واجتماعي كبير .

حتى ليحدث في الواقع ان يتخذ الاستعمار بعض الاجراءات الخدّاعة ، كفتح ورشات لتشغيل العاطلين هنا وهناك ، فاذا بهذه الاجراءات تؤخر تبلور الوعي القومي بضع سنين . ولكن الاستعمار يدرك عاجلاً أو آجلاً أنه ليس في وسعه أن يحقق إصلاحات اقتصادية اجتماعية يمكن ان ترضي مطامح الجماهير المستعمَرة . فحتى على مستوى البطن يبدو الاستعمار عاجزاً عجزاً راسخاً . وسرعان ما تدرك الدولة الاستعمارية ان إسكات الأحزاب الوطنية في المجال الاقتصادي الصرف سيوجب عليها أن تفعل في المستعمرات ما لم تشأ أن تفعله

في أراضيها نفسها . وليس من قبيل الصدفـة أن نرى النظرية الكارتييرية تزدهر اليوم بعض الازدهار في كل مكان [1] .

إن المرارة التي شعر بهـــا كارتييه إزاء إصرار فرنسا على أن تربط بها أناساً يجب عليها ان تطعمهم في حين أن كثيراً من الفرنسيين يعيشون في حـالة إعسار ، إن تلك المرارة تُظهر عجزَ الاستعمار عن ان يصبح برنامجاً مجرداً عن المنفعة للمعونة والمساعدة . لذلك أعود فأقول إن علينا ان لا نضيّـع وقتنـا في ترديد ذلك الشعار القائل بأن الجوع مع الكرامة خير من الخـبز مع العبـودية . فإنما يجب أن نقتنع بأن الاستعمارعاجز عن أن يوفر للشعوب المستعمَرة الظروف المادية التي يمكن ان تنسيها اهتمامها بالكرامة . وكلما فهم الاستعمار الى أين يمكن ان يجرّه أسلوب الاصلاحات الاجتماعية رأيناه يعود الى طرائقه السابقة ، فيعزز قوى الشرطة ، ويرسل فرق الجيش ، ويقيم نظاماً إرهابياً يتلاءم مع مصالحـه ونفسيته تلاؤماً أكمل .

إننا نرى بين رجال الأحزاب السياسية حيناً ، وعلى موازاة هذه الأحزاب أحياناً ، أناساً من أهل الثقافة المستعمَرين يتخذون المطالبةَ بحضـارة قوميـة والبرهانَ على وجود هذه الحضارة القومية ميداناً لمعركة مفضّـلة . فبينما نجـــد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميداناً لعملهم ، نرى رجـــال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهم في إطار التاريخ . ومن الملاحظ ان الاستعمار لا يهتم كثيراً بالرد على المثقف المستعمَر الذي قرّر أن يفند تفنيداً عنيفاً النظرية الاستعمارية القائلة بأن الهمجية هي التي كانت تسود المستعمَرات قبل استعمارها ، لا سيما وان الأفكار التي تقول بهـــا الطبقة المثقفة المستعمَرة الناشئة يقول بها المختصون الأوروبيون أنفسهم على نطاق واسع ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة عقود من السنين يحاولون ، على وجه الإجمال أن يردّوا

---

١ = نسبة الى جاك كارتييه ، البحار الفرنسي (١٤٩١–١٥٥٧) الذي وصل الى كندا ، وسماه الفرنسيون مكتشف كندا . « المترجم »

الاعتبار الى حضارات إفريقيا والمكسيك وبيرو . وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التي يظهرها المثقفون المستعمَرون في الدفاع عن وجود حضارة قومية . ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججة ينسون أن نفسيتهم ، ان ذواتهم تعتصم مرتاحةً وراء حضارة فرنسية او ألمانية برهنت على نفسها ولا يستطيع احد ان يجحدها .

وإني لأسلّم بأن وجود حضارة أزتكية قديمة ليس له ، على صعيد الحياة ، كبيرُ شأن ، فهو لا يبدل شيئاً من النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي اليوم . واني لأسلم ايضاً بأن جميع البراهين التي يمكن الإتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قد قامت في الماضي لا تبدل شيئاً من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاي اليوم ، وهو ان أفراد هذا الشعب لا ينالون نصيبهم من الغذاء ، ولا يعرفون القراءة والكتابة ، وأنهم مقيمون بين السماء والماء قد فرغت رؤوسهم وفرغت أعينهم ولكن سبق ان قلنا غيرَ مرة ان هذا البحث المحموم عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعماري إنما يستمد مشروعيته من حرص المثقفين المستعمَرين على أن يبتعدوا قليلاً الى الوراء أمام الحضارة الغربية التي يهون ان يغوصوا فيها . إن هؤلاء الرجال يشعرون بأنهم يوشكون ان يفقدوا أنفسهم ، وان يفقدهم شعبهم ، فتراهم يندفعون اندفاعاً عنيفاً ، وقد تأججت قلوبهم وطاشت عقولهم ، الى الاتصال بأقدم ينابيع شعبهم ، بأبعدها عن عهد الاستعمار .

ولنوغل في التحليل اكثر من ذلك . إن هذه الحماسة الشديدة وهذا التأجج المحموم ربما كان يغذيها او يوجهها على الأقل ذلك الأمل الخفي الذي يقوم في نفوس هؤلاء المثقفين ، وهو ان يكتشفوا وراء البؤس الراهن ، وراء هذا الاحتقار للذات ، وراء هذا الانسحاب وهذا الانكار ، عصراً جميلا جداً ساطعاً جداً يرد إلينا الاعتبار في نظر أنفسنا وفي نظر الآخرين معاً اقول انني اردت ان اوغل في التحليل : لعل المثقفين المستعمَرين قد ارادوا ، لا شعورياً ، حين رأوا أنهم لا يستطيعون أن يحبوا التاريخ الراهن الذي تعيشه شعوبهم المضطهَدة ، ولا

أن يعجبوا بتاريخ همجياتهم الحالية ، أرادوا ان يذهبوا الى أبعد من ذلك ، ان يهبطوا إلى أبعد من ذلك ؛ ويجب ان لا نشك ابداً في انهم حين اكتشفوا ان الماضي لم يكن عاراً بل كرامة ومجداً وعظمة قد شعروا بنشـوة لا تدانيها نشوة . إن البرهان على وجود حضارة قومية قديمة ، لا يرد الاعتبار فحسب ، لا يدل على ان حضـارة قومية جديدة ستقوم في المستقبل فحسب ، وإنمـا هو ايضاً ، على صعيد التوازن النفسي العاطفي ، يحقق للمستعمَر وثبة كبرى . لعل الباحثين لم يوضحوا توضيحاً كافياً الى الآن كيف ان الاستعمار لا يكتفي بفرض قانونه على حاضر البلاد المستعمَرة وعلى مستقبلها ، ولا يكتفي بتكبيل الشعب ، ولا يكتفي بأن يفرغ عقل المستعمَر من كل شكل وكل مضمون ، بل هو يتجه ايضاً الى ماضي الشعب المضطهَد فيحاول بنوع من فجور المنطق أن يهدّمه وأن يشوهه وأن يبيده . إن هذه المحاولة التي يحاولها الاستعمار إذ يجرد تاريخ البلاد المستعمَرة ، السـابق على الاستعمار من كل قيمة ، إنما تتخذ اليوم دلالتهـا الجدلية .

إننا إذا فكرنا في الجهود التي بُذلت من أجـل تحقيق الضياع الحضاري الثقافي الذي يتميز به العهد الاستعماري ، أدركنا انه ما من شيء تمّ مصادفة ، وان النتيجة الكلية التي ابتغتهـا السيطرة الاستعمارية هي ان تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام . إن النتيجة التي سعى إليهـا الاستعمار سعياً واعياً هي ان يدخل في روع السكان الأصليين أن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم الى الهمجية والوحشية والحيوانية . فالاستعمـار لم يكن يحاول إذن ان يجعل السكان الأصليين ينظرون إليه نظرتهم إلى أم تترفق بهم وتعطف عليهم وتحاول ان تحمي أطفالها من بيئة ضارة ، بل نظرتهم الى أم تعمل بغير انقطاع على ان تمنع طفلاً فاسد التكوين من ان يـؤذي نفسه وأن يستطيع الانتحار ، وان ينجرف مع غرائزه الخبيثة . إن هذه الأم المستعمِرة تحمي الطفل من نفسه ، من ذاتـه ، من تكوينه الفزيولوجي ، من تكوينه البيولوجي ، من شقائه الوجودي .

وفي مثل هذا الظرف لا يكون مطمح المثقف المستعمَر ترفـاً كمالياً بل ضرورة عملية منسجمة. إن المستعمَر الذي يضع معركته على مستوى المشروعية، الذي يريد ان يأتي ببراهين، الذي يرتضي ان يعرّي جسمه في سبيل ان يعرض تاريخ جسمه عرضاً أصح، إنما هو محمول حملاً على الغوص في أعماق شعبه.

وليس هذا الغوص قومياً فحسب. إن المثقف المستعمَر الذي يقرر أن يعلن الحرب على الأكاذيب الاستعمارية، ان يخوض المعركة على مستوى القارة كلها. إنه يحاول ان يظهر قيمة الماضي بالنسبة الى جميع الشعوب الإفريقية. إن الحضارة التي ينتزعها من غياهب الماضي لينشرها بكل ما فيها من روعة وسناء، ليست حضارة وطنه وحده. إن الإستعمار لم يفرّق في جهوده التي بذلها في هذا المضمار بين بلد وبلد، وإنما أكّد دائمـاً ان الزنجي متوحش، والزنجي عنـده ليس هو الأنجولي او النيجري، وإنما هو الزنجي عـامة على إطلاق القول. لقـد تحدث الاستعمار عن « الزنجي ». قال إن هذه القارة الواسعة هي مرعى متوحشين، بلد موبوء بالخرافات والتعصب، بلد منحط محتقر ملعون من السماء، بلد يسكنه أكلة لحوم البشر، بلد زنوج. إن الاحتقار الذى يمحضنا إياه الاستعمار يتنـاول القارة الإفريقية كلها. إن قول الاستعمار بأن العهد السابق عليه كان ظلامـاً وهمجية ووحشية يشمل مجموع القارة الإفريقية. فمن المنطقي والحالة هذه أن تتم الجهود الذي يبذلها المستعمَر في سبيل استرداد اعتباره وفي سبيـل الافلات من هذا الشتم الذي يكيله له الاستعمار، من المنطقي ان تتم هذه الجهود على النطاق الذي يتناوله الاستعمار نفسه. فالمستعمَر المثقف الذي وعى ثقافة الغرب وقرر أن ينادي بوجود حضارة قومية، لن يفعل ذلك باسم أنجولا او باسم داهومي. بل ستكون الحضارة التي يؤكد وجودهـا هي الحضارة الافريقية عـامة. إن الزنجي الذي لم ينقطع يوماً عن ان يكون زنجياً منذ تسلط عليه الأبيض، لا بد أن يدرك حين يقرر أن يبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة، لا بد أن يدرك أن التاريخ يفرض عليه أفقاً معيناً، ويـدله على طريق معينة، وأن عليه ان يظهر حضارة زنجية.

ولا مشاحة ان المسئولين عن إضفاء هذا الطابع العرقي على الفكر أو على الخطوات التي خطاها الفكر إنما هم الأوروبيون . إن الأوروبيين هم المسئولون عن هذا ، وسيظلون مسئولين عنه لأنهم هم الذين ظلوا وما يزالون يقابلون بين حضارة البيض وبين اللاحضارات الأخرى . لقد رأى الاستعمار أن عليه ان لا يضيّع وقته في إنكار حضارات الأمم الإفريقية فرادى ، واحدةً بعد أخرى، وإنما أنكرها كلها دفعةً واحدة ، لذلك كان ردّ المستعمَر عليه يشمل القارة بأسرها كذلك . إن أدب البلاد المستعمَرة الذي ظهر في إفريقيا في السنين العشرين الأخيرة ليس ادباً قومياً بل هو ادب زنجي . وما هذا الاعتزاز بالانتماء الى الأدب الزنجي إلا بالرد العاطفي، إن لم يكن المنطقي، على الاهانة التي يلحقها الإنسان الأبيض بالإنسانية . إن مثقفي غينيا او كينيا الذين وجدوا أنفسهم عرضةً لتعصب عرقي شامل ، ولاحتقار منظم يمحضهم إياه المستعمِر المتسلط قد قد ردوا على ذلك بالزهو بأنفسهم والتغني بذواتهم . لقد تباهى الغرب بالحضارة الأوروبية بغير تحفظ ، فأعقب ذلك أن تباهى الأفريقيون بالحضارة الافريقية بغير تحفظ أيضاً فرأينا الشعراء الذين يتغنون بالانتماء الى الزنج يقابلون بين أوروبا التي دبت فيها الشيخوخة وبين إفريقيا الفتية ، بين العقل المضجر وبين الشعر ، بين المنطق الخانق وبين الطبيعة المنطلقة المتدفقة ، بين التجمد والاحتفالات والبروتوكول والريبية وبين صفاء القلب والاندفاع والحرية والفيض والغزارة .

ولا يتردد المغنون بالزنج عن تجاوز حدود القارة الإفريقية . وها هي ذي أصوات زنجية من أمريكا تتلقف النشيد وتزيده سعة وقوة . سيبزغ فجر « العالم الزنجي ». وهؤلاء هم بوزيا الغاني، وبيراغو ديوب السنغالي ، وهامباتي السوداني، وسان كلير دراك الشيكاغوي ، يؤكدون في غير تردد ، وجودَ صلات مشتركة واتجاهات واحدة .

ونستطيع أن نضرب هنا مثالاً بالعالم العربي ايضاً . إنكم تعرفون أن

القسم الأكبر من الأراضي العربية قد حملته السيطرة الاستعمارية . وقد بذل الاستعمار في هذه المناطق جهوداً كبيرة من أجل ان يرسّخ في عقول أهلها أن تاريخهم السابق على الاستعمار تاريخ تسوده الهمجية . فرأينا كفاح التحرير القومي مصحوباً بظاهرة ثقافية تُعرف باسم يقظة الإسلام : رأينا الكتّاب العرب يتحمسون أشد التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم ، رداً على أكاذيب المستعمِرين ، فهم يستعرضون أسماء عظماء الأدب العربي ، ويُشهرون تاريخ الحضارة العربية بعنف وقوة كما فعل الأفريقيون بشأن الحضارات الافريقية ، ورأينا القادة العرب يحاولون بعث تلك الحضارة الشهيرة ، حضارة الإسلام ، التي سطعت سطوعاً عظيماً في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر .

وعلى الصعيد السياسي نرى الجامعة العربية اليوم تجسّد هذه الارادة ، إرادة بعث تراث الماضي ودفعه الى الذروة ، كما نرى الأطباء العرب والشعراء العرب يتنادون عبر الحدود محاولين خلق ثقافة عربية جديدة ، وحضارة عربية جديدة . وباسم الوحدة العربية إنما يجتمع اليوم هؤلاء الرجال ، وباسمها إنما يحاولون ان يفكروا . على أننا نلاحظ في العالم العربي ان الشعور الوطني ، قد احتفظ حتى أثناء السيطرة الاستعمارية ، بقوة لا نجد مثلها في افريقيا . لذلك لا نرى في الجامعة العربية ذلك التواصل العفوي بين كل قطر وسائر الأقطار ، بل نرى كل قطر يحاول المفاخرة بما حققه . إن الظاهرة الثقافية قد خرجت من اللاتميز الذي تتصف به في العالم الإفريقي ، والعرب لا يتوصلون دائماً الى التخلي عن النظرة الذاتية إزاء الواقع الموضوعي . فتراهم لا يعيشون واقعاً ثقافياً وطنياً بل عربياً . والمشكلة التي يطرحها المثقفون العرب او الإفريقيون على أنفسهم لم تصبح بعد مشكلة إقامة ثقافة وطنية ، لا ولا مشكلة اللحاق بحركة الأمم ، بل مشكلة تبني ثقافة عربية أو افريقية إزاء ما يعمد اليه الاستعمار من إدانة شاملة واحتقار عام . فعلى هذا الأساس نرى ، سواء لدى العرب ولدى الإفريقيين ، أن مطمح المثقف في البلد المستعمَر مطمح شامل هو لدى المثقف

الافريقي يشمل القارة كلها، وهو لدى المثقف العربي يشمل العالم العربي كله[1].

هذه الظروف التاريخية التي اضطرت رجال الثقافة الإفريقيين إلى أن يضفوا على مطالبهم ومطامحهم طابعاً عرقياً، فإذا هم يتحدثون عن ثقافة افريقية اكثر مما يتحدثون عن ثقافة قومية، ستؤدي بهم إلى حرج لا يعرفون كيف يخرجون منه. انظروا مثلاً إلى «الجمعية الافريقية للثقافة» إن هذه الجمعية قد أنشأها مثقفون إفريقيون أرادوا أن يتعارفوا وأن يتبادلوا الخبرات والتجارب والبحوث. فكان هدف هذه الجمعية إذن هو أن يؤكدوا وجود ثقافة إفريقية، وان يثمنوا هذه الثقافة في إطار أمم معينة، وأن يبرزوا الحيوية العميقة في كل ثقافة من هذه الثقافات الوطنية. ولكن هذه الجمعية كانت تلبي في الوقت نفسه مطلباً آخر، هو أن تصطف إلى جانب «الجمعية الأوروبية للثقافة» التي كانت تهدد بأن تصبح «جمعية عالمية للثقافة». فلقد كان من البواعث التي دعت الى انشاء هذه الجمعية إذن ان تكون حاضرة في الاجتماع العالمي، متسلحة لذلك الاجتماع بجميع ما تملك من أسلحة هي ثقافة نابعة من أرحام القارة الإفريقية. والواقع ان هذه الجمعية سرعان ما بدت عاجزة عن القيام بهذه المهمات المختلفة، فإذا هي تكتفي بتظاهرات تفاخر، ولا تزيد على أن تبين

---

١ – يلاحظ القارىء العربي في هذه الفقرة من كلام المؤلف أنه ليس محيطاً بحركة القومية العربية الثورية إحاطة تتيح له ان يستشهد بها في هذا السياق دون ارتكاب عدة أخطاء، وواضح أن الخطأ الأساسي الذي انحدرت منه الاخطاء الأخرى هو ظنه أن هناك قوميات عربية، كالقوميات الافريقية، وأن هناك ثقافات قومية عربية كالثقافات القومية الإفريقية. لقد جهل ان العرب في جميع أقطارهم إنما ينتمون الى قومية واحدة، وان نضال العرب في جميع مراحله إنما كان يهدف دائماً الى التحرر القومي وإلى الوحدة القومية معاً، وأن تحقيق الوحدة انما هو عودة الى الواقع القومي السابق على الاستعمار، لأن الاستعمار هو الذي جزأ الوطن العربي، وأن الثقافة العربية ثقافة واحدة من فجر وجودها الى يومنا هذا، وأن هناك تراثاً ثقافياً واحداً للعرب جميعاً في وطنهم العربي كله، وان هذا التراث الثقافي ظل حياً طوال تاريخ العرب، لم ينقطعوا عنه ولا انقطع عنهم، وان انقطعوا عن إغنائه خلال فترات مظلمة من تاريخهم، فليست عودتهم اليه كعودة شعوب افريقيا الى التغني بحضارات قديمة رداً على محاولات الاستعمار.

(المترجم)

للأوروبيين المتبجحين النرجسيين أن هناك ثقافة إفريقية ، فكذلك كان السلوك المألوف لأعضاء هذه الجمعية . لقد سبق أن أوضحنا أن هذا الموقف طبيعي ، وأنه يستمد مشروعيته من الأكاذيب التي أشاعها رجال الثقافة الغربيون. ولكن انهيار أهداف هذه الجمعية قد تفاقم بنشوة فكرة الانتماء الى العرق الزنجي . ان « الجمعية الافريقية للثقافة » قد اصبحت جمعية ثقافية للعالم الأسود كله ، واصبحت تشمل جميع الزنوج ، وضمت اليها عشرات الألوف من السود المتوزعين في القارتين الأمريكيتين .

والواقع أن الزنوج الموجودين في الولايات المتحدة وفي أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية كانوا في حاجة الى ان يتشبثوا باطار ثقافي . وكانت المشكلة المطروحة عليهم لا تختلف اختلافاً عميقاً عن المشكلة التي يواجهها الافريقيون . فإن سلوك بيض أمريكا إزاءهم لا يختلف عن سلوك البيض المسيطرين على إفريقيا إزاء الافريقيين . وقد سبق ان رأينا ان البيض قد اعتادوا ان ينظروا الى جميع الزنوج نظرة واحدة ، ان يضعوهم جميعاً في كيس واحد . فلما عُقد المؤتمر الأول « للجمعية الأفريقية للثقافة » بباريز عام ١٩٥٦ ، رأينا الزنوج الأمريكيين يطرحون مشكلاتهم من تلقاء أنفسهم على نفس الصعيد الذي كان إخوتهم الإفريقيون يطرحون مشكلاتهم عليه .

ولكن الزنوج الأمريكيين ما لبثوا أن اخذوا يدركون شيئاً بعد شيء أن المشكلات الوجودية التي يعانونها لا تلتقي مع مشكلات الزنوج الإفريقيين . لقد كان زنوج شيكاغو لا يشبهون النيجريين والطانغانيقيين إلا من حيث أن هؤلاء وأولئك جميعاً كانوا يعرّفون أنفسهم على أساس التعارض بينهم وبين البيض. حتى إذا انتهت المواجهات الأولى ، وهدأت الذاتية ، أدرك الزنوج الأمريكيون أن المشكلات الموضوعية مختلفة اختلافاً عميقاً ، وليس بينها شيء من التجانس . إن سيارات الحرية التي يطوفون عليها بيض وسود منادين بعدم التفريق العنصري لا تمت في مبدئها وفي أهدافها بصلة الى الكفاح البطولي الذي يخوض غماره شعب أنجولا ضد الاستعمار البرتغالي ، لذلك رأينا الزنوج الأمريكيين يقررون في

المؤتمر الثاني « للجمعية الإفريقية للثقافة » أن ينشئوا « جمعية أمريكية » لرجال الثقافة السود .

وهكذا فإن فكرة الانتماء الى العرق الزنجي تصطدم أولاً بالوقائع التي تفسر تاريخية الناس . لقد تفتتت فكرة الثقافة الزنجية ، فكرة الثقافة الزنجية الإفريقية ، لأن الناس الذين ارادوا أن يجسّدوها أدركوا ان كل ثقافة إنما هي ثقافة قوميه قبل كل شيء ، وان المشكلات التي أيقظت ريتشارد رايت أو لانجستون هوجز تختلف اختلافاً اساسياً عن المشكلات التي أيقظت ليوبولدسنغور أو جومو كنياتا.

كذلك نرى ان المشكلة الثقافية ، على نحو ما هي مطروحة في البلدان المستعمرة ، يمكن ان تؤدي الى التباسات خطيرة . إن اتهام الاستعمار للزنوج بأنهم لا ثقافة لهم قد أدى منطقياً الى تمجيد حماسي لا للظاهرات الثقافية القومية بل للظاهرات الثقافية الخاصة بالقارة كلها ، كما أدى الى إسباغ طابع عرقي على هذه الظاهرات الثقافية . إن سعي المثقف في افريقيا هو الى ثقافة زنجية افريقية لا الى ثقافة قومية خاصة . وبذلك تنقطع الثقافة عن الواقع الراهن ، وتروح تعتصم ببؤرة عاطفية متأججة ، وتعجز عن أن تشق لنفسها طرقاً محسوسة هي الطرق الوحيدة التي يمكنها مع ذلك أن تهيىء لها صفات الخصوبة والتجانس والقوة .

وإن كان التاريخ يحدّ عمل المثقف المستعمَر ، فإن عمل هذا المثقف المستعمَر يساهم مساهمة كبيرة في دعم عمل السياسيين وإظهار مشروعيته . ويجب أن نعترف بأن جهود المثقف المستعمَر قد تأخذ في بعض الأحيان طابع عبادة ، طابع دين . ولكننا إذا أردنا ان نحلل هذا الموقف تحليلاً عميقاً ، أدركنا انه يعبر عن إدراك المستعمَر لخطر انقطاع آخر روابطه بشعبه . فهذه المناداة الحماسية بوجود ثقافة قومية إنما هي في واقع الأمر عودة حارة مستميتة الى أي شيء . فالمستعمَر ، من أجل ان يكفل خلاصه ، من أجل ان يفلت من غلبة ثقافة البيض ، يشعر ان عليه ان يرجع الى الجذور المجهولة ، وان يغرق في خضم هذا

الشعب الهمجي مهما يكن من أمر . إن المستعمَر ، إذ يحسّ انه بسبيل الضياع ، بسبيل ان يصبح محل تناقضات قد لا يمكن تجاوزها ، ينتزع نفسه من الغدير الذي يوشك ان يغوص فيه ، ويقرر بكل اندفاع جسمه واندفاع عقـله ان يحمل القضية ، وان يـؤكد ، ويكتشف ان عليه ان يكون مسؤولاً عن كل الأمور وعن جميع الناس . ولا يكتفي بعدئذ ان يكون مدافعاً ، وإنما يقبل ان يُحشر مع سائر الآخرين ، وفي وسعه منذ ذاك ان يسمح لنفسه بالضحك على جنبه السابق .

وهذا الانتزاع الشائك المؤلم هو مع ذلك أمر ضروري . وما لم يـتم فإننـا نشهد انلبارات نفسية عاطفية هي على جانب كبير من الخطورة ، نشهد أناساً بلا شاطىء ولا حدّ ولا لون ولا وطن ولا جذور . كذلك لا نستغرب أن نسمع بعض المستعمَرين يقولون : « انني أتكلم بصفتي سنغالياً وفرنسياً .. إنني اتكلم بصفتي جزائريـاً وفرنسياً ... » . لقد كان على المثقف العربي الفرنسي ، او النيجري الانجليزي ، حين اضطر الى حمل جنسيتين ، الى حمل صفتين ، ان يختار إنكار إحدى هاتين الصفتين ، إذا هو اراد ان يكون صادقاً . ولكن هؤلاء المثقفين ، لأنهم في كثير جداً من الأحيان لا يريدون او لا يستطيعون ان يختاروا ، يلمّون جميع الصفات التي فرضها عليهم التاريخ الذي كوّنهم ، فإذا هم يضعون أنفسهم رأساً في « أفق عالمي » .

ذلك أن المثقف المستعمَر قد ارتمى على الثقافة الغربية في نهم شديد. وكالطفل المتبنّى الذي لا يكف عن تحري الإطار العائلي الجديد إلا حين يتبلور في نفسه حد أدنى من الشعور بالأمن ، ترى المثقف المستعمَر يحاول ان يجعل الثقـافة الغربية ثقافته . إنه لا يكتفي بأن يعرف رابليـه أو ديـدرو ، وشكسبير أو إدجار بو ، بل هو يشد دماغه الى أقصى حد من التشارك مع هؤلاء الناس :

ما كانت السيدة وحيدة

بل كان لها زوج

زوج ممتاز

« ما كانت السيدة وحيدة
بل كان لها زوج
زوج ممتاز
يروي راسين وكورناي
وفولتير وروسو
والاب هوجو والفتى موسيه
وجيد وفاليري
وكثيراً غيرهم » (١)

ولكن حين تعبيء الأحزاب الوطنية الشعبَ في سبيل الاستقلال الوطني ، فإن المثقف المستعمَر قد يركل برجليه في بعض الأحيان هذه المكتسبات التي يحس فجأة أنها تضيّعه. ومع ذلك فإن المناداة بالنبذ أسهل من النبذ حقاً. فهذا المثقف الذي تغلغل بتحايل الثقافة الى المدنية الغربية ، ووصل إلى ان يدمج جسمه في جسمها ، أي الى ان يفقد جسمه ، لا يلبث أن يلاحظ ان الثقافة التي يريد الآن أن يحملها لحرصه على الأصالة ، لا تملك وجوهاً كثيرة تصمد للمقارنة بينها وبين الوجوه الكثيرة المتألقة ، ووجوه مدنية المستعمِر المحتل .

صحيح ان التاريخ ـ وقد كتبه من جهة أخرى غربيون لغربيين ـ يمكن ان يهب قيمة لبعض عهود الماضي الافريقي من حين الى حين ، ولكن هذا المثقف ، حين يقف أمام حاضر بلاده ، ويلاحظ ملاحظة واضحة « موضوعية »، الواقعَ الراهن الذي تعيشه هذه القارة التي يريد ان يجعلها قــارته ، يشعر برعب مما يرى من فراغ وهمجية وتوحش . وإذ يشعر أنه لا بد له من مبارحة ثقــافة البيض ، وان عليه ان يبحث عن غيرها في أي مكان ، وإذ يعجـز عن العثور على غذاء ثقافي من مستوى الثقــافة التي يعرض عليه المستعمِر منظرها الجيد الرائع ، تراه في كثير جداً من الأحيان يرتد الى مواقع حماسية متعصبة ، وتنمو في نفسه حساسية مفرطة شديدة التأذي سريعة الانجراح منطوية على نفسهـا . وهذا الانطواء الذي يتصف في آليته الداخلية وفي ملامحه الظاهرة بأنه انكفاء،

١ – رونيه دوبستر ، « وجهاً لوجه أمام الليل » .

يولّـد حنقاً وتوتراً عضلياً .

وهذا هو السبب فيما يتصف به أسلوب الكتاب المستعمَرين الذين قرروا أن يعبروا عن هذه المرحلة من الوعي الآخذ بالانطلاق ، من انه أسلوب متصادم ، مليء بالصور (إن الصورة هي الجسر الذي يتيح للطاقات اللاشعورية ان تتناثر في المراعي المجاورة) ، عصبي ، فياض بالإيقـــاع ، تسكنه هنا وهناك حياة انفجارية ، غني بالألوان ، برونزي ، ملوّح بأشعة الشمس ، عنيف هـادر . إن هذا الأسلوب الذي أدهش الغربيين في حينه لا يرجع ، كما أرادوا ان يقولوا ، الى طبع عرقي ، وإنما هو قبل كل شيء تعبير عن قتال . إنه يكشف عن الضرورة التي وجد المستعمَر نفسه فيها ، وهي ان يؤذي نفسه ، أن يفصد جسمه لينزف منه دم احمر ، أن يتحرر من جزء من كيـانه الذي أصبح يضم بذور تعفن . قتال أليم مرير ، سريـع ، لا بد فيه حتماً من ان تحل العضلات محل التصور .

ولئن بلغ هذا الجهد على مستوى الشعر ذرى لا عهد بمثلهـــا من قبل ، فإن المثقف كثيراً ما يسير على صعيد الوجود في طريق مسدودة غير نافذة . إنه وقد وصل الى قمة الاندماج في شعبه مهما يكن هذا الشعب ، لا يحمل من مغامراته حين يقرر ان يرتد الى طريق الحياة اليومية إلا اموراً عقيمـة لا تؤتي ثمرة من الثمرات . إنه يأخذ يفضّل العادات والتقاليد والمظاهر ، ويتغنى بها ، ولا يزيد جهده عندئذ على التذكير بنوع رخيص من سعي الأجانب الى غرائب البـــلاد الأخرى . هذه هي الفترة التي يأخذ فيها المثقفون بالتغني بأيسر مشهد من مشاهد الحياة في البـلاد ، يقدسون البوبو ، ويخلعون الاحذية الباريسية أو الايطالية لينتعلوا البابوج ، حتى أنهم ليأخذون يكرهون لغة المستعمِر ويشمئزون منها . ان الرغبة في العودة الى أحضان الشعب تكون في بعض الاحيان أثناء هذه الفترة رغبةً في ان نكون زنوجاً ، لازنوجاً يشبهون غيرهم من الناس ، بل زنوجـاً زنوجاً ، زنوجاً كلاباً كما يريد لنا البيض ان نكون .

ويقرر المثقف المستعمَر أن يحصي العادات السيئة التي استمدها من العالم

الاستعماري ، ويمضي يتذكر عادات الشعب الطيبة وأخلاقه الحميدة ، الشعب الذي قرر المثقف أن ينسب اليه انه مستودع كل حقيقة .

والدهشة التي يولّدها هذا المسعى في صفوف الاستعماريين المقيمين بالبلاد المستعمَرة يزيد المستعمَر ثباتاً على خطته . حتى إذا شعر الاستعماريون الذين تذوقوا لذة ظفرهم بتمثل هؤلاء الناس وامتصاصهم ، أن هؤلاء الرجال الذين ظنوا أنهم أنقذوهم ، قد عادوا الى صفوف الزنوج ، أحسوا أن عهدهم كله يهتز ويترنح . فكل مستعمَر كسبوه ، كل مستعمَر انتزعوه ، إنما يدلهم حين يقرر ان ينسحب ، على أن المشروع الاستعماري مخفق ، كما يرمز لهم الى أن العمل الذي قاموا به كان عبثاً لا جدوى منه ، وكان سطحياً لا عمق فيه . إن انسحاب كل مستعمَر إنما هو إدانة جذرية للمنهج المتبع وللنظام القائم . ويجد المستعمَر في هذه الدهشة التي أثارها في صفوف الاستعماريين مسوّغاً لانسحابه ومشجعاً على الاستمرار فيما شرع فيه .

وإذا نحن أردنا ان نعرف من خلال آثار الكتّاب المستعمَرين المراحل المختلفة التي يقطعها هذا التطور ، رأينا أمام أعيننا مشهداً ذا ثلاثة أزمان . ففي مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على انه قد هضم ثقافة المستعمِر المحتل ، فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة ، وإلهامه أوروبي ، حتى ليمكن بسهولة ان تُربط هذه الآثار بتيار معين من تيارات الأدب الغربي . هذه هي مرحلة التمثل الكامل ، وأثناء هذه المرحلة نجد بين الأدباء المستعمَرين برناسيين ، ورمزيين ، وسرياليين .

وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمَر ويقرر أن يتذكر نفسه . وهذه المرحلة من الخلق تقابل على وجه التقرب خطوة الفوضى التي وصفناها منذ قليل . ولكن لما كان المثقف المستعمَر غير متغلغل في شعبه ، لما كانت علاقاته بشعبه علاقات خارجية ، فإنه في هذه المرحلة لا يزيد على أن يتذكر . إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته ، ويعود الى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة ، على ضوء فلسفة في العالم وضعت تحت سماء

غير هذه السماء . وهذا الأدب السابق على المعركة يكون في بعض الأحيان أدب سخرية ورمز . هذه مرحلة قلق ، مرحلة انزعاج ، مرحلة يعاني فيها الأديب تجربة الموت ، وتجربة الغثيان أيضاً . إنه يتقيأ ، ولكن الضحك ينطلق ها هنا خفية من تحت .

وفي مرحلة ثالثة، مرحلة أخيرة تسمى مرحلة المعركة، نرى المثقف المستعمَر بعد أن حاول أن يغرق في الشعب ، يعمد الى عكس ذلك ؛ فهو الآن يهز الشعب . إنه الآن بدلاً من أن يغفو غفوة الشعب ، يستحيل الى موقظ للشعب . إنه الآن ينتج أدب معركة ، ينتج أدباً ثورياً ، أدباً قومياً . وفي أثناء هذه المرحلة نجد عدداً كبيراً من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يوماً أن ينشئوا أثراً أدبياً، يحسّون فجأة حين يوضعون في ظروف استثنائية ، حين يوضعون في السجن مثلاً أو حين تقرر السلطات تنفيذ حكم الاعدام فيهم ، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم ، أن يكتبوا الجملة التي تفصح عن شعبهم ، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد يتحقق .

وفي أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلاً أو آجلاً أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة ،بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال . ما من استعمار يبرهن على مشروعيته بكون البلاد التي يحتلها ليس فيها ثقافة . إنك لن تُخجل الاستعمار حين تنشر أمام بصره الكنوز الثقافية المجهولة . إن المستعمَر المثقف حين يهمّه أن يضع أثراً أدبياً ينسى ان التكنيك الذي يستعمله ؛ واللغة التي يكتب بها إنما هما مستعاران من المستعمِر المحتمل ؛ ويكتفي بأن يكسو هذه الأدوات بثوب يريد له أن يكون قومياً ، ولكنه كالأدب الغربي الذي يتكلم عن البلاد الأخرى . إن المثقف المستعمَر الذي يعود الى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية إنما يتصرف في الواقع تصرف أجنبي . وهو في بعض الأحيان لا يتردد عن الكتابة بلهجات محلية إظهاراً لرغبته في أن يكون قريباً من الشعب الى اقصى حد ممكن ، ولكن الافكار التي يعبر عنها والمشاغل التي تسكنه لا صلة بينها وبين الظرف المحسوس الذي يعيش فيه الرجال والنساء في

بلاده . إن الثقافة التي يعكف عليها المثقف المستعمَر ليست في اكثر الأحيان إلا مجموعة من التفردات . لقد أراد أن يلتصق بالشعب، فإذا هو يلتصق بمظهره المنظور . وليس هذا المظهر في الواقع إلا انعكاس حياة داخلية خفية كثيفة ما تنفك في حركة وتجدد . إن المظهر الموضوعي الذي يخطف البصر ويبدو مميزاً للشعب ليس في حقيقة الأمر إلا ثمرة جامدة "مُنكَرَة" منذ الآن ، لتكيفات معينة ، غير منسجمة دائماً ، حققها جوهر أساسي هو الآن في حركة تجددية قومية . فالمثقف بدلاً من أن يمضي باحثاً عن ذلك الجوهر تراه يُفتن بهذه المزق المحنطة التي كان ينبغي أن يدفعه تجمدها الى الإنكار والتجاوز والابتكار. ينبغي ان تشف الثقافة عن الأعمال، وان تبتعد عن النظرة التبسيطية . إن الثقافة هي في جوهرها نقيض العادات الجامدة التي ليست إلا حطام الثقافة . فاذا أردت أن تلتصق بالتقاليد أو أن تحيي التقاليد البالية كنت تعاكس تيار التاريخ بل كنت تعاكس شعبك. حين يخوض شعب من الشعوب كفاحاً مسلحاً ، أو حتى كفاحاً سياسياً ضد استعمار غاشم ، فإن التقاليد تتبدل دلالتها . وما كان أسلوباً للمقاومة يمكن الآن أن يُدان إدانة جذرية . إن التقاليد في بلد متخلف مكافح ، ليست ثابتة بل متحركة ما تنفك تشقها تيارات متجهة الى المنبع . لذلك فإن المثقف كثيراً ما يوشك ان يقف في وجه الزمن . إن الشعوب التي خاضت غمار الكفاح تنفر من الديماغوجية شيئاً بعد شيء ، ويصبح من المستحيل أن تؤثر فيها الديماغوجية . فإذا أسرفت في مماثلتها فسرعان ما تكتشف فيك انتهازياً رخيصاً بل وعائقاً يعرقل تقدمها .

لننظر الى الفنون التشكيلية مثلاً . ان الفنان المستعمَر الذي يريد أن يصنع أثراً قومياًمهما كلف الأمر يفرض علىنفسه أن ينقل التفاصيل نقلاً جامداً. إن أولئك الفنانين الذين تعمقوا التكنيك الحديث وشاركوا في كبرى تيارات التصوير الحديث أو العمارة الحديثة ، يديرون الآن ظهورهم للثقافة الاجنبية وينكرونها ، ويفضّلون ، في بحثهم عن الطابع القومي الحقيقي ، ما يحسبون أنه المقوّمات الثابتة في الفن القومي . ولكن هؤلاء الخالقين ينسون أن أشكال

التفكير ، وأنواع الغذاء ، والأساليب الحديثة في الإعلام واللغة والملبس قد طوّرت دماغ الشعب ، وأن المقومات الثابتة التي كانت سياجاً حارساً في عهد الاستعمار تعاني الآن طفرات جذرية هائلة .

ان ذلك الفنان الذي يقرر ان يصف الحقيقة القومية ، يتجه صوب الماضي ، صوب ما ليس له وجود راهن . والحق أن ما يصوره عندئذ إنما هو فضلات الفكر ، إنما هو الظاهر الخارجي ، إنما هو الجثث الميتة ، إنما هو المعرفة المحنطة . يجب على المثقف المستعمَر الذي يريد ان يصنع أثراً أصيلاً صادقاً ان يدرك أن الحقيقة القومية إنما هي الواقع القومي أولاً وقبل كل شيء . إن عليه أن يغوص الى المنبع الفوار الذي تتهيأ فيه صورة المعرفة الجديدة .

لقد كان المصوّر المستعمَر لا يحس قبل الاستقلال مشهد الحياة القومية ، فكان يؤثر الفن الذي لا يمثل شيئاً ، أو كان في أكثر الأحيان ينصرف الى تصوير الطبيعة الصامتة . حتى إذا جاء عهد الاستقلال ، رأينا حرصه على الالتحاق بالشعب أصبح يحمله على ان ينقل الواقع القومي نقلاً دقيقاً ، نقلاً لا إيقاع فيه ، نقلاً هادئا ، ساكناً ، جامدا ، لا يذكّر بالحياة بل بالموت . ولئن اخذت الأوساط المثقفة تسكر أمام الحقيقة التي صوّرها الفنان تصويرا أمينا ، فإن من حقنا أن نتساءل هل هذه الحقيقة واقعية ، أم ان الملحمة التي من خلالها يشق الشعب لنفسه طريقا نحو التاريخ قد تجاوزت تلك الحقيقة ، ونفتها ، واعادت النظر فيها .

ونستطيع ان نقول هذه الملاحظات نفسها بصدد الشعر . فبعد المرحلة التي تمثل فيها الشعراء الوطنيون الشعر الغربي الذي يلتزم القافية ، ظهر الايقاع الشعري الذي يستلهم الموسيقى الشعبية (تَمْ تَمْ) . ولكن يجب ان يفهم الشاعر أن لا شيء يمكن ان ينوب عن الانضمام الى صفوف الشعب انضماما عقليا لا ينكص . ولنستشهد مرة اخرى بالشاعر بالشاعر دوبستر .

« لم تكن السيدة وحيدة
كان لها زوج

زوج يعرف كل شيء .
ولكنه ، ان شئت الصراحة ، لا يعرف شيئا البتة .
لان الثقافة لا تكون بغير تنازل .
تنازل المرء عن لحمه ودمه ،
تنازله عن نفسه للآخرين .
تنازل هو خير من الكلاسيكية والرومانسية جميعا .
ومن كل ما يسقي فكرنا » (١) .

إن الشاعر المستعمَر الذي يعنيه أن يصنع أثراً قومياً ، ويصرّ على أن يصف شعبه ، يخطىء هدفه ، لأنه لم يجعل نفسه قبل القول قادرا على أن يحقق ذلك التنازل الأساسي الذي يحدثنا عنه دوبستر . لقد فهم الشاعر الفرنسي رونيه شار هذا الأمر حق الفهم حين قال : « إن القصيدة تنبع من فرض ذاتي واختيار موضوعي . القصيدة جملة متحركة من قيم أصلية محدّدة هي على صلات معاصرة بشخص يجعله هذا الظرف أول » . (٢)

نعم ان أول واجب يقع على عاتق الشاعر المستعمَر هو أن يحدّد ،بوضوح، الشعب الذي هو موضوع إبداعه. وليس في وسعه أن يتقدم في عزم إلا إذا وعى أولاً ضياعه . لقد أخذنا كل شيء عن الجهة الاخرى . ومن المحقق أن هذه الجهة الأخرى لا تعطينا شيئاً إلا إذا استطاعت بألف حيلة أن تعطفنا إلى اتجاهها،الا إذا استطاعت بألف مخاتلة ،بمائة ألف مراوغة،أن تجذبنا،أن تفتننا،أن تسجننا. متى أخذنا فقد أصبحنا مأخوذين ، على مستويات كثيرة . فليس يكفي إذن أن نفك انفسنا بالمطالبة تلو المطالبة والانكار بعد الانكار . ليس يكفي ان نلحق بركب الشعب في ذلك الماضي الذي لم يبق له وجود بل ينبغي ان نلحق بركب الشعب في هذه الحركة المقاتلة التي شرع يقوم بها ، والتي ستفضي فجأة إلى إعادة النظر في كل شيء . إلى ذلك الموضع من التحرك المختبىء ، إلى ذلك الموضع الذي يقوم فيه الشعب ، إنما يجب ان ننتقل ، فهنالك ولا شك إنما تتكون روح

---

١ – رونيه دوبستر . « وجهاً لوجه أمام الليل » .
٢ – رونيه شار « قسمة شكلية ».

الشعب ، ويضيء إدراكه ويتوهج إلهامه .

إن كيتا فوديبا ، وهو الآن وزير داخلية جمهورية غينيا ، لم يخاتل واقع شعب غينيا ، حين كان مدير « الباليه الافريقي » . لقد أبرز جميع الصور الإيقاعية لشعبه وأوضحها وأوّلها على أساس ثوري . ولكنه فعل أكثر من ذلك أيضاً . إننا نجد في مؤلفاته الشعرية ، غير المعروفة كثيراً ، حرصاً دائماً على إبراز اللحظة التاريخية التي يجتازها الكفاح القومي ، وعلى تحديد الميدان الذي يتحقق فيه العمل ، والأفكار التي تتبلور حولها الارادة الشعبية . استمعوا معي الى هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا ، والتي هي إهابة صادقة الى التفكير ، الى التخلص من التضليل ، الى خوض المعركة :

فَجـْر إفــريقي

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر. القرية الصغيرة التي رقصت طوال نصف الليل على أصوات الطبل، أخذت تستيقظ شيئاً فشيئاً. الرعاة الذين يرتدون أسمالاً بالية وينفخون في الناي ، يسوقون قطعانهم في الوادي. الصبايا اللواتي يتسلحن بطيور الكناري يدلف بعضهن وراء بعض في الممر المتعرج الذي يفضي الى النبع. وفي فناء بيت الشيخ ترتل طائفة من الصبية آيات من القرآن.

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند الفجر . النهار يصارع الليل . ولكن الليل قد نضبت قواه ، فهو ينسحب على هون . أشعة قليلة من الشمس تظهر في الأفق طلائعَ لهذا النصر الذي يفوز به النهار ، طلائع بطيئة وجلى شاحبة ، والنجوم الأخيرة تنسحب في رفق وراء الغيوم أشبه بشعل ملتهبة من أزهار.

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر . هناك في آخر السهل الواسع، الذي يحف به الارجوان، كان رجل منحنياً على الارض يعزقها : إنه نعمان، الفلاح، فكلما هوى بفأسه على التراب طارت العصافير مذعورة ، ومضت تحط بخفق الجناح على الضفاف الهادئة من نهر نيجر العظيم. سروال نعمان، المنسوج من قطن،

المخضل بالندى ، يصفع العشب على الجانبين . ونعمان يتصبب عرقه ، ولكنه لا يتعب ، لا يعرف التعب سبيلا اليه ، وما ينفك يقوم وينحني ، هاويــــاً بفأسه على الأرض في حذق ومهارة . ذلك أن عليه أن يدفن بذوره في التراب قبل ان تمطر السماء من جديد .

(موسيقى بوق)

كان ذلك عند طلوع الفجر . الطيور تتواثب بين أوراق الشجر مؤذنة بالنهار . وعلى السهل المبتل كان يركض طفل صغير ، معلقـاً جعبةَ سهامه على كتفيه ، متجهاً الى نعمان ، لاهثاً ، ينادي : « ايها الاخ نعمان ، رئيس الضيعة يطلب أن يجتمع بك تحت الشجرة » .

(موسيقى بوق)

دهش الفلاح من استدعائه في الصباح المبكر ، ووضع فأسه على الأرض ثم مضى الى القرية التي أصبحت تتلألأ الآن بأشعة الشمس الطالعة . كان «المحاربون القدماء » قد بدأوا اجتماعاتهم وظهرت في وجوههم امارات الجد والوقار . والى جانبهم رجل يرتدي ملابس عسكرية قد جلس هادئاً يدخن غليونه .

(موسيقى بوق)

جلس نعمان على جلد خروف . ونهض رئيس القرية ليبلغ المجلس ارادةَ المحاربين القدماء : « لقد أرسل البيض رسولاً يطلب بلسانهم أن يمضي رجل من رجال القرية الى الحرب في بلادهم . وتشاور وجوه القرية في الأمر فاستقر رأيهم على أن يختاروا لهذه المهمة فتى هو بين فتيان بلادهم أشجعهم ، حتى يبرهن في معركة البيض على ما امتاز به رجالنا دائماً من بسالة واقدام » .

(موسيقى قيثارة)

ان نعمان الذي تشيد الفتيات كل ليلة بقوامه المهيب وعضلاته القوية هو الفتى الذي وقع عليه الاختيار . اضطربت زوجته الحلوة ، قاضية ، أشد الاضطراب ، فانقطعت عن الدق ، ووضعت جرنها تحت النير ، ولزمت حجرتها تبكي شقاءها

نشيجاً مخنوقاً. لقد خطف الموت زوجها الاول، وهي لا تستطيع أن تتصور ان يخطف البيض زوجها الثاني الذي تستريح عليه جميع آمالها الجديدة.

(موسيقى قيثارة)

في الغداة ، رغم دموعها وآهاتها ، قُرعت طبول الحرب تشيع نعمان الى مرفأ القرية الصغير، حيث استقل قارباً الى مركز المنطقة . فلما جاء الليل لم ترقص الصبايا في ساحة القرية على عادتهن ، بل جئن الى كوخ نعمان يتجاذبن أطراف القصص حتى الصباح حول نار الحطب .

(موسيقى قيثارة)

انقضت عدة شهور ولا نبأ من نعمان . بلغ القلق بقاضية الصغيرة أنها لجأت الى ساحر القرية المجاورة تستفتيه . وتحدث الشيوخ أنفسهم في الامر حديثاً قصيراً لم يتسرب منه الى احد شيء .

(موسيقى بوق)

ووصلت أخيراً الى القرية رسالة من نعمان بعثها الى قاضية. فما كان من قاضية التي كان مصير زوجها يؤرقها، إلا أن ذهبت في تلك الليلة نفسها الى مركز المنطقة، بعد ساعات شاقة من السير على الاقدام، ومضت الى مترجم ليقرأ لها الرسالة.

كان نعمان في افريقيا الشمالية . ان صحته جيدة وهو يسأل ان يوافوه بأنباء الحصاد ، والاحتفالات ، والرقصات ، والشجرة التي تنعقد في ظلها الاجتماعات، والقرية ...

(نقرات دف)

في تلك الليلة أهدت النساء الى قاضية حق حضور أحاديثهن المألوفة عند المساء في بيت كبراهن. وسر رئيس القرية بالنبأ ، فأولم وليمة لجميع شحاذي القرى المجاورة .

(نقرات دف)

انقضت عدة أشهر أخرى، وعاد الناس جميعاً يقلقون على مصير نعمان، لانهم

لا يعرفون عنه شيئاً . وكانت قاضية قد عقدت نيتها على الذهاب الى الساحر مرة أخرى تستفتيه ، حين وصلت اليها رسالة ثانية . إن نعمان، بعد ان ذهب الى كورسيكا ثم الى ايطاليا ، أصبح الآن في المانيا . وهو يهنيء نفسه بحصوله منذ الآن على اوسمة .

(نقرات دف)

ومرة اخرى وصلت بطاقة تقول ان نعمان قد اسره الالمان . ثقل النبأ على صدر القرية. وعقد «القدماء» مجلسهم، فقرروا ان يكون لنعمان، بعد الآن، حق الاشتراك في رقصة الدوجا، رقصة العقاب المقدسة التي لا يجوز لاحد ان يرقصها ما لم يقم بعمل باهر، رقصة الاباطرة الماليين التي تلخص كل خطوة من خطواتها مرحلة من مراحل تاريخ مالي. كان ذلك عزاء للصغيرة قاضية ... لقد واساها ان يرتفع زوجها الى منزلة الابطال من رجال البلاد .

(موسيقى قيثارة)

الزمان ينقضي ... سنتان تمضيان ... ونعمان ما يزال في المانيا . انه لا يكتب .

(موسيقى قيثارة)

في ذات صباح تلقى رئيس القرية من داكار بضع كلمات تقول ان نعمان واصل الى القرية قريباً . فما ان ذاع النبأ في القرية حتى قرعت الطبول ، وأخذ الناس يرقصون ويغنون حتى مطلع الفجر . والفت الصبايا ألحاناً جديدة لاستقبال العائد ، لأن الالحان القديمة لم تتحدث عن رقصة الدوجا ، عن رقصة العقاب الشهيرة .

(قرع طبول)

ولكن بعد شهر أرسل العريف موسى وهو صديق عزيز من اصدقاء نعمان هذه الرسالة الفاجعة الى قاضية: « كان ذلك عند طلوع الفجر. كنا في « تياروي

على البحر » ، ففي أثناء مشاجرة كبيرة قامت بيننا وبين رؤسائنا البيض اخترقت رصاصة قلب نعمان . انه الآن راقد في ارض سنغالية » .

(موسيقى قيثارة)

حقا لقد كان ذلك عند طلوع الفجر . كانت اولى اشعة الشمس التي لا تكاد تلامس سطح البحر تذّهب امواجه الصغيرة المتجعدة . وكانت اشجار النخيل التي تهب عليها انسام خفيفة تحني جذوعها نحو البحر في رفق وحنان ، كأنما هدّتها هذه المعركة الصباحية . والغربان تتوافد على القريـــة اسرابا صاخبة تحمل بنعيقها نبأ المأساة التي ادمت فجر تياروي . وفي الأفق المحترق ، فوق جثمان ، نعمان تماما ، كان ثمة عقاب ضخم يحلق في ثقل ، كأنه يقول له : « يا نعمان إنك لم ترقص هذه الرقصة التي تحمل اسمي. لسوف يرقصها آخرون ».

(موسيقى بوق)

لئن اخترت هذه القصيدة الطويلة فذلك لما لها من قيمة تربوية لا سبيل الى جحودها . الأمور هنا واضحة . الشاعر يعرض الأمور عرضاً دقيقاً متدرجاً. إن فهم هذه القصيدة ليس مسيراً عقلياً فحسب ، بل هو مسير سياسي أيضاً . من فهم هذه القصيدة فقد فهم الدور الذي يجب عليه أن يقوم به، وادرك المهمة التي يجب عليه ان ينهض بها ،وأخذ يشحذ سلاحه . إن نعمان الذي كان بطل ساحات معركة اوروبا،نعمان الذي كفل القوة والاستمرار للعاصمة التي تستعمر بلاده ، نعمان الذي اخترقت قلبه رصاصة من رصاصات قوى الشرطة في اللحظة التي يرجع فيها الى أرض آبائه وأجداده ، إن نعمان هذا هو صطيف ١٩٤٥ ، هو فور دي فرانس، هو سايجون، هو داكار ، هو لا جوس. إن جميع أولئك الزنوج الذين قاتلوا دفاعاً عن حرية فرنسا أو عن حضارة بريطانيا موجودون في هذه القصيدة التي نظمها كيتا فوديبا .

ولكن كيتا فوديبا ينظر الى أبعد من ذلك ايضاً . فالاستعمار بعد أن يستعمل أهل البلاد المستعمَرة في ساحات القتال ، يستعملهم كمحاربين قدماء في

تحطيم حركات الاستقلال . إن جمعيات المحاربين القدماء هي في المستعمرات إحدى القوى التي يستعملها الاستعمار في محاربة الحركة القومية . وقد أعد الشاعر كيتا فوديبا وزارة الداخلية في جمهورية غينيا لإحباط المؤامرات التي يحركها الاستعمار الفرنسي . فبواسطة المحاربين القدماء وغيرهم إنما كانت تنوي الدوائر الفرنسية السرية تحطيم الاستقلال الغيني الناشىء .

إن الإنسان المستعمَر الذي يكتب لشعبه بوصف الماضي إنما يجب عليه أن يفعل ذلك بغية َأن يفتح المستقبل ، وأن يهيب الى العمل ، وأن يعزز الأمل . ولكنك لا تستطيع أن تقوي الأمل وأن تهب له عمقاً وكثافة ما لم تشارك في العمل ، ما لم تنخرط في المعركة القومية جسماً وروحاً . إن في وسعك أن تتكلم عن أي شيء ، ولكن متى قررت أن تتكلم عن فتح الأفق ، عن إدخال النور الى ديارك ، عن وقوفك وقوف شعبك ، فقد وجب عليك أن تشارك في المعركة بعضلاتك .

ان مسئولية المثقف المستعمَر ليست مسئولية عن الثقافة القومية ، بل مسئولية كلية شاملة عن الأمة بأسرها التي ليست الثقافة الا جانباً من جوانبها . ما ينبغي للمثقف المستعمَر أن يهمَّه اختيارُ المستوى الذي يخوض فيه المعركة ، اختيارُ القطاع الذي يخوض فيه المعركة . فالكفاح في سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح في سبيل الحرية القومية ، الرحمِ الذي يكون نشوء الثقافة فيه ممكناً . ليس هناك معركة ثقافية تقوم على موازاة المعركة الشعبية . إن أولئك الرجال والنساء الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسي في الجزائر بقبضات أيديهم العزلاء إنما يقاتلون جميعاً في سبيل الثقافة القومية الجزائرية . إن الثقافة القومية الجزائرية تنشأ أثناء هذه المعارك ، في السجن ، أمام المقصلة ، في المراكز العسكرية الفرنسية التي تطوّق وتُهدّم .

ليس يكفي ان نغوص في ماضي الشعب ننتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف والاحتقار التي يقوم بها الاستعمار . وإنما يجب علينا ان نعمل ، ان نناضل مع الشعب ، من اجل ان نوضح المستقبل ، من اجل أن

نعدّ الأرض التي أخذت تتفتح فيها منذ الآن براعم قوية . ليست الثقافة القومية ذلك الفولكلور الذي حسب من ينظرون الى الأمور نظرة مجرّدة أنهم يكتشفون فيه حقيقة الشعب . ليست الثقافة القومية تلك الكتلة المتجمدة من الحركات الصرفة التي أصبح ارتباطها بالواقع الراهن يضعف شيئاً بعد شيء . وانما الثقافة القومية مجموعة الجهود التي يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من أجل ان يصف وأن يبرر وأن يغني النضال الذي به يتكون الشعب ويبقى . يجب على الثقافة القومية في البلدان المتخلفة ان تضع نفسها في القلب من كفاح التحرير الذي تخوض هذه البلدان معاركه . ينبغي لرجال الثقافة الإفريقيين الذين ما يزالون يناضلون باسم الثقافة « الزنجية الافريقية » ، والذين عقدوا المؤتمرات تلو المؤتمرات باسم وحدة هذه الثقافة ، أن يدركوا الآن أن نشاطهم أصبح لا يزيد على المقارنة بين جثث أو المضاهاة بين توابيت .

ليس هناك مصير مشترك بين الثقافتين القوميتين ، السنغالية والغينية ، بل هناك وحدة في المصير بين الأمتين الغينية والسنغالية اللتين يسيطر عليهما استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي . واذا شئتم أن تكون الثقافة القومية السنغالية مشابهة للثقافة القومية الغينية ، فليس يكفي أن يقرر قادة الشعبين ان يطرحوا المشكلات على أسس متقاربة : مشكلة التحرير ، المشكلات النقابية ، المشكلات الاقتصادية . فحتى في هذه الحالة لا يمكن أن يكون ثمة تماثل مطلق ، لأن إيقاع مسير الشعب وإيقاع مسير القادة ليسا ايقاعاً واحداً .

لا يمكن أن يكون ثمة ثقافات متماثلة تماثلاً دقيقاً . واذا تخيلت أنك صانعٌ ثقافة زنجية ، فقد نسيت أن تمييز الزنوج عن غيرهم هو فكرة آخذة بالزوال لأن الذين أوجدوها يشهدون الآن انحلال تفوقهم الاقتصادي والثقافي [١] . لن

١ – في آخر حفلة لتوزيع الجوائز بمدينة دا كار، قرر رئيس الجمهورية السنغالية، ليوبولد –

يكون هناك ثقافة زنجية، لأنه مامن رجل من رجال السياسة يتصور أن رسالته هي أن يخلق جمهوريات زنجية. انما المشكلة هي أن نعرف المكانة التي يريد هؤلاء الرجال أن ينزلوها شعوبهم، ونوع العلاقات الاجتماعية التي يقررون ان ينشئوها ومفهومهم عن مستقبل الانسانية. ذلك هو الأمر المهم. وكل ما عداه كلام مزوّق وتضليل.

ان المثقفين الإفريقيين الذين اجتمعوا في روما ١٩٥٩ لم يكفوا عن الكلام عن الوحدة. ولكن واحداً من كبار المتغنين بهذه الوحدة الثقافية، أعني جاك راب مانانجارا، يشغل الآن منصب وزير في حكومة مدغشقر، وبهذه الصفة التي له الآن قرّر مع حكومته أن يقفوا ضد الشعب الجزائري في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. فلو كان راب أميناً لفكرته وفياً لنفسه لاستقال من تلك الحكومة، وراح يفضح اولئك الرجال الذين يدعون انهم يجسدون إرادة شعب مدغشقر. ان التسعين ألفاً من شهداء مدغشقر لم يكلفوا راب بأن يحارب مطامح الشعب الجزائري في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

ان الثقافة الزنجية الافريقية انما تقوى وتشتد حول كفاح الشعوب لا حول الأغاني او القصائد او الفولكلور. وهذا سنغور الذي هو ايضاً عضو في « الجمعية الافريقية للثقافة » والذي عمل معنا في مسألة الثقافة الافريقية هذه، لم يتورع، هو ايضاً، ان يصدر اوامره الى وفده بتأييد وجهات النظر الفرنسية في قضية الجزائر. ان المناداة بثقافة زنجية افريقية، ان وحدة الثقافة الإفريقية إنما تمرّ اولاً وقبل كل شيء بدعم كفاح التحرير الذي تخوضه الشعوب دعماً غير مشروط. وليس يريدُ ازدهار الثقافة الافريقية واشعاعها

سنغور، أن يضع في برامج التعليم دراسة فكرة العرق الزنجي. فاذا كان اهتمام رئيس جمهورية السنغال اهتماماً تاريخياً، فلا يمكن الا أن نوافقه على ما أراد. أما اذا كان المقصود خلق وجدان زنجي، فانه لا يزيد عندئذ على ان يدير ظهره للتاريخ الذي تولى تحرير اكثرية الزنوج من التفريق بينهم وبين غيرهم.

من لا يساهم مساهمة محسوسة في توفير الظروف التي يتحقق فيها هذا الازدهار وهذا الإشعاع ، أعني تحرير القارة الإفريقية .

أقول : ما من خطاب ولا نداء حول الثقافة ، ينبغي أن يصرفنا عن مهماتنا الأساسية التي هي تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه في كل لحظة ضد الأشكال الجديدة التي يتخذها الاستعمار، ونصر فيه إصراراً عنيداً على أن لا نُفتَن وأن لا نضلّل .

الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرر

إن السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كليـــة لم تلبث أن هدّمت الوجود الثقـــافي للشعب المستعمَر. فانكار الواقع القومي ، وإقامة علاقـات حقوقية جديدة ، ونبذ السكان الأصليين وعاداتهم ، وتجريد الأهالي من أملاكهم ، واستعباد الرجال والنساء استعباداً منظماً ، هذه الأمور كلها التي عمـــد إليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الامحاء الثقافي شيئاً بعد شيء .

لقد أوضحت ، منذ ثلاث سنين ، أمـــام مؤتمرنا الأول ، أن الظرف الاستعماري سرعان ما أحلّ محل الحيوية والحركة مواقف تمجيدية . فـــنرى البلاد المستعمَرة تحيط مجالها الثقافي بأسيجة وأوتاد . وهذا النوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقـاء في كثير من الوجوه . وترجع أهمية هذه المرحلة الى أن المستعمِر المضطهِد يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بـأن يلغي الوجود الموضوعي للأمة وللثقافة المضطهدتين ، وإنما يبذل جميع الجهود اللازمة من اجل ان يحمل المستعمَر على الاعـتراف بتخلف ثقافتـه التي استحالت إلى تصرفات غريزية ، وعلى الاعتراف بأن امته لا وجود لها ، بل وعلى الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غير منظم وغير كامل .

ولم يكن ردّ المستعمَر على هذا الوضع ردا وحيد الاتجاه . فبينما رأينا الجماهير تتمسك بالتقاليد التي لا تماشي الظرف الاستعماري ، وبينما رأينا اسلوب الحرفة يتقوى حـتى ليجمد على شكل ثابت ، رأينا المثقف يرتمي ارتماءً محمومـاً على

تحصيل ثقافة المستعمِر ، فإما أن يستخف بثقافته القومية ، وإما أن يأخذ يشيد بهذه الثقافة إشادة تفصيلية منهجية فيّاضة بالحماسة عقيمة .

وتتصف هاتان المحاولتان بصفة مشتركة ، هي أنهما كلتاهما تدخلان في تناقضات لا يمكن احتمالها . إن المستعمَر ، سواء أهرب من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها ، يظل عاجزاً عن إحداث أي تأثير ، لأنه لم يحلل الوضع الاستعماري تحليلاً صحيحاً دقيقاً . إن الوضع الاستعماري الذي يكاد يتناول كل شيء ، يوقف الثقافة القومية . فليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك ثقافة قومية ، أو حياة ثقافية قومية ، أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية ، ما دامت السيطرة الاستعمارية قائمة . وتنبجس في بعض الأحيان هنا وهناك محاولات جريئة لاستئناف الحيوية الثقافية ، وإعادة توجيه الموضوعات والأشكال والأنغام . وأنت إذا بحثت عن أهمية مباشرة محسوسة لهذه الانتفاضات لم تجد شيئاً . ولكنك إذا تابعت نتائجها الى حدودها القصوى أدركت أنها تهيىء لنزع الغشاوة عن وعي الشعب ، وللتنديد بالاضطهاد ، ولفتح باب كفاح التحرير .

إن الثقافة الوطنية هي في ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة . وسرعان ما تصبح مضطرة الى التخفي والسرية ، حتى لنلاحظ معنى السرية هذه في ردود الغاصب المحتل الذي يرى في كل مجاراة للتقاليد ثباتاً على الروح القومية ورفضاً للخضوع ، فالمستعمِر يرى في الاستمرار على الأشكال الثقافية التي يستنكرها مظهراً قومياً عليه أن يحاربه . غير أن هذا المظهر إنما يردّ الى قوانين العطالة والجمود ، فليس ثمة هجوم ولا إعادة تحديد للعلاقات ، بل انكماش على نواة ما تنفك تزداد ضيقاً وعطالة وفراغاً .

وما هو إلا قرن أو قرنان من الزمان حتى نرى الثقافة الوطنية قد هزلت ويبست حقاً ، فإذا هي مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس ، والنظم المجزأة المفتتة ، فليس فيها حركة ولا إبداع حتى ولا فوران . إن

إفقار الشعب ، واضطهاد الأمة ، ومنع الثقافة ، شيء واحد . إننا لا نرى ، بعد قرن من السيطرة الاستعمارية ، إلا ثقافة متيبسة متجمدة متحجرة . إن بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة علاقات ارتباط متبادل . فكيف تتطور هذه العلاقات في أثناء كفاح التحرير ؟ إن ما يعمد إليه المستعمِر من إنكار للثقافة القومية ، واحتقار لكافة المظاهر القومية الحركية او الانفعالية ، وتحريم لكل تخصص في التنظيم ، يساهم في توليد سلوك هجومي لدى المستعمَر . ولكن هذا السلوك هو من نوع المنعكسات الغريزية التي تتصف باللاتمييز وبالفوضوية ، وليس فيه جدوى . ويستمر الاستغلال الاستعماري ، ويستمر بؤس الشعب وجوعه ، فيضطر المستعمَر شيئاً بعد شيء الى خوض كفاح صريح منظم . وتشعر أكثرية الشعب ، تدريجياً أنه لا بد من معركة حاسمة . وتكثر التوترات التي لم يكن لها وجود قبل ذلك . وتأتي الأحداث الدولية وانهيارات الأمبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة في قلب النظام الاستعماري ، يأتي ذلك كله فيغذي روح القتال ويرقى بالوعي الشعبي ويقوّيه .

هذه التوترات الجديدة التي تنشأ على جميع مستويات الواقع الاستعماري تترجع أصداؤها على المستوى الثقافي . ففي الأدب مثلاً نرى زيادة نسبية في الإنتاج . ونرى الإنتاج الأدبي القومي يتميز عن الإنتاج الأدبي الغربي . وتتجلى فيه إرادة خاصة ، بعد أن كان محاكاةً لذلك الإنتاج الغربي . وينحصر هذا الانتاج أول الأمر في النطاق الشعري والتراجيدي ، ثم يتناول الرواية والقصة والبحث . فكأن هناك نوعاً من التنظيم الداخلي ، كأن هناك قانوناً من قوانين التعبير يُلزم بالإقلال من التجليات الشعرية كلما توضحت أهداف كفاح التحرير وطرائقه . وتندر شيئاً بعد شيء تلك الصرخات المرة اليائسة ، وتلك الاندفاعات العنيفة المدوّية الجلجلة التي لا يخاف منها المحتل في حقيقة الأمر ، بل تطمئنه . والواقع أن الاستعماريين قد شجعوا هذه المحاولات في الفترة السابقة وسهّلوا وجودها . فحرارة التنديد والتشهير ، ووصف البؤس ، والتعبير عن الانفعال الجامح ، ذلك كله إنما يشبهه المستعمِر بعملية تفريغ ، فإذا هو

شجّع عليه كان بمعنى من المعـاني يتحاشى تحول الأمر الى كارثة ، ويساعد على شيء من انفراج الجو .

غير أن هذا الظرف لا يمكن إلا أن يكون مرحلة مؤقتة . والحق أن تقدم الوعي القومي لدى الشعب يبـدل ويوضح التعبـير الأدبي الذي يتولاه المثقف المستعمَر . إن استمرار اتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ . فاذا الشكوى تصبح نداءً ، ثم إذا النداء يصبح في مرحلة ثانية شعاراً. إن تبلور الوعي القومي يقلب الأنواع الأدبية والموضوعات الأدبية رأساً على عقب ، فاذا المثقف المستعمَر الذي كان أول الأمر ينتج أدبه للقارىء المستعمِر وحده، سواء للحظوة بإعجابه أو للتنديد به من خلال الإطار العرقي أو الذاتي ، إذا هو بعـد ذلك يتعود أن يتجه بإنتاجه الى شعبه شيئاً بعد شيء .

وابتداءً من هذه اللحظة إنما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومي . ذلك أننا نرى ، على مستوى الخلق الأدبي ، استئنافاً وتوضيحـاً للموضوعات القومية الحقيقية . نحن ها هنا أمام أدب كفاح بالمعنى الأصلي للكلمـة ، لأنه أدب يحدو شعبـاً بأسره الى النضال في سبيل الوجود القومي . هو أدب كفاح لأنه ينـير الوعي القومي ، ويسبغ عليه شكلاً وحواشي ويفتح له آفاقاً جديدة غــير محدودة . هو أدب كفاح ، لأنه يحمل تبعة ، لأنه إرادة تحقيق في الزمان .

وعلى مستوى آخر نرى أدب الرواية ، والحكايات ، والملاحم ، والأغـاني الشعبية ، التي كانت قبل ذلك تستمد من المخزون المجمّد ، نري ذلك كله يأخذ بالتجدد . إن الرواة الذين كانوا يقصون على جمهورهم حكايات ميتـة ، يبثون الآن في هذه الحكايات حياة، ويبدلونها تبديلاً أساسياً. إنهم يحاولون أن يجعلوا أقاصيص القتال التي يروونها حكايات راهنة ،ويحاولون أن يسبغوا عليها أشكالاً معاصرة ، ويستمدون أسماء الأبطال وأنواع الأسلحة من الزمان الحاضر. كانوا قبل ذلك يبدأون حكاياتهم بقولهم : « كان في القديم ... » أمــا الآن فهم يبدأونها بقولهم : « ما سأقصه عليكم قد حدث في مكانٍ ما ، ولكن يمكن أن يحدث هنا ، اليوم أو غداً . » . ومثـال الجزائر بليغ الدلالة بهذا الصدد . إن

الرواة قـد أخذوا منذ ١٩٥٢ - ١٩٥٣ يقلبون طرائقهم في قص حكاياتهم ، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأساً على عقب ،بعد أن كانت أقاصيصهم قبـل ذلك جامدة مملّة . فاذا الجمهور الذي يستمع اليهم يكثر عدده وتتراصّ صفوفه ، بعد أن كان قليلاً مبعثراً . وعادت الملحمة الى الظهور ، وأخذت تصور أبطالاً نموذجيين . هـذا انبثاق ثقافي . ولم يغفل الاستعمار عن ذلك ، فاذا هو يعمد منذ عـــام ١٩٥٥ الى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا الى قصص البطولة .

إن اتصال الشعب بالحركة الجديدة يجعل للأنفاس المترجعة في الصدور إيقاعاً جديداً ، ويوقظ العضلات النائمة من سباتها ، ويطلق الخيال من عقاله . فكلما قص الراوي على جمهوره مرحلة جديدة من مراحل حكايته ، كان يناديهم ويهيب بهم ويحدوهم . انه يكشف للجمهور عن نموذج انسان جديد . فما يبقى الحاضر مغلقاً على نفسه بل ينشق عن آفاق جديدة . إن الراوية يردّ لخياله الآن حريته ، ويجدد ، ويخلق . حتى ليتفق له أن يعمد إلى وجوه أناس من قطاع الطرق أو من المتشردين الخارجين على قوانين المجتمع ، فاذا هو يقدّم منها وجوهاً جديدة يجعلها وجوهَ أبطال ، مع أن ذلك ليس بالأمر اليسير . ليتكم تتبعون في بـلدٍ مستعمَر انبجاس الخيال والخلق في الأغاني وفي الحكايات البطولية الشعبية ، خطوةً خطوةً . إذن لرأيتم أن الراوية إنما يستجيب بخطوات متعاقبة لإرادة الشعب ، ويمضي باحثاً عن نماذج جديدة ، عن نماذج قومية قد نظن أنه يسعى إليها وحده ، ولكن في حقيقة الأمر يستحثه اليها جمهوره الذي يصغي اليه . وتختفي الكوميديا أو تفقد جاذبيتها . أما المأساة فما تظل قابعةً في ضمير المثقف أزمةً تعذبه ، بل تفقد طابع اليأس والتمرد وتصبح من نصيب الشعب كـله ، جزءاً من عمل يتهيأ أو من عمل قد انطلق .

وعلى مستوى الحرفة نجد الأشكال المترسبة المتجمدة تتحرك شيئاً بعد شيء. فأعمال الخشب مثلاً ، التي كانت تنسخ وجوهاً معينة أو أوضاعاً معينة بآلاف النسخ ، تتنوع الآن وتتميز . القناع الذي لا يعبّر ، أو كان يعبرّ عن التعب

والإرهاق، ينتعش الآن، والذراعان تهمّان أن تتركا الجسم وأن تندفعا في فعل. وظهر الجمع بين شخصيتين أو ثلاث أو خمس. أصبحت المدارس التقليدية مدعوة إلى الابداع بظهور موجات كبيرة من الهواة أو المنشقين. ان هذه القوة الجديدة في هذا القطاع من الحياة الثقافية تتحقق في كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد. ولكن مساهمتها في الكفاح الوطني مساهمة كبيرة. فحين يحرك الفنان الوجوه والاجسام وحين يجعل موضوع ابداعه جماعة متراصة من الناس على قاعدة واحدة، فانه يدعو إلى الحركة المنظّمة.

وإذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعي القومي في مجال القيشاني والفخار، كان في وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها. إن المبدعات في هذا المجال تهجر أشكالها القديمة: الجرار والخوابي والأطباق تتبدل، تتبدل في أول الأمر تبدلاً طفيفاً تدريجياً، ثم تتبدل بعد ذلك تبدلاً قوياً جارفاً. والتلوينات التي كانت في أول الأمر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية في الانسجام تتكاثر وتترجع فيها الاندفاعية الثورية. إن بعض ألوان الأحمر وبعض ألوان الأزرق، التي كانت محرّمة منذ الأزل، كما يبدو، في مجال ثقافي معيّن، تفرض الآن نفسها دون أن تثير الاستهجان. وكذلك نرى «اللاتعبيرية» في الوجه الانساني، وهي صفة تتميز بها في رأي علماء الاجتماع المناطقُ الموصدة تماماً، تخف وطأتها. وسرعان ما يلاحظ الاختصاصي من أبناء البلاد المستعمِرة هذه الطفرات، فتراه على وجه الاجمال يستنكرها باسم أسلوب فني له قواعده، باسم حياة ثقافية نشأت في جو الوضع الاستعماري. إن الاختصاصيين الاستعماريين ينكرون هذا الشكل الجديد، ويروحون يستنجدون بتقاليد المجتمع المستعمَر في التشهير به. إن الاستعماريين هم الذين يصبحون الآن مدافعين عن الأسلوب المحلي. انكم تتذكرون كل التذكر (ولهذا المثال أهمية خاصة لأن الأمر فيه ليس أمر واقع قومي تماماً) كيف كان موقف الاختصاصيين الاستعماريين في الجاز حين رأوا عقب الحرب العالمية الثانية تبلور واستقرار أساليب جديدة مثل الـ «بيبوب». ذلك أن الجاز ليس إلا حنين المنكسر اليائس الذي يحسّه زنجي هرم أحاطت به خمس

كؤوس الويسكي مع اللعنة والاحتقار والحقد العرقي الذي يحمله له البيض. فاذا أدرك نفسه ادراكاً جديداً، وإذا أدرك العالم على نحو مختلف، فانبعث الأمل في نفسه وفرض على العالم العرقي أن يتراجع، فلا بد أن يميل بوقه الى الانطلاق، ولا بد أن يجنح صوته الى التحرر من بحّته. إن الأساليب الجديدة في الجاز لم تنشأ من التنافس الاقتصادي فحسب، بل هي ولا شك نتيجة من نتائج انهزام العالم الجنوبي في الولايات المتحدة انهزاماً لا مناص منه وإن يكن بطيئاً. وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عاماً عن نوع «الجاز الصراخ» الذي يتقيؤه زنجي مسكين ملعون، لحرصهم على صورة مجمّدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية.

وفي وسعنا أيضاً، على مستوى الرقص والغناء الميلودي والطقوس والاحتفالات التقليدية، أن نجد هذه الانطلاقة نفسها وأن نكشف عن هذه الطفرات نفسها، وعن هذا التحرق نفسه الى الانطلاق. ومعنى ذلك كله أن القارىء الفطن المنتبه يستطيع، قبل مرحلة كفاح التحرير، السياسية أو المسلّحة، أن يحس وان يرى ظهور القوة الجديدة والمعركة المقبلة. فثمة أشكال من التعبير لا عهد بها من قبل، وثمة موضوعات جديدة لم يسبق أن ُطرقت، موضوعات مزوّدة لا بقدرة على الإهانة فحسب، بل أيضاً على تجميع الصفوف وتحريضها «في سبيل هدف». هذا كله يساهم في إيقاظ حساسية المستعمَر، وفي جعل مواقف التأمل ومشاعر الإخفاق شيئاً مضى زمانه وأصبح لا ُيقبل. إن المستعمَر حين يجدد أغراض وحركة الحرفة والرقص والموسيقى والأدب وحكايات البطولة إنما يعيد بناء إدراكه للعالم، فيفقد العالم في نظره طابع اللعنة، وتتجمع عندئذ الشروط اللازمة لخوض المعركة التي لا بد من خوضها.

لقد شهدنا تحرك التجليات الثقافية، ورأينا أن هذا التحرك، أن هذه الأشكال الجديدة مرتبطة بنضج الوعي القومي. وهذا التحرك يريد أن يتحقق في واقع موضوعي، يريد أن يصير الى مؤسسة قائمة، لذلك كان لا بد من

وجود قومي مهما كلف الأمر .

إن من الأخطاء الفادحة ، التي يصعب الدفاع عنها من جهة أخرى ، أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية ، وأن نحاول ردّ الاعتبار والقيمة الى الثقافة الوطنية ، ونحن ما نزال في ظل السيطرة الاستعمارية . وإني لأنتهي من هذا الى تقدير نتيجة قد تبدو غريبة مفارقة هي أن أقوى دفاع وأجدى دفاع عن الثقافة القومية إنما يكون بالأخذ بالعقيدة القومية ولو في أبسط أشكالها وفي أكثر هذه الأشكال بدائية وفجاجة. إن الثقافة هي أولاً وقبل كل شيء تعبير عن أمة ، عن مفضلات هذه الأمة وعن محرماتها وعن نماذجها . وعلى كافة مستويات المجتمع بأسره إنما تتكون محرمات أخرى وقيم أخرى ونماذج أخرى. فالثقافة القومية هي مجموع هذه التقديرات كلها ، هي محصّلة التوترات الداخلية والخارجية في المجتمع برمته وفي مختلف طبقات هذا المجتمع . فما دام الوضع الاستعماري قائماً فالثقافة تنضب وتحتضر لأنها تكون محرومة من ركيزتيها ، الأمة والدولة . وعلى ذلك فان التحرير القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة .

وإذا كانت الأمة هي الشرط اللازم لقيام الثقافة وازدهارها وتجددها المتصل وعمقها ، فهي أيضاً حاجة وضرورة . إن الكفاح الذي تخوضه الأمة هو الذي يطلق الثقافة من عقالها ويفتح لها أبواب الإبداع ، كما ان الأمة في مرحلة ثانية ، هي التي توفر للثقافة ظروف نمائها وإطار تعبيرها . إن الأمة هي التي تهيىء للثقافة شتى العناصر الضرورية التي تستطيع وحدها أن تهب للثقافة أمانة وصدقاً ونشاطاً وإبداعاً . وكون الثقافة قومية هو الذي يجعلها قادرة على أن تنفذ إليها الثقافات الأخرى ، وعلى أن تنفذ الى الثقافات الأخرى وتؤثر فيها . فما لا وجود له لا يمكن أن يفعل في الواقع ، ولا أن يؤثر في هذا الواقع. فلا بد أولاً من أن تقوم الأمة ،فإذا قيامها يهب الحياة للثقافة ، بالمعنى البيولوجي لهذه الكلمة . هكذا تابعنا تكسر التحجرات الثقافية شيئاً بعد شيء ، وشهدنا تجدد التعبير وانطلاق الخيال قبل المعركة الحاسمة في سبيل التحرير القومي .

ويبقى بعد ذلك أن هناك مسألة أساسية تُطرح : ما هي العلاقات القائمة بين الكفاح أو الصراع – سواء أكان سياسياً أم مسلحاً – وبين الثقافة ؟ هل تعاني الثقافة توقفاً أثناء الصراع ؟ هل الصراع القومي مظهر ثقافي ؟ هل نقول إن الكفاح التحريري ، وإن يكن خصباً فيما بعد ، هو في ذاته إنكار للثقافة ؟ هل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية ؟

إننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي ممكن . ليس نجاح الكفاح وحده هو الذي يهب للثقافة قيمة وصدقاً وقوة ، بل إن معارك الكفاح نفسها تنمّي ، في أثناء انطلاقها ، مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة ، فالكفاح لا ينيم الثقافة أثناء اندفاعه . وكفاح التحرير لا يردّ الى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة ، ولا يمكن ما دام يهدف الى إعادة تنظيم العلاقات بين البشر إلا أن يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب . إن التحرر بالكفاح لا يزيل الاستعمار فحسب ، بل يزيل المستعمَر أيضاً .

فهذه الإنسانية الجديدة ، الجديدة لذاتها وللآخرين ، لا يمكنها إلا ن تنشىء نظرة إنسانية جديدة ، بل إن هذه النظرة الإنسانية الجديدة قائمة مقدماً في أهداف ومناهج الكفاح. إن المعركة التي تعبيء جميع طبقات الشعب ، التي تعبّر عن صبوات الشعب وعن أشواقه المتحرقة ، التي لا تخشى أن تعتمد على الشعب وحده تقريباً ، إن هذه المعركة ظافرة لا محالة . وقيمة هذا النوع من القتال إنما تقوم على كونه يحقق الحد الأقصى من الشروط اللازمة للنمو الثقافي والإبداع الثقافي . وبعد التحرير الذي يتم في هذه الشروط ، لا يكون ثمة ذلك النوع من الحيرة الثقافية المريرة التي نراها الآن في بعض البلدان المستقلة حديثاً . ذلك أن الأمة ، في صورة دخولها الى العالم ، وفي أشكال وجودها، تؤثر في الثقافة تأثيراً أساسياً. إن أمة تنشأ من خوض الشعب نضالاً منسجماً موّحداً ،إن أمةً تجسد أشواق الشعب الواقعية ، أن أمة تبدل الدولة ، لا يمكن أن توجد إلا في صور من خصوبة ثقافية فذة .

والمستعمَرون الذين تهمهم ثقافة بلادهم ويريدون أن تكون لها أبعاد عالمية ، يجب عليهم إذن أن لا يتكلوا في تحقيق هذه المهمة على مجرد مبدأ الاستقلال الذي لا بد منه ، دون نفاذ إلى وعي الشعب . فشتان بين التحرير القومي من حيث هو هدف وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبي . ويخيل إليّ أن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان أيضاً على القيم التي لازمت معركة التحرير .

وهنا تحين لحظة فضح النفاق الذي نراه لدى بعضهم . يقول بعضهم هنا وهناك إن القومية مرحلة قد تجاوزتها الانسانية ، وإن الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيرة ، وان على المتأخرين الذين ما زالوا يؤمنون بالقومية أن يصححوا أخطاءهم . ونحن نرى على خلاف ذلك ، أن الخطأ الفادح ، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة ، هو أن نحاول القفز فوق المرحلة القومية . واذا كانت الثقافة هي التعبير عن الوعي القومي ، فإنني لا أتردد عن القول ، في الحالة التي نحن بصددها الآن ، إن الوعي القومي هو أنضج شكل من أشكال الثقافة.

ليس وعي الذات انغلاقاً دون التواصل . حتى لقد علمنا التفكير الفلسفي أن وعي الذات هو ضمانة التواصل . إن الوعي القومي ، إن الشعور القومي ، الذي ليس تعصباً قومياً ، هو الأمر الوحيد الذي يهب لنا بعداً عالمياً. ومشكلة الشعور القومي هذه ، مشكلة الثقافة القومية هذه تأخذ في افريقيا أبعاداً خاصة . ان نشوء الشعور القومي في افريقيا يتصل بالشعور الإفريقي اتصال تعاصر . فمسئولية الافريقي تجاه ثقافته القومية هي أيضاً مسئولية تجاه الثقافة الزنجية الإفريقية . وهذه المسؤولية المنضمة ليست ثمرة مبدأ ميتافيزيقي بل هي ثمرة إدراك لقانون معروف يقول بأن كل أمة مستقلة في افريقيا ستظل مطوّقة تتربص بها الأخطار في كل لحظة ، الى أن تحرر افريقيا كلها من الاستعمار .

إذا كان الانسان هو ما يفعله هذا الانسان فإننا نستطيع أن نقول ان الشيء الملحّ المستعجل اليوم ، بالنسبة إلى المثقف الإفريقي ، هو بناء أمته . فإذا جاء هذا البناء صادقاً ، أي إذا عبّر عن ارادة الشعب الواضحة ، اذا كشف عن

تحرق الشعوب الافريقية ، كان لا محالة مصحوباً باكتشاف قيم إنسانية شاملة ، وكان يرتقي بهذه القيم الانسانية الشاملة. ان التحرر القومي لا يبتعد بنا عن الأمم الأخرى ، بل انه هو الذي يجعل الأمة حاضرة على مسرح التاريخ . ففي قلب الوعي القومي انما ينهض الوعي العالمي ويحيا . وليس هذا البزوغ المزدوج ، في آخر الأمر ، إلا بؤرة كل ثقافة .

الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسيّة

ولكن الحرب مستمرة . وعلينا أن نظل سنين طويلة نضمد الجراح الكثيرة ، التي لا تشفى في بعض الأحيان ، الجراح التي أحدثها في شعوبنا الاندفاع الاستعماري .

إن الاستعمار الذي يحارب الآن تحرير البشر ، يدع هنا وهناك بذور تفسخ علينا أن نكتشفها وأن نستأصلها من أراضينا ومن أدمغتنا .

ونحن باحثون هنا مشكلة الاضطرابات العقلية الناشئة عن حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري .

قد يرى بعض الناس أن هذه الملاحظات التي تتصل بالطب العقلي ليست مناسبة ، وأن هذا الكتاب خاصة ليس مكانها . ولكن لا حيلة لنا في الأمر .

إن لم يكن أمراً مرهوناً بنا أن أمراضاً عقلية واضطرابات في السلوك قد زدادت لدى الذين « يفرضون السلم » أو لدى الذين يُفرض عليهم هذا «السلم» . والحقيقة أن الاستعمار في جوهره كان قبل الآن يصدّر لمستشفيات الأمراض العقلية كثيراً من زبائنها . وقد لفتنا نظر علماء الطب العقلي الفرنسيين والعالميين، منذ عام ١٩٥٤ ، في بحوث علمية مختلفة ، إلى صعوبة « شفاء » مريض من المستعمَرين شفاءً سليماً ، أي جعله متجانساً تجانساً تاماً مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري .

إن الاستعمار ، من حيث هو نفي منظّم للآخر ، من حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر ، يحمل الشعب المستعمَر على أن يتساءل دائماً هذا التساؤل : « من أنا في الواقع ؟ » .

والمواقف الدفاعية الناشئة عن هذه المواجهة العنيفة للمستعمَر وعن النظام الاستعماري ، تنتظم في بنيان يكشف عندئذ عن شخصية المستعمَر . ويكفي

من أجل أن نفهم هذه « الحساسية » أن ندرس وأن نقدر عدد وعمق الجراح التي تصيب المستعمَر خلال يوم واحد من أيام حياته في ظل النظام الاستعماري . ويجب أن نتذكر على كل حال أن الشعب المستعمَر ليس شعباً مسيطراً عليه فحسب . لقد ظل الفرنسيون في عهد الاحتلال الالماني بشراً ، وظل الألمان في عهد الاحتلال الفرنسي بشراً . أما في الجزائر فليس هناك سيطرة فحسب ، وإنما هناك عزم على أن لا يتناول الاحتلال في آخر الأمر إلا أرضاً . فالجزائريون ، والنساء المرتديات ملاءاتهن (« الحايك ») ، وكروم البلح ، والجمال ، ليست عند المستعمرين إلا الصورة الاجمالية أو الأرضية الطبيعية التي يبرز عليها الوجود الانساني الفرنسي .

فالطبيعة المعادية ، العصية ، المتمردة ، إنما هي في المستعمرات : الفيافي ، والبعوض ، «والسكان الأصليون» وأمراض الحمى . والاستعمار ينجح حين يفلح أخيراً في إخضاع هذه الطبيعة العصية كلها . إن مدّ الخطوط الحديدية في الفيافي ، وتجفيف المستنقعات ، وإزالة «السكان الأصليين» من الوجود السياسي والاقتصادي ، كل ذلك إنما هو شيء واحد .

وفي مرحلة الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح ، حين يتجاوز مجموع التهيجات الضارة حداً معيناً ، تنهار المواقف الدفاعية للمستعمَرين ، فنجد عدداً كبيراً من هؤلاء المستعمَرين في مستشفيات الأمراض العقلية . ففي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر ، نرى مقداراً مطرداً كبيراً من الأمراض يحدثه الاضطهاد إحداثاً مباشراً .

واليوم أصبحت حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري منذ سبع سنين ، لأنها حرب كلية لدى الشعب ، أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية [1] . ونحن ذاكرون هنا عدداً من الحالات هي

---

١ - في المقدمة التي لم تنشر في الطبعتين الأوليين من كتابنا : « خمس سنين من الثورة الجزائرية » اشرنا الى ان جيلا بكامله من الجزئريين ، جيلا غارقاً في بحر إبادة الأنسان إبادة جماعية بدون ثمن ، مع كل ما يولده هذا من نتائج نفسية عاطفية ، سيكون هو التركة الانسانية=

حالات مرضى جزائريين وفرنسيين عالجناهم ، وهي حالات تبدو لنا ناطقة . ومن نافل القول أن نذكر أننا لا نقدم الآن عملاً علمياً. فنحن نتحاشى كل مناقشة في الأعراض أو التصنيف أو العلاج. وليس المقصود من بعض المصطلحات الطبية إلا أن تكون نقاط استناد . ومع ذلك يجب علينا أن نلحّ على الأمرين التاليين :

إن الطب العقلي العيادي ، بوجه عام ، يصنف مختلف الاضطرابات التي لاحظناها في مرضانا في باب «أمراض الذُّهان الاستجابي » . وعلى هذا الأساس ننظر بعين الاعتبار خاصة الى الحادث الذي أطلق المرض ، وإن كنا نشير هنا وهناك الى دور التربة المؤهبة للمرض (التاريخ النفسي والعاطفي والجسمي للمريض) والى دور البيئة ، ويبدو لنا أن الحادث الذي اطلق المرض في الحالات التي نعرضها هنا هو في الدرجة الأولى ذلك الجو الدامي الذي لا يرحم ،هو تلك الأعمال التي لا تعرف الروح الانسانية والتي أصبحت عامة شاملة ، هو هذا الشعور الدائم الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون قيام الساعة .

إن الحالة رقم ٢ ، من السلسلة «أ» هي حالة ذُهان استجابي نموذجي،ولكن الحالات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من السلسلة «ب » تحتمل تعليلاً أكثر تعدداً ، ولا يمكن ان نتحدث فيها عن حادث بعينه هو الذي اطلق المرض . فها هنا نقول إن الحرب ، هذه الحرب الاستعمارية التي تكتسي في كثير جداً من الأحيان صورة ابادة جماعية للنوع الانساني،هذه الحرب التي تقلب العالم رأساً على عقب وتحطمه، هي الحادث الذي يطلق المرض . ان في وسعنا ان نسمي المرض هنا ذهاناً استجابياً اذا نحن حرصنا على استعمال اصطلاح موجود . ولكن يجب عندئذ ان

= الذي تخلفه فرنسا في الجزائر . ان الفرنسيين الذين يستنكرون التعذيب في الجزائر يتبنون دائماً وجهة نظر فرنسية تماماً . ليس هذا مأخذاً ، وانما هو تقرير لواقع : انهم يريدون ان يحموا ضمير المعذبين الذين يمارسون التعذيب او سيمارسونه ، ويحاولون ان يتحاشوا ما يصيب الشبيبة الفرنسية من فساد اخلاقي . ولانستطيع، منجهتنا ، الا ان نوافق على هذا . ان عدداً من المشاهدات الطبية التي نجمعها في هذا الكتاب ، والحالتين ٤ و ٥ بوجه خاص، مثال على صحة هذا الذي يراود الديمقراطيين الفرنسيين.وغايتنا نحن على كل حال هي ان نبين ان التعذيب يفكك شخصية المعذب (بكسر الذال) تفكيكا عميقا ، وهذا ما لعل القارىء يقدره من تلقاء نفسه .

نؤكد تأكيدا خاصاً على ما تتصف به هذه الحرب في جملتها وفي تفاصيلها من أنها حرب استعمارية . إن المؤلفات التي ظهرت بعد الحربين العالميتين عن الأمراض النفسية بين العسكريين الذين يخوضون غمار الحرب وبين المدنيين الذين يرحلون عن ديارهم ويقاسون القصف بالقنابل ، ليست قليلة . ولكن الطابع الجديد في بعض اللوحات المرضية التي نعرضها هنا يؤكد ، إذا كان ثمة حاجة الى تأكيد ، إن هذه الحرب الاستعمارية تختلف عن غيرها حتى في الأمراض التي تفرزها .

وهناك فكرة أخرى يقررها الباحثون جازمين ، وتحتاج في رأينا الى شيء من التلطيف . هذه الفكرة هي قولهم إن هذه الاضطرابات الاستجابية ليست بالخطيرة خطراً فادحاً . ولئن كان صحيحاً أنهم وصفوا حالات ذات مضاعفات ذهانية ثانوية ، أي حالات تفككت فيها الشخصية تفككاً نهائياً ، فإن تلك الحالات التي وصفوها كانت حالات استثنائية دائماً . ونحن نرى ، على خلاف ذلك ، أن القاعدة هنا هي أن هذه الاصابات المرضية إصابات خطيرة خبيثة . إنها اضطرابات تدوم أشهراً برمتها ، تهاجم الأنا هجوماً قوياً ، وتكاد تترك في جميع الأحوال صدعاً يجعل الشخص مهيئاً للمرض بسرعة ، صدعاً يمكن أن يلاحظ عملياً بالنظر . ولا شك أن مستقبل هؤلاء المرضى غير مكفول . وهذا مثال يوضح ذلك :

في أحد البلاد الافريقية التي فازت باستقلالها منذ عدة سنين ، صادف أن استقبلنا رجلاً من وطننا كان من المناضلين القدماء . لقد جاء هذا الرجل الذي يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاماً يسألنا النصح والمعالجة ، فإنه متى اقترب موعد معين من السنة استبد به أرق مصحوب بقلق وبأفكار ثابتة تهيب به الى تدمير نفسه . وهذا الموعد الحرج من السنة هو الموعد الذي وضع فيه قنبلة في أحد الأماكن العامة عملاً بتعليمات صدرت إليه من شبكته . فقُتل في الحادث عشرةُ أشخاص (١) .

---

١ – ان ظروف ظهور هذه الاضطرابات هامة من اكثر من ناحية واحدة. لقد تعرف هذا =

نجمع هنا خمس حالات هي حالات جزائريين أو أوروبيين ظهرت فيهم، على أثر حوادث معينة تماماً، اضطرابات عقلية من النموذج الاستجابي .

الحالة ١ – عجز جنسي عند جزائري على أثر اغتصاب زوجته :

ب ... رجل في السادسة والعشرين من عمره . أرسلته الينا « الدائرة الصحية لجبهة التحرير الوطني » لأوجاع في الرأس وأرق . كان سائقاً لسيارة تاكسي، وانخرط في النضال منذ السنة الثامنة عشرة من عمره في صفوف الأحـــزاب الوطنية . وأصبح منذ عام ١٩٥٥ عضواً في خلية من خلايا جبهة التحرير الوطني. وقد استعمل سيارته التاكسي عدة مرات في نقل منشورات وفي نقل مسئولين سياسيين . وإزاء تفاقم أعمال القمع قررت جبهة التحرير الوطني ان تنقل الحرب إلى مراكز في المدن، فأصبح ب ... يكلّف بأن ينقل الفدائيين إلى مقربة من اماكن الهجوم، وبأن ينتظرهم في كثير من الأحيان .

وفي ذات يوم، في قلب مدينة أوروبية، بعد القيـــام بعمل كبير بعض

= الشخص ، بعد استقلال بلاده بعدة أشهر ، الى أناس من البلاد التي كانت تستعمر وطنه من قبـــل ، فوجدهم أناس لطافاً محببين الى قلبه . كان هؤلاء الرجال والنساء يحيون الاستقلال الذي فازت به بلاده ، ويثنون في غير تحفظ على الشجاعة التي أظهرهـــا مواطنوه في نضال التحرير الوطني . فشعر هـذا المناضل عندئذ بدوار (دوخة) . وتساءل في قلق ، ترى ألم يكن بـــين ضحايا القنبلة أناس يشبهون هؤلاء الذين يتحدث اليهم الآن؟ صحيح ان المقهى كان ملجأ لأشخاص عرقيين معروفين ، ولكن لاشيء يمنع أحد المارة من الدخول الى المقهى لاحتساء شيء ما . وقد حاول هذا الشخص ، بعد اليوم الذي شعر فيه باول دوار ، أن يتحاشى التفكير في الحوادث القديمة . فظهرت الاضطرابات الأولى قبل حلول ذلك الموعد الحرج ببضعة أيام ، وأصبحت منذ ذلك الحين تتكرر بغير تخلف .

نقول بتعبير آخر : إن أفعالنا لاتكف ابداً عن ملاحقتنا . ان ترتيبها وتنظيمها وتعليلها يمكن أن يتغير بعد ذلـــك تغيراً عميقاً . وهـــذا من أهم الفخاخ التي يوقعنا فيهـــا « التاريخ » وتحديداته . ولكن هل نستطيـع ان نتحاشى الدوار ؟ من ذا الذي يجرؤ أن يدعي ان الدوار لا يلازم كل حياة ؟

الشيء ، اضطرته محاصرة شديدة غاية الشدة ، الى ان يترك سيـارته التاكسي ، وتبعثرت فرقة الفدائيين . ولجأ ب ... الذي أفلح في النجاة من حصار العدو ، الى بيت صديق له . وبعد بضعة أيام صـدر إليه الأمر من المسئولين ، قبل أن يستطيع العودة الى بيته ، أن يلتحق بأقرب مركز من مراكز المجاهدين .

وظل عدة أشهر لا يتلقي أي نبـأ عن زوجته وعن ابنته الصغيرة التي تبلغ من العمر عشرين شهراً. وعلم ايضاً أن الشرطة ظلت تبحث عنه في المدينة طوال أسابيع كاملة . وبعد سنتين من الإقامة في ذلك المركز من مراكز المجـــاهدين تلقى رسالة من امرأته تطلب إليه فيها ان ينساها . لقد تلطخت بالعار . وعليه ان لا يفكر بعد اليوم في استئناف حياتها المشتركة . فقلق ب ... من ذلك قلقاً فظيعاً ، وسأل قائده أن يسمح له بالذهاب الى منزله خفية ، فرفض القـائد ذلك . واتخذت الإجراءات اللازمة من أجل ان يتصل أحد اعضاء جبهةالتحرير بزوجة الرجل وأبويه .

وبعد اسبوعين وصل الى قائد الفرقة التي يعمل فيها ب ... تقرير مفصـّل .

ما إن ُوجدت سيارته متروكة (وقد عثروا فيها على ذخيرة) حتى ذهب عدد من الجنود الفرنسيين ومن الشرطة الى بيته . فلما لم يجدوه اعتقلوا زوجته واحتفظوا بها أكثر من اسبوع .

وقد سألوها عن الأشخاص الذين يعاشرهم زوجهـا ، وظلوا يضربونها ضرباً وحشياً مبرّحاً طوال يومين . ولكن في اليوم الثالث أخرج أحــــد العسكريين الفرنسيين (لا تستطيع ان تذكر هل هو ضابط أم جنـدي) رفاقه الآخرين ، واغتصبها . وبعد قليل اغتصبها شخص آخر ، بحضور الآخرين في هذه المرة ، وقال لها : « إذا رأيت صعلوكك مرة أخرى ذات يوم ، فلا تنسي أن تذكري له ما ُفعل بك » . ولبثت بعد ذلك أسبوعاً دون أن تستجوب مرة أخرى . ثم أعادوها الى بيتها . فلما قصت على أمها قصتها ، أقنعتها امها بأن تروي لزوجها كل شيء ... ولذلك ما إن استطاعت ان تتصل بزوجها حتى أفضت إليه بالعار الذي لطخها .

واستطاع ب ... أن يتغلب على نفسه بعد انقضاء الصدمة الأولى ، لانخراطه في العمل في كل لحظة . وقد ظل يسمع خلال عدة اشهر حكايات عن نساء جزائريات اغتصبن أو عُذّبن . وأتيح له ان يرى أزواج نساء مغتصبات ، فكان ينزل مصائبه الشخصية وكرامته الجريحة في المنزلة الثانية من الأهمية .

وفي عام ١٩٥٨ كلف بمهمة في الخارج . حتى اذا همّ ان يعود الى وحدته بعد مدة ، ظهرت فيه أعراض فتور عن العمل وأصبح يعاني أرقاً شديداً ، فقلق من ذلك رفاقه ورؤساؤه ، فأجّل سفره . وفي هذه اللحظة إنما رأيناه . الاتصال الأول جيد . وجه متحرك ، ربما كان كثير الحركة . ابتسامات مبالغ فيها . مرح سطحي : « تحسنت ... تحسنت ... أشعر الآن بتحسن. اعطني بعض المقوّيات ، اعطني فيتامينات ، ودعني أعود إلى العمل . » . وكان يظهر وراء ذلك كله قلق أساسي . وأُدخل المستشفى .

انهار التفاؤل الظاهري منذ اليوم الثاني ، وأصبحنا إزاء شخص مهدود القوى ، غارق في التأمل لا يأكل ، ولا يبارح سريره . انه يهرب من المناقشات السياسية ، ويظهر عدم الاكتراث بكل ما يتصل بالكفاح الوطني ، ويتحاشى سماع الأنباء الخاصة بحرب التحرير . كانت مواجهة مشكلاته أمراً شاقاً جداً . ولكننا استطعنا بعد بضعة أيام أن نؤلف قصته :

لقد قام خلال إقامته في الخارج بمغامرة جنسية أخفقت . فظن أن مردّ هذا الإخفاق الى التعب ، وانه أمر طبيعي بعد المشي المرهق الذي قام به . وبعد فترات سوء التغذية التي مرّ بها ، واستأنف المحاولة بعد اسبوعين ، فأخفق مرة ثانية . أسرّ بأمره الى رفيق له، فنصحه هذا الرفيق بتجرع فيتامين ب١٢ ، فتجرع منه اقراصاً ، ثم حاول محاولة جديدة ، فأخفق ايضاً . واكثر من ذلك أنه قبل الفعل ببضع لحظات رغب رغبة لا تقاوم في ان يمزق صورة فوتوغرافية لابنته الصغيرة. ان مثل هذا الارتباط الرمزي كان يمكن ان يبعثنا على تصور وجود اندفاعات لا شعورية تحض على الخيانة الزوجية . غير أن عدداً من الأحاديث التى أجريناها معه ، بالإضافة إلى حلم من احلام المريض (رأى في منامه تفسخ

قطة صغيرة مع انتشار روائح لا تطاق) قد قادتنا إلى اتجاه آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف . لقد قال لنا في ذات يوم (والحديث عن ابنته الصغيرة) : « ان في هذه البنت شيئاً متفسخاً » . ومنذ تلك الفترة اصبح أرقه مؤلماً أشد الإيلام ، ورغم إسعافه بمقادير كبيرة من المهدئات فقد نشأ لديه حالة من فرط التهيج الخائف ، أقلقتنا قلقاً شديداً . وحدثنا عندئذ عن امرأته لأول مرة قائلاً : « لقد ذاقت الفرنسيين » . وفي هذه اللحظة انما تصورنا القصة كلها . لقد برزت لحمة الحوادث. وعلمنا منه انه قبل كل محاولة جنسية كان يفكر في امرأته. وكل ما أفضى به إلينا بدا لنا ذا أهمية اساسية .

« لقد تزوجت هذه الفتاة بينما كنت أحب ابنة عمي . ولكن أهلها زوجوها من شخص آخر . فقبلت عندئذ الفتاة الأولى التي اقترحها عليّ أبواي . كانت لطيفة مهذبة ، لكنني لم أكن أحبها . وكنت أقول لنفسي دائماً ، ما زلت شاباً . فلأصبر قليلاً ، حتى إذا وجدت ما يناسب ، طلقت وتزوجت زواجاً سعيداً . لذلك كنت قليل الارتباط بزوجتي . وجاءت الحوادث فأبعدتني عنها مزيداً من الإبعاد . وفي نهاية الأمر كنت أجيء الى البيت للطعام ، وأنام دون ان أكلمها تقريباً .

« وفي المعسكر ، حين علمت ان فرنسيين اغتصبوها شعرت أول الأمر بحقد على هؤلاء الأنذال . ثم قلت : « بسيطة . انها لم تُقتل. وستستطيع ان تستأنف حياتها ». وبعد بضعة أسابيع أدركت أنهم اغتصبوها لانهم كانوا يبحثون عني . والواقع أنهم اغتصبوها معاقبةً لها على صمتها. لقد كان في وسعها أن تذكر لهم اسم واحدٍ على الأقل من المناضلين ، فيهتدوا الى الشبكة ويحطموها، وربما استطاعوا أن يقتلوني أنا . فالأمر لم يكن إذن مجرد اغتصاب شجع عليه التعطل أو دفعت اليه السادية ، كما أتيح لي أن أرى مثل ذلك في بعض القرى ، وانما هو اغتصاب امرأة عنيدة تحملت كل شيء إلا ان تبيع زوجها . وهذا الزوج هو أنا . لقد أنقذت هذه المرأة حياتي ، وحمت الشبكة كلها . وبسببي أنا تلوث شرفها . ولكنها لم تقل لي : « هذا ما قاسيته في سبيلك » ، وانما قالت : « عليك أن تنساني ، وأن

تجدد حياتك ، فقد تلطخت أنا بالعار » .

ومنذ تلك اللحظة إنما عزمت في قرارة نفسي على ان استرد زوجتي بعد الحرب ، إذ يجب أن اقول لك إنني رأيت فلاحين يكفكفون دموع زوجاتهم اللواتي اغتصبن على مرأى منهم . لقد هزني ذلك كثيراً . ويجب أن اعترف لك من جهة أخرى أنني لم استطع في اول الأمر ان أفهم موقفهم هذا . ولكننا صرنا ، شيئاً بعد شيء ، نتدخل في هذه الأمور ونشرحها للمدنيين . حتى لقد قابلت مدنيين متطوعين من أجـل تزويج فتاة اغتصبها عسكريون فرنسيون وأصبحت حاملاً . وذلك كله أعادني الى التفكير في مشكلة امرأتي .

لقد عزمت على أن استردها ، لكنني لا أعرف بعد كيف يكون سلوكي حين أراها . وحين أنظر الى صورة ابنتي أشعر في كثير من الأحيان أن شرفها ملطخ هي ايضاً ، كأن كل ما يصدر عن امرأتي فاسد نتن . لو أنهم عذبوها ، لو أنهم حطموا جميع اسنانها ، لو أنهم كسروا ذراعها ، لما أثرّ فيّ ذلك . ولكن هذا الأمر ، هل يستطيع المـرء ان ينساه ؟ وهل كانت مضطرة ان تطلعني على ذلك كله ؟ » .

وسألني عندئذٍ هل مرد ضعفه الجنسي الى همومه .

فأجبته : « جائز » .

فجلس على سريره وقال :

– ما عساك تفعل لو حدث لك هذا ؟

– لا أدري .

– هل تسترد امرأتك ؟

– أظن .

– ها .. إذن أنت لست واثقاً كل الثقة من انك تستردها .

وأمسك رأسه بيديه ، ثم ترك الغرفة بعد بضع لحظات .

ومنذ ذلك اليوم أصبح يرضى شيئاً بعد شيء ان يسمع مناقشات سياسية ، بينما أخذت اوجاع الرأس تتراجع كثيراً ، واصبح يقبل ان يأكل .

وبعد أسبوعين التحق بوحدته ، وهو يقول لي : « الى اللقاء بعد الاستقلال . سأسترد زوجتي . وإذا انتكست صحتي فسأجيء لأراك بمدينة الجزائر » .

الحالة ٢ - اندفاعات الى القتل غير متميزة لدى شخص نجا من الموت أثناء إبادة جماعية :

س ... عمره ٣٧ سنة . فلاح . يسكن في قرية من مقاطعة قسنطينة . لم يهتم بالسياسة في يوم من الأيام . أصبحت منطقته منذ بداية الحرب ميدان معارك عنيفة بين القوى الجزائرية والجيش الفرنسي . وبذلك أتيح له أن يرى قتلى وجرحى . ولكنه ظل بعيداً . وكان الفلاحون في قريته يساعدون المقاتلين الجزائريين المارّين، من حين الى حين ، كما يساعدهم سائر الشعب. ولكن في ذات يوم من أوائل عام ١٩٥٨ أقيم كمين في مكان غير بعيد عن القرية ، نشأ عنه سقوط قتلى . فقامت القوى العدوة بحملة عسكرية وحاصرت القرية . وكانت القرية خالية من الجنود . وجُمع سكان القرية جميعاً واستجوبوا ، فلم يجب منهم أحد بشيء . ووصل أحد الضباط الفرنسيين بعد بضع ساعات على طائرة هليوكوبتر ، وقال : « إن هذه القرية سيئة السمعة ، فهدّموها ! » فأخذ الجنود يحرقون البيوت ، ويضربون بأعقاب البنادق النساء اللواتي يحاولن التقاط بعض الملابس أو انقاذ بعض المؤن . وانتهز بعض الفلاحين هذا الاضطراب ، ففروا . وأصدر الضابط أمره بجمع الباقين من الرجال، وقادهم الى قرب مجرى من مجاري السيول، وبدأ هناك قتلُهم . فمات تسعة وعشرون . وجُرح س برصاصتين اجتازت إحداهما فخذه اليمنى واجتازت الثانية ذراعه اليسرى ، وسبب له هذا الجرح الثاني كسراً في عظم العضد .

وقد أغمي على س.. فلما أفاق من إغمائه وجد نفسه وسط جماعة من جيش التحرير الوطني. وعالجته مصلحة الصحة، ثم أُجلي حين أصبح في الامكان نقله . ففي أثناء الطريق كان سلوكه يزداد شذوذاً شيئاً بعد شيء ، حتى أصبح يقلق حرسه . كان يطالب ببندقية ، في حين انه مدني وعاجز ، وكان يرفض أن يسير أمام أي شخص كان ، إنه لا يريد ان يسير أحد وراءه . وفي ذات ليلة

استولى على سلاح أحد المقاتلين ، وأخذ يطلق الرصاص في خراقة ، على الجنود النائمين ، فلم يلبث ان جُرِّد من سلاحه بقسوة . وكُبِّلت يداه منذ تلك اللحظة . وثم ظلت مكبلة ، وعلى هذه الحال إنما وصل الى المركز .

بدأ بأن قال لنا إنه لم يمت ، وإنه دُبر « مقلباً » للآخرين . واستطعنا شيئاً فشيئاً ان نتصور قصة إخفاق قتله . إن س ... لا يعاني حالة خوف ، وإنما هو مفرط في التهيج ، مع فترات من اضطراب شديد مصحوب بعويل . إنه لا يكسر كثيراً ، ولكنه يزعج جميع الناس بثرثرته التي لا تنقطع . وكانت المصلحة في حالة يقظة دائمة بسبب عزمه الأكيد على ان « يقتل جميع الناس ». وفي وجوده في المستشفى هاجم نحواً من ثمانية مرضى بأسلحة عثر عليها مصادفة . وهو لا يستثني المرضين والأطباء . حتى لقد تساءلنا أليس من الجائز أن نكون إزاء شكل من تلك الأشكال المقنعة من مرض الصرع الذي يتميز بعدوانية شاملة متوترة في كل لحظة تقريباً .

وشرعنا في معالجته بالنوم . وابتداء من اليوم الثالث استطعنا بمحادثات يومية أن نزداد فهماً لحالته المرضية . اختفت الفوضى العقلية شيئاً بعد شيء . إليكم هذه الفقرات من تصريحات المريض :

« إن الله معي ... ولكنه ليس اذن مع اولئك الذين ماتوا ... لقد خصني الله بعنايته ... على المرء في هذه الحياة أن يَقتل حتى لا يُقتل ... كنت أجهد لأخفي عنهم كل شيء .. إن بيننا فرنسيين . ولكنهم فرنسيون متخفون يتظاهرون بأنهم عرب . يجب قتلهم جميعاً . أعطني مدفعاً رشاشاً . جميع هؤلاء الذين يُظنون جزائريين إنما هم فرنسيون . وهم لا يدعونني وشأني . كلما أردت أن أنام دخلوا الى غرفتي . لكنني الآن اعرفهم . جميع الناس يريدون ان يقتلوني . ولكنني سأدافع عن نفسي . لسوف أقتلهم جميعاً بغير استثناء . لسوف أذبحهم بعضاً وراء بعض . وسوف أذبحك انت ايضاً . إنك تريد أن تقتلني . ولكن يجب ان تتبع غير هذه الطريقة . لن يكلفني شيئاً ان أصرعك . الصغار ، والكبار ، والنساء والأطفال ، والطيور ، والحمير ، هؤلاء جميعاً سيلقون نفس

المصير . وبعدئذ استطيع أن انام هادئاً مطمئناً .. » .

قال س ... ذلك كله بلغة مقطّعة ، وظل وضعه أثناء ذلك يعبر عن العداوة والغطرسة والاحتقار .

وزال الاهتياج بعد بضعة أسابيع ، غير ان ما لاحظناه فيه من تكتم وميل الى العزلة جعلنا نخشى تطوراً أخطر . ومع ذلك طلب بعد شهر ان يخرج ليتعلم مهنة تناسب عاهته ، فعُهد به عندئذ الى الدائرة الاجتماعية من جبهه التحرير الوطني . ورأيناه بعد ستة أشهر ، فكانت حالته حسنة .

الحالة ٣ : ذهان خانف خطير من نموذج تفكيك الشخصية بعد قتل امرأة في حالة خروج عن الطور .

ج ... طالب سابقاً . عسكري في جيش التحرير الوطني . العمر ١٩ عاماً. حين وصل الى « المركز » كان مريضاً منذ بضعة أشهر . هيئة متميزة : سوداوية قوية ، شفتان جافتان ، يدان مبتلتان دائماً . تنهدات لا تنقطع ، يرتفع لهـــا صدره . محاولتا انتحار منذ أول الاضطرابات . أثنـــاء الحديث ، يبدو مصغياً الى هلوسات . وفي بعض الأحيان يحدق الى نقطة من المكان بضع لحظات ، بينما ينتعش وجهه ، فيتصور من يراه أنه يشهد منظراً. أفكار غائمة . بضع ظاهرات تعرف في الطب العقلي باسم السد : يبدأ حركة أو جملة ثم يقطعها على حين فجأة لغير سبب ظاهر . غير ان هناك عنصراً لفت نظرنا خاصة : إن المريض يحدثنا عن دمه الذي يسفح ، عن شرايينه التي تفرغ ، عن قلبه الذي فيه رصاصات . إنه يتوسل إلينـــا ان نوقف النزيف ، وأن لا نسمح بأن يُلاحق حتى المستشفى لإمتصاص دمه . وكان من حين الى حـــين يعجز عن الاستمرار في الكلام ، فيطلب قلماً ، ويكتب : « لم يبق لي صوت . حياتي كلهـــا تذهب » وجعلنا هذا التفكك في الشخصية نعتقد ان مرضه سيتطور تطوراً أخطر .

وأشار المريض عدة مرات أثناء أحاديثنا معه الى امرأة توافيه عند هبوط الليل وتندبه . وإذ انني علمت قبل ذلك ان أمه ميتة ، وانه كان يحبها كثيراً ، وأنه ما من شيء أمكن ان يعزيه عن فقدها (لقد اختنق صوته اختناقاً شديداً

في تلك اللحظة ، وترقرقت في عينيه دموع) ، فقد وجهت بحثي نحو ضرورة الأم . فلما سألته أن يصف لي تلك المرأة التي تلاحقه ، وتعذبه ، صرّح لي بأن هذه المرأة ليست مجهولة له ، وبأنه يعرفها حق المعرفة ، لأنه هو الذي قتلها . فأصبح علينا أن نعرف هل نحن إزاء عقدة الذنب اللاشعورية التي تنشأ بعد موت الأم ، كما وصف ذلك فرويد في كتابه « الحداد والكآبة » . فطلبنا إلى المريض أن يحدثنا عن هذه المرأة حديثاً أطول ، ما دام يعرفها حق المعرفة ، وما دام هو الذي قتلها ايضاً . وعلى هذا النحو عرفنا القصة التالية :

« من المدينة التي كنت فيها طالباً التحقت بربض المجاهدين . وبعد بضعة أشهر جاءتني أخبار عن أسرتي . فعلمت ان أمي قد قتلها جندي فرنسي منذ قليل ، وأن أختيّ اقتيدتا الى بيوت العسكريين . وأنا أجهل حتى الآن ما صارتا إليه . وقد هزّني موت أمي هزاً قوياً . إن أبي مات منذ بضع سنين ، واصبحت الرجل الوحيد في الأسرة ، وكان مطمعي الوحيد دائماً هوان أصل الى ما يحسّن حياة أمي وأختيّ . وفي ذات يوم ذهبنا الى مزارع المستوطنين . كان صاحبها – وهو استعماري فعّال – قد قتل اثنين من المدنيين الجزائريين . وصلنا الى المزرعة ليلاً . ولكننا لم نجد الرجل . ولم يكن في البيت إلا زوجته . فلما رأتنا أخذت تتضرع إلينا ان لا نقتلها . قالت : « أعرف انكم جئتم من أجل زوجي ، ولكنه ليس هنا . كم مرة قلت له ان لا يتدخل في السياسة . وتقرر ان ننتظر زوجها . ولكنني كنت أنظر الى المرأة فأتذكر أمي . كانت جالسة على مقعد وكأنها في غيبوبة . وتساءلت : لماذا لا نقتلها. وأدركت هي في لحظة من اللحظات أنني أنظر إليها ، فارتمت عليّ وهي تصرخ : « لا تقتلني .. أرجوك .. عندي أطفال .. » فما هي إلا لحظة حتى كانت ميتة . قتلتها بسكيني . جرّدني الرئيس من سلاحي وأمرني بالانصراف . واستجوبني قائد القطاع بعد بضعة أيام . واعتقدت أنني سأعدم ، ولكنني لم أعبأ [1] . وبعد

١ – بعد التقرير الطبي الشرعي الذي اوضح ان الفعل الذي ارتكبه هذا الشخص ذو طابع مرضى ، اوقفت الملاحقا القضائية التي طلبتها قيادة جيش التحرير الوطني .

ذلك أصبحت اتقيأ بعد الطعام ، وساء نومي . ثم أصبحت هذه المرأة توافيني في كل مساء تطلب دمي . ودم أمي اين هو ؟

متى هبط الليل ، ورقد المريض في فراشه ، « امتلات غرفته بنســـاء » لا يتغيرن . إنهن جميعاً نسخ واحـــدة لامرأة واحدة . في بطونهن جميعاً طعنة فاغرة . والدم ينزف منهن جميعاً ، وقد اصفرت وجوهن، ونحلن نحولاً رهيباً. وكانت هذه النساء تلاحق المريض وتطالبه أن يرد اليها دمها المسفوح . فـــإذا بالمريض يسمع في هذه اللحظة خرير مـــاء يجري ، ويتسع الخرير حتى يصبح كهدير شلال، ثم إذا به يرى أرض الغرفة يمتلىء بدمٍ هو دمه، بينما النساء تتورد وجوهها شيئاً فشيئاً وتأخذ جروحهـا بالاندمال . فيستيقظ المريض وقـد بلله العرق واستبد به خوف رهيب ، ويظل مضطرباً حتى طلوع الفجر .

عولج المريض الشاب بضعة أسابيع ، فزالت هذه الكوابيس الليلية ولكن ظل في شخصيته صدع كبير . فإنه ما إن يتذكر أمه حتى تتراءى له هذة المرأة المبقورة المرعبة الى جانبها . وقدرنا أن الزمن وحده يمكن أن يحمـــل بعض التحسن الى شخصية هذا المريض الشاب المفككة .

الحالة ٤ – شرطي اوروبي مصاب بهبوط نفسي يلتقي في بيئة المستشفي باحد ضحاياه ، وهو مواطن جزائري مصاب بخبل :

آ ... عمره ٢٨ سنة . متزوج ، وليس له أولاد . علمنا انه يعـــالج نفسه وزوجته منذ بضع سنين من أجل ان ينجبا أولاداً ، ولكن دون طائل، للأسف. وقد أرسله إلينا رؤساؤه لاضطرابات في سلوكه .

الاحتكاك المباشر جيّد . وقد حدثنا المريض عن صعوباته من تلقاء نفسه . إنه على تفاهم تام مع زوجته ، ومع أهلها . علاقاته برفاقه في العمل علاقات طيبة. وهو يحظى عدا ذلك بتقدير رؤسائه. والأمر الذي يزعجه هو أنه يسمع في الليل صرخات تمنعه من النوم . وقد ذكر لنا فعلا ، أنه منذ عدة اسابيع اخذ يغلق النوافذ قبل النوم (نحن في الصيف) ، فيزعج بذلك زوجتـــه التي تختنق من شدة الحر اختناقاً . واكثر من ذلك انه يضع في اذنيه قطناً حتى يخفف حـدة

الصرخات التي يسمعها . بل إنه في بعض الأحيان يفتح جهاز الراديو ليلاً ، أو يصغي إلى موسيقى ، حتى لا يسمع تلك الصرخات التي تخترق سمعه في الليل .

ثم أخذ آ ... يعرض لنا قصته في كثير من الإفاضة :

لقد ألحق منذ بضعة أشهر بفرقة لملاحقة جبهة التحرير الوطني . فكلف في أول الأمر بمراقبة بعض المؤسسات أو المقاهي ، ولكنه أصبح بعد بضعة أسابيع يعمل في مفوضية الشرطة باستمرار تقريباً . وعندئذ انما أتيح له أن يمارس أعمال الاستجواب ، وهي أعمال لا تخلو من «إزعاجات» ، لأنهم « لا يريدون أن يعترفوا بشيء » .

وشرح آ .. يقول : « ان المرء ليتمنى أن يقول لهم : لو كان فيهم شيء من رحمة بنا لتكلموا ، دون أن نضطر الى قضاء ساعات في انتزاع المعلومات منهم كلمة كلمة . ولكن أنى لك أن تشرح لهم ذلك ! انهم يجيبون على جميع أسئلتك بقولهم : لا أعرف . إذا سألتهم عن أسمائهم قالوا : لا أعرف ، وإذا سألتهم اين يسكنون قالوا : لا اعرف . وطبعاً ... لا بد لنا عندئذ من العمل ... ولكنهم يصرخون كثيراً . وكان هذا يضحكني في أول الأمر . غير انه أخذ بعد ذلك يهزني . وأصبحت اليوم أستطيع من مجرد سماع صراخ أحدهم ان اعرف اين هو من الاستجواب ، وأي مرحلة من مراحله يقطع . فالفتى الذي لُطم لطمتين وضرب بالمطرقة وراء أذنه ، له طريقة خاصة في الكلام والصراخ وفي قوله إنه بريء . حتى إذا ظل ساعتين معلقاً من قبضته أصبح صوته صوتاً آخر . وبعد المغطس يكون له صوت ثالث ، وهكذا دواليك . ولكنْ بعد الكهرباء خاصة انما يصبح الامر لا يطاق . يخيَّل الى المرء في كل لحظة أن الرجل مائت لا محالة . هناك طبعاً أشخاص لا يصرخون : هؤلاء هم القساة . ولكنهم يتخيلون انهم سيُقتلون فوراً . ونحن لا يهمنا أن نقتلهم ، وانما يهمنا ان نحصل منهم على معلومات . لذلك فان أول ما نفعله بهؤلاء هو أن لا نجبرهم على الصراخ ، وذلك ما يصلون اليه عاجلاً او آجلاً . هذا وحده نصر . ثم نستمر . لاحظ اننا نتمنى لو نتفادى ذلك كله . ولكنهم

لا يسهّلون مهمتنا . وقد اصبحت الآن اسمع هذا الصراخ حتى في بيتي . وخاصة صراخ عدد منهم ماتوا في المفوضيـــة . لقد اشمأززت من هذاالعمل يادكتور . فإذا شفيتني طلبت نقلي الى فرنسا ، فإن رفضوا نقلي استقلت » .

وإزاء هـذا أمرت للمريض بإجازة مرضية . واذ رفض دخول المستشفى ، أخذت أعالجه في بيتي . وفي ذات يوم ، قبل حلول موعد جلسة معالجته بقليل، استُدعيت الى الدائرة استاعاء مستعجلاً . فلمـا وصل آ ... الى بيتي ، طلبت اليه زوجتي أن ينتظرني ، ولكنه آثر ان يمضي يجول جولة في المستشفى فيلقاني هنالك . وبعد بضع دقائق ، بينما كنت عائداً الى البيت وجدتـه في الطريق ، مستنداً الى شجرة ، مرهقاً إرهاقاً واضحاً ، مرتجفاً مبللاً بالعرق ، يعـــاني نوبة قلق قوي . فأركبته سيارتي ونقلته الى بيتي . فلمـــا استقر على الديوان روى لي انه التقي في المستشفى بواحد من مرضاي سبق أن استجوب فيمراكز، الشرطة (هو مواطن جزائري) وهو يعالج الآن من « اضطرابات سلوكية من نوع الخبل » . فعلمت عندئذ أن هذا الشرطي قد اشترك فعلا في أنواع التعذيب التي أوقعوهـا في ذلك المريض . ووصفت للمريض آ ... بعض المسكنات التي من شأنها ان تخفف قلقه . وعدت بعد انصرافه الى الجنـاح الذي يستشفي فيه المواطن · ان الموظفين في المستشفى لم يلاحظوا شيئاً . ولكن المريض كان قـد اختفى . واكتشفوه أخيراً في المرحاض يحـاول الانتحار (لقد عرف المواطن الشرطي ايضاً ، واعتقد انه جاء يقبض عليه ليقوده مرة أخـرى الى مراكز الشرطة) .

ووقد جـاءني آ ... بعد ذلك عدة مرات ، حتى اذا تحسنت صحته تحسناً واضحاً ، استطاع أن يحصل على أمر بترحيله الى بلاده لأسباب صحية .أمـــا المواطن الجزائري فقد جهد الموظفون في المستشفى أن يقنعوه بأنه واهم ، وبأن رجال الشرطة لا يمكن أن يأتوا إلى المستشفى ، وبأنه متعب ، وبأنه جيء به إلى هنا للمعالجة ، الخ .

الحالة ٥ : مفتش اوروبي يعذب امرأته واولاده :

ر ... العمر ثلاثون عاماً . جاء يستشيرنا من تلقاء نفسه . إنـــه مفتش في الشرطة، وهو يلاحظ منذ بضعة أسابيع أن حالته ليست طبيعية. متزوج . له ثلاثة أولاد . يدخن كثيراً : مائة سيجارة في اليوم . فقد شهوة الطعام، وأصبح نومه مليئاً بأحلام مزعجة (كوابيس) . وليس لهـــذه الكوابيس خصائص معينة . الذي يضايقه أكثر من أي شيء آخر هو ما يسميه « نوبات الجنون » . من ذلك أولاً أنه لا يحب أن يُعارض . قال : « فسّر لي هذا الأمر يا دكتور . إنني متى صادفت معارضةً ما أحسست برغبة في الضرب . حتى في خارج عملي أتمنى ان أعذب من يعترض طريقي . أي شيء تافه يثير في نفسي هذه الرغبة . خذ هذا المثال : ذهبت مرة الى بائع الجرائد لأخذ جرائدي . كان هنالك ناس كثير . لا بد إذن من الانتظار. مددت ذراعي لأخذ جرائدي (بائع الجرائد صديق لي) فاذا بأحد الواقفين في طابور الانتظار يقول لي بشيء من التحدي : « انتظر دورك » . فشعرت برغبة في ان ألطمة ، وقلت بيني وبين نفسي : « لو أوقفتك بضع ساعات يا عزيزي ، لأفلت من المشاغبة بعد ذلك ». وهو لا يحب الضجة . وفي البيت يتمنى لو يضرب جميع من في البيت ، طوال الوقت. بل هو يضرب أولاده فعلاً ، حتى ابنه الصغير الذي لا يزيد عمره على عشرين شهراً ، يضربهم بوحشية نادرة .

غير أن الأمر الذي أخافه « هو أن امرأته انتقدته في ذات مساء ، لأنه ضرب أولاده (حتى لقد قالت له: يميناً لقد جُنِنْت) فما كان منه إلا أن ارتمى عليها ، وأخذ يضربها ، ثم أوثقها على كرسي وهو يقول لها : « سأعلمك إلى الأبد أنني أنا السيد في هذا البيت » .

ومن حسن الحظ ان أولاده أخذوا يبكون ويصرخون . فأدرك عندئـذ خطورة ما جنت يداه ؛ فحلّ وثاق امرأته ، وقرر في الغداة ان يستشير طبيباً « إخصائياً في الأعصاب ». قال لنا : « انه لم يكن من قبل كما هو الآن ، وانه كان لا يعاقب أولاده إلا نادراً ، ولا يتشاجر مـع زوجته أبداً على كل حال ،

وأن سلوكه الحالي انما ظهرت أعراضه عند قيام « الاحداث » الجارية . وشرح ذلك بقوله : « اننا نقوم الآن بأعمال سلاح المشاة . في الاسبوع الماضي مثلاً خضنا معركة كما لو كنا ننتمي الى الجيش. ان هؤلاء السادة، رجال الحكومة ، يدّعون انه ليس في الجزائر حرب ، وان على قوى الأمن ، اي الشرطة ، ان يعيدوا الهدوء الى نصابه . غير ان في الجزائر حرباً ، وحين سيدركون ذلك ، سيكون الأوان قد فات. والشيء الذي يقلقني خاصة انما هو التعذيب . اهذا لا يهمك انت ؟... انني أظل اعذّب في بعض الأحيان عشر ساعات ...؟

– ما الذي يحدثه التعذيب في نفسك ...

– أتعب .. صحيح ان هناك فترات راحة للمعذّبين. ولكن أحداً لا يعرف متى يعهد باتمام العمل الى زميله . ذلك ان المسألة عندنا ما يلي : هل تستطيع ان تحمل هذا الرجل على ان يتكلم ؟ انها مسألة انتصار شخصي . نحن نتنافس . وتتحطم قبضات أيدينا آخر الأمر . وقد أصبحوا يستعينون بالسنغاليين . ولكن هؤلاء السنغاليين اما ان يضربوا ضرباً مسرفاً في الشدة فيهدموا الرجل في نصف ساعة ، واما ان يضربوا ضرباً مسرفاً في اللين ، لا يؤدي الى نتيجة . الواقع ان على المرء ان يكون ذكياً حتى ينجح في هذا العمل . يجب ان يعرف متى يشتد ومتى يلين . المسألة مسألة حذق . ولذلك لا بد أن يتولى المرء العمل بنفسه ، لأنه يستطيع عندئذ أن يراقب تقدم الاستجواب مراقبة أكمل . أنا اخالف اولئك الذين يعهدون بتحضير الشخص الى آخرين ، ولا يزيدون على ان يجيئوا كل ساعة ليروا ما وصل اليه الأمر . ويجب خاصة ان لا يشعر الشخص المعذّب بأنه لن يخرج من بين أيدينا حياً ، والا قال لنفسه : فيم أتكلم ما دام الكلام لا ينقذ حياتي ! وفي هذه الحالة لا يمكن أن نعرف أي شيء . يجب ان نترك للشخص المعذب أملا: الأمل الذي هو الذي ينطقه .

« غير ان ما يزعجني اكثر من اي شيء آخر هو قصة امرأتي . انه لأكيد ان بي شيئاً من جنون يجب ان تشفيني من هذا يا دكتور » .

وإذ رفضت السلطات التي يتبعها هذا المريض ان تمنحه إجازة راحة، وإذ

كان هو نفسه من جهة أخرى لا يريـد أن يحصل على شهاده من طبيب أمراض عقلية ، فقد بدأنا بمعالجته وهو « يقوم بعمله » . وواضح ان مثل هـذا الاجراء ضعيف . فلقد كان الرجل يعـلم حق العلم ان اضطراباته ناشئة مباشرة عن نوع العمل الذي يقوم به في قاعات الاستجواب، وان يكن قد حاول ان يلقي التبعة بوجه إجمالي على « الأحداث » الخارجية . ولما كان لا يفكر في التوقف عن القيام بأعمـال التعذيب (اذ ان معنى ذلك ان يستقيل) ، فقد طلب إليّ ، من غير لف ولا دوران ، ان أساعده على ان يعذب المواطنين الجزائريين دون ان يصاب من ذلك باضطراب في السلوك، أي ان يعذبهم بهدوء وجأش رابط [١].

السلسلة ب

جمعنا هنا حالات أو فئات حالات كان فيها الحادث الذي أطلق المرض هو أولاً وقبل كل شيء جو الحرب الشاملة ، الذي يرين على الجزائر .

الحالة ١ – اثنان من الفتـــيان الجزائريين عمرهما ١٣ سنة و ١٤ سنة ، يقتلان رفيقاً اوروبياً من رفاقهما في اللعب :

نحن هنا إزاء تقرير من تقارير الطب الشرعي . صبيّان جزائريان عمرهما ١٣ و١٤ سنة ، تلميذان في مدرسة ابتدائية ، اتهما بقتل أحد رفاقهما الأوروبيين. وقد اعترف الصبيان بأنهما ارتكبا هذا الفعل . وأعيد تمثيل الجريمة . وضُمّت الصور الفوتوغرافية إلى إضبارتهما . ففي هذه الصور نرى أحـد الصبيين يمسك الضحية ، بينما يطعنها الثاني بسكين . لم يتراجع المتهمان الصغيران عن اعترافاتهما. وقد أجرينا معهما محادثات طويلة . ونحن ننقل الى القارىء فيما يلي أقوالهما التي لها صفة مميّزة :

---

١ – نحن في هذه الحالة ازاء مرض يؤلف مجموعة منسجمة لا تدع شيئاً من الأشياء سليماً . ان الجلاد الذي يحب الطيور أو يستمتع في خلوة هادئة بسمفونية او سوناتة ليست حالته إلا مرحلة ، وبعد ذلك تستحيل حياته الى سادية جذرية مطلقة .

أ- الصبي الذي عمره ١٣ سنة :

« لم نكن غاضبين منه . كنـا نذهب في جميع ايام الخميس معـاً الى الصيد بالنقـّافة ، على الرابية التي تعلو القرية . وكان رفيقاً لنا طيباً . وكان قد انتطع عن الذهاب الى المدرسة ، لأنه كان يريد ان يصبح بنـّاء كأبيه . وفي ذات يوم قررنا ان نقتله ، لأن الأوروبيين يريدون ان يقتلوا جميع العرب . ونحن لا نستطيع ان نقتل « الكبار » ، ولكننا نستطيع أن نقتله هو ، لأنه في مثل سننا . وكنا لا نعرف كيف نقتله . أردنا ان نرميه في حفرة ، ولكن لو رميناه في حفرة لجُرح فقط . لذلك أخذنا سكيناً من البيت وقتلناه .

– ولكن لماذا وقع اختيار كما عليه هو ؟
– لأنه يلعب معنا وما كان لولد آخر أن يصعد معنا الى الرابية .
– ولكنه رفيق لكما ؟
– ولماذا يريدون هم أيضاً أن يقتلونا ؟ ان أباه منخرط في المليشيا، ويقول: إنه يجب ذبحنا .
– ولكن هل قال هو لك شيئاً من هذا القبيل ؟
– هو ؟ لا ..
– هل تعلم أنه الآن ميت ؟
– نعم ..
– ما هو الموت ؟
– هو أن ينتهي الأمر ، ويذهب الشخص الى السماء .
– أأنت الذي قتلته ؟
– نعم ..
– هل تشعر بندامة على أنك قتلت احداً ؟
– لا ، ما داموا يريدون ان يقتلونا ...
– هل يزعجك انك في السجن ؟

ـ لا ..

ب ـ الصبي الذي عمره ١٤ سنة :

ان هذا الفتى المتهم يختلف عن رفيقه اختلافاً واضحاً . انه يوشك أن يكون رجـلاً من الآن ، يوشك أن يكون راشداً بحركات جسمه ، وشكل وجهه ، ولهجة كلامه ، ومضمون أجوبته . هو أيضاً لا ينـكر أنه قتل . فلما سألته لماذا قتل ، لم يجبني ، بل سألني هل رأيت في حياتي أوروبيا في السجن ، فأجبته بأنني حقاً لم أرَ في حياتي أوروبيين سجناء .

ـ ومع ذلك هناك جزائريون يُقتلون كلّ يوم ؛ أليس هذا صحيحاً ؟

ـ صحيح ...

ـ إذن لماذا لا نجد في السجون إلا جزائريين ؟ هـل تستطيع أن تفسر لي هذا الأمر ؟

ـ لا .. ولكن قل لي لماذا قتلت ذلك الصبي الذي كان رفيقاً لك ؟

ـ سأشرح لك ... هل سمعت بقضية ريفيه [1] ؟

ـ نعم ..

ـ لقد قُتل اثنان من اقربائي في ذلك اليوم . وقيـل يومئذ عندنا إن الفرنسيين حلفوا ليقتلننا جميعاً بعضاً في إثر بعض . فهل اعتقل فرنسي واحـد بسبب مقتل جميع هؤلاء الجزائريين ؟

ـ لا أعلم .

ـ فاعلم إذن أنه لم يعتقل أحد . وقد أردت أنا أن أصعد إلى الجبـال ، لكني صغير . فقررت مع س ... أن من الواجب أن نقتل أوروبياً .

ـ ولماذا ؟

ـ وما الذي كان يجب أن نفعله في رأيك ؟

---

١ ـ قرية أصبحت شهيرة في مقاطعة الجزائر منذ أحد ايام سنة ١٩٥٦ . ذلك ان جنوداً من الميليشيا الفرنسية هاجموا هذه القرية في ذات مساء ، فانتزعوا أربعين جزائرياً من اسرتهم وقتلوهم .

– لا أدري . ولكنك طفل ، وهذه الأمور التي تحدث إنما هي من شأن الكبار .

– ولكنهم يقتلون أطفالاً أيضاً ...

– ولكن هذا لا يبرر قتلك رفيقك .

– قتلته . وافعلوا الآن ما تشاؤون .

– هل أساء إليك هذا الرفيق إساءةً ما ؟

– لم يسىء إليّ .

– إذن ؟

– هذا ما حصل ...

الحالة ٢ : شاب جزائري عمره ٢٢ عاما يهذي هذيان اتهام ، ويسلك سلوكاً انتحارياً مقتنعًا بانه يقوم « بعمل ارهابي » :

أُرسل هذا المريض إلى المستشفى من قِبل السلطة القضائية الفرنسية . وقد اتخذ هذا الاجراء بعد شهادة طبية شرعية قدمها أطباء فرنسيون يمارسون مهنة الطب العقلي في الجزائر .

رجل ناحل ، يعاني حالة خلط شديد . جسمه مغطى بكدمات . وفي فكه كسران يجعلان أي ابتلاع للأطعمة مستحيلاً . ولذلك ظل المريض خلال أكثر من اسبوعين يُغذّى بحقن مختلفة .

بعد انقضاء اسبوعين خفت حالة الفراغ الفكري ، وأمكننا أن نحقق بعض الاتصال به ، أوصلنا إلى تصور القصة الدرامية التي عاشها هذا الشاب :

كان في فتوته يمارس الكشفية بحماسة نادرة ، حتى أصبح من المسئولين الرئيسيين في الحركة الكشفية الإسلامية . ولكنه حين بلغ التاسعة عشرة من عمره أهمل الكشفية اهمالاً تاماً ، وأصبح لا يُعنى إلا بمهنته . فكان يدأب على الدروس دأباً شديداً ويحلم ان يصبح إخصائياً ممتازاً في حرفته التي انقطع لها ، وهي حرفة ميكانوغراف . فلما انطلقت الثورة يوم أول تشرين الثاني من عام ١٩٥٤ ، كان هو غارقاً في مشكلات مهنية صرفة ، فلم يستجب أية استجابة

لحركة التحرير الوطني . وكان قد انقطع عن رفاقه القدامى قبل ذلك . وقال عن نفسه يومئذ إنه « مجنـّد لتحسين قدراته التكنيكية » .

ومع ذلك ففي منتصف عام ١٩٥٥ ، أثناء سهرة عائلية ، احس فجأة ان أهله يعدونه خائناً . وامحـّى هذا الأحساس بعد بضعة أيام ، ولكن بقي له منه شيء من القلق أو شيء من الانزعاج لم يستطع أن يفهمه .

أصبح يتناول طعامه بسرعة ، ويهرب من البيئة العائلية ، ويعتزل في غرفته. إنه يتحاشى أي اتصال بأحد. وفي هذه الظروف انما وقعت كارثته . ففي ذات يوم ، بينما كان سائراً في الشارع ، في نحو الساعة الثانية عشر والنصف ، سمع صوتاً واضحاً يصفه بأنه خائن . فالتفت الى وراء ولكنه لم يرَ أحداً . فحث الخطى وقرر أن لا يذهب الى عمله بعد اليوم . ولبث في غرفته ولم يتناول طعام العشاء . وفي أثناء الليل وافته النوبة ، فكان خلال ساعات ثلاث يسمع جميع أنواع الشتائم ، أصواتاً في رأسه وفي الليل : « يا خائن ، يا جبان ... إخوتك جميعاً يموتون ... خائن ... خائن ... » .

استولى عليه قلق لا سبيل الى وصفه : « ظل قلبي ، خلال ثماني عشرة ساعة ، يخفق ١٣٠ خفقة في الدقيقة. واعتقدت انني مائت » .

ومنذ ذلك اليوم اصبح المريض لا يستطيع أن يبلع شيئاً . فنحل نحولاً ظاهراً ، وانزوى في ظلام مطبق ، وأصبح يرفض ان يفتح الباب لأبويه. وفي اليوم الثالث ارتمى يصلي ، فكان يظل ساجداً مدة ١٧ – ١٨ ساعة كل يوم ، كما قال . وبعد أربعة أيام رأى نفسه يندفع الى الشارع « كالمجنون » ، « بلحية كان من شأنها أيضاً ان تحمل من يراه على ان يحسب انه مجنون » فلما اصبح في الشارع لم يعرف اين يذهب . ولكنه ظل يسير ، فرأى نفسه بعد زمن في المدينة الأوروبية . وكانت سحنته (يُلاحَظ أنه يشبه ان يكون أوروبياً) تحميه من استيقافات الدوريات الفرنسية ومراقباتها ، على حين أن جزائريين وجزائريات كانوا حواليه يوقفون ويضربون ويشتمون ويفتشون .. ومن الصدف أنه لم يكن يحمل أية ورقة . فكان من شأن هذه اللباقة العفوية من جانب الدوريات العدوة

ان عززت هذيانه : « جميع الناس يعلمون أنه مع الفرنسيين . حتى الجنود لديهم تعليمات بأن لا يتعرضوا له » .

وأكثر من ذلك ان نظرات الجزائريين المستوقفين الذين رفعوا أيديهم وراء النقرة ينتظرون تفتيشهم ، بدت له مليئة بالاحتقار. فاضطرب اضطراباً شديداً، وأسرع يبتعد . وفي تلك اللحظة وصل إلى العمارة التي فيها قيادة الجيش الفرنسي. فرأى على الباب الحديدي عدداً من العسكريين يحملون مدافع رشاشة . فتقدم نحو الجنود وهجم على أحدهم يحاول ان ينتزع منه مدفعه وهو يقول : « أنا جزائري » .

فسرعان ما قبضوا عليه ، وقادوه الى مراكز الشرطة ، حيث أصرّ المستجوبون على ان يعترف لهم بأسماء رؤسائه ، وبأسماء مختلف أعضاء الشبكة التي ينتمي إليها . وأدرك رجال الشرطة والعسكريون بعد بضعة أيام أن الرجل مريض . فقرروا إحالته الى الطبيب الشرعي الذي شهد بأنه يشكو من اضطرابات عقلية ، ونصح بإدخاله المستشفى . قال لنا : « ان ما كنت أريده هو أن أموت. وحتى عند الشرطة كنت أعتقد وآمل ان يقتلوني بعد التعذيب . كنت سعيداً بالضرب ، لأنه يبرهن لي على أنهم يعدونني انا أيضاً عدواً لهم . لقد أصبحت لا أطيق ان اسمع تلك الاتهامات دون ان اردّ عليها . لست جباناً . لست امرأة . لست خائناً »[١] .

الحالة ٣ : حالة عصابية لدى شابة فرنسية قتل أبوها ، الموظف الكبير ، أثناء كمين :

إن هذه الفتاة ، وهي طالبة في العام الحادي والعشرين من عمرها ، قد استشارتني في أمر ظاهرات صغيرة من نوع القلق تضايقها في دراستها وفي علاقاتها الاجتماعية . راحتا كفيها مخضلتان دائماً ، حتى لقد تمر فترات مقلقة حقاً « يسيل

---

١ ــ في خلال عام ١٩٥٥ زادت الحالات التي من هذا النوع زيادة كبيرة . ومن المؤسف انه لم يتح لجميع المرضى حظ الوصول الى المستشفى .

فيها الماء من يديها سيلاناً ، تشعر بانقباضات صدرية مصحوبة بصداع في الليل. وهي تقضم أظافرها . غير أن الشيء الذي يخطف البصر خاصة هو سهولة الاتصال بها اتصالاً سريعاً جداً ، في حين يُلاحظ أن وراء ذلك قلقاً كبيراً . وحين أشارت المريضة الى موت أبيها الذي لم يمض على موته زمن طويل ، أشارت الى ذلك بخفة كبيرة جعلتنا نوجّه بحوثنا نحو علاقاتها بأبيها . إن الكلام الذي قالته لنا ، وهو كلام واضح ، صاح كل الصحو ، صاح صحواً يقارب فقدان العاطفة ، هو الذي كشف لنا بطابعه العقلي نفسه،عن الاضطراب الذي تعانيه هذه الفتاة ، وعن طبيعة الصراع الذى يقوم في نفسها وعن أصل هذا الصراع .

« كان أبي موظفاً من كبار الموظفين . كانت منطقة ريفية واسعة تحت إمرته . ومنذ بدأت الأحداث أخذ يطارد الجزائريين بحنق مسعور ، حتى أصبح لا يأكل ولا ينام من فرط ما كان يهتاج في سبيل قمع العصيان . لقد شهدت التحول البطيء الذي عاناه أبي ، دون أن أستطيع أن أفعل شيئاً البتة . وقررت أخيراً أن لا أزوره ، وأن أبقى في المدينة . ذلك أنني كلما ذهبت الى البيت كنت أظل مستيقظة ليالي برمتها ، لأن أصواتاً صاعدة من اسفل كانت تظل تقرع سمعي : ففي القبو وفي الحجرات التي أصبحت امكنة للتعذيب ، كان يُعذَّب جزائريون بغية الحصول منهم على معلومات . إنك لا تستطيع ان تتصور فظاعة ما يحدثه هذا الصراخ طوال الليل في النفس . وقد تساءلت في بعض الأحيان كيف يطيق كائن إنساني ان يسمع صراخ الألم هذا ، ناهيك عن القيام بالتعذيب . وكان ذلك يستمر . وانقطعتُ آخر الأمر عن المجيء الى البيت . وفي المرات النادرة التي جاء فيها أبي الى المدينة كنت لا أستطيع أن أنظر الى وجهه إلا وأشعر بانزعاج شديد ورعب فظيع. وأصبح يشق على نفسي أن أقبّله .

« ذلك انني أقمت في القرية زمناً طويلاً . حتى لأكاد أعرف جميع اسرها . وما أكثر ما لعبنا معاً ، أنا وهؤلاء الشبان الجزائريون الذين هم في سني،حين كنا

صغاراً . وكلما جئت الى البيت أنبأني ابي ان أشخاصاً آخرين قد اعتقلوا . وأصبحت في آخر الأمر لا أجرؤ ان اسير في الشارع ليقيني بأنني سألقى الكره أنى ذهبت . وفي قرارة نفسي كنت أرى ان هؤلاء الجزائريين على حق . فلو كنت جزائرية لالتحقت بالمقاتلين » .

وفي ذات يوم أثناء ذلك تلقت برقية تنبئها ان اباها قد اصيب بجراح خطيرة. فذهبت الى المستشفى فوجدته غائباً عن وعيه . ومات بعد ذلك بقليل . لقد جرح أبوها اثناء حملة تفتيشية قام بها مع فصيل عسكري ، فوقعت الدورية في كمين أعده الجيش الوطني الجزائري .

قالت الفتاة : « لقد قززني الدفن . إن جميع اولئك الضباط الذين جاءوا يبكون ابي الذي « جعلته مزاياه الأخلاقية الرفيعة يغزو قلوب سكان البلاد » قد أثاروا في نفسي الغثيان . لقد كانوا يعلمون جميعاً ان ذلك كذب . وما من احد يجهل ان ابي كان يدير مراكز الاستجواب في المنطقة كلها . انهم يعلمون ان قتلى التعذيب كان يبلغ عددهم عشرة في اليوم ، وها هم أولاء يرددون الأكاذيب عن الاخلاص والتضحية وحب الوطن وما الى ذلك .. يجب ان أقول إن الألفاظ لم يبقَ لها في نظري قيمة ، او لم يبقَ لها قيمة كبيرة على كل حال . وعدت الى المدينة فوراً ، وتهربت من جميع السلطات . عرضوا عليّ مساعدات مالية ، ولكنني رفضت . لا اريد ما لهم . إنه ثمن الدم الذي سفحه ابي . لا اريده . سوف اعمل » .

الحالة ٤ : اضطرابات في السلوك لدى صبيان جزائريين ، عمرهم أقل من ١٠ سنين :

هم اطفال لاجئون ، أبناء مجاهدين أو مدنيين قتلهم الفرنسيون ، فرُحلوا إلى مراكز مختلفة بتونس والمغرب . لقد أدخل هؤلاء الأطفال المدارس . ويشرف عليهم بعض الأطباء اشرافاً منتظماً . وبذلك إنما اتيح لنا ان نرى عدداً منهم :

أ) إن لدى هؤلاء الأطفال المختلفين حباً قوياً جداً للصور التي تمثل الأبوين.

فهم يسعون سعياً حثيثاً الى كل ما يشبه أباً أو أماً ، ويحرصون على المحافظة عليه أشد الحرص .

ب) يلاحظ فيهم عامة أنهم يخافون الضجة خوفاً شديداً ، ويتأثرون تأثراً قوياً حين يؤنبون . إنهم في ظمأ شديد الى الهدوء والعطف .

ج) كثير منهم يعانون الأرق ويسيرون اثناء النوم .

د) يبللون الفراش من حين إلى حين .

هـ) ميل سادي. هذه لعبة شائعة بينهم: قطعة من الورق يشدونها ويأخذون يثقّبونها بالدبوس في كثير من الحنق . يعضون جميعاً أقلامهم . يقضمون أظافرهم بدأب لا ينفع فيه نصح . يتشاجرون كثيراً رغم ما بينهم من عاطفة قوية .

الحالة ٥ : حالات ذهان الولادة لدى اللاجئات :

يطلق اسم ذُهان الولادة على الاضطرابات العقلية التي تظهر في المرأة عند الأمومة . وهذه الاضطرابات يمكن أن تظهر قبل الولادة رأساً أو بعد الولادة ببضعة أسابيع . وأسباب هذه الأمراض معقدة جداً . ولكن يقدّر الباحثون أن السببين الأساسيين هما البلبلة التي تطرأ على عمل الغدد الصماء» ووجود «صدمة عاطفية » . وهذا العامل الأخير ، وإن يكن غامضاً ، يشمل كل ما تسميه العامة « انفعالاً كبيراً » .

فمنذ القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية بأن تُتبع سياسة الأرض المحروقة على مئات الكيلومترات ، أصبح يوجد على الحدود التونسية والمغربية ما يقرب من ٣٠٠،٠٠٠ لاجىء . ويعرف المطلعون حالة العوز الشديد التي يعيش فيها هؤلاء اللاجئون . لقد انتقلت إلى هذه الأماكن بعثات من الصليب الأحمر الدولي ، فلما اطلعت على البؤس الشديد وعلى الظروف القلقة التي تكتنف معيشة هؤلاء التعساء أوصت المنظمات الدولية بزيادة المساعدات التي تقدم إليهم زيادة كبيرة جداً . فمن المتوقع إذن ، بسبب سوء التغذية في هذه المعسكرات ، أن تكون النساء الحوامل متأهبات تأهباً خاصاً لانطلاق أمراض ذهان الولادة فيهن .

إن الغزوات المتكررة التي تقوم بهـا القطعات الفرنسية ، مطبّقة « حق التتبع والمطاردة » ، وكذلك الحملات الجـوية وعمليات القصف بالقنابل – من المعلوم أن عمليات قصف الأراضي المغربية والتونسية بالقنابل من قبـل الجيش الفرنسي أصبحت لا يحصى عددها ، ويعد قصف ساقية سيدي يوسف ، القرية التونسية الشهيرة ،أدماها – وأيضاً تبعثر أفراد العائلة نتيجة لظروف الرحيل . ذلك كله يحيط هؤلاء اللاجئين بجو دائم من الشعور بعدم الأمان . ويجب أن نعلن أن اللاجئات الجزائريات اللواتي لم تظهر فيهن اضطرابات عقليـة قـلة قليلة .

وهذه الاضطرابات تكتسي أشكالاً عدة . فهي تارة هيجـانات يمكن أن تتجلى في سورات عنيفة من الحنق ، وهي تارة حالات هبوط نفسي شديد يتميز بالسكون مع محاولات انتحار متكررة ، وهي تارة حالات خوف مصحوب ببكاء وانتحاب واستغاثة وما إلى ذلك . وكذلك يتنوع مضمون الهذيانات التي تلاحظ فيهن . فهو تارة هذيان اضطهاد مبهم يتناول أي شخص من الأشخاص، وهو تارة هجوم هذياني على الفرنسيين الذين يريدون الطفل الذي سيولد أو الذي وُلد منذ قليل ، وهو تارة شعور بأن الموت وشيك ، والمريضات في هذه الحالة الأخيرة يضرعن إلى جلادين لا يُرون ان لا يقتلوا أولادهن .

ويجب أن نذكر هنا أيضاً ان المضامين الأساسية للهذيان لا يطردها تطامن المرض وتراجع الاضطرابات ، فإن الظروف التي تعيشها المريضة بعد الشفاء تظل تغذي فيها هذه العقد المرضية .

السلسلة ج : تبدلات عاطفية عقلية ، واضطرابات نفسية بعد التعذيب .

نجمع في هذه السلسلة المرضى الذين ظهرت اضطراباتهم ، الخطيرة كثيراً أو قليلاً ، بعد التعذيب رأساً أو أثناء التعذيب ، وسنصف فئات فرعيـة منهم ، إذ لقد أدركنا أن لكل طريقة من طرق التعذيب نماذج مرضية خاصة ، بغض النظر عن كون إصابة الشخصية قوية أو عميقة .

الفئة أ : بعد التعذيب العام الذي يسمونه تعذيبا وقائيا :

نشير هنا الى الطرائق الوحشية التي لا يقصد منها ان تكون تعذيباً بقدر ما يقصد منها ان تجبر المعذّب على الكلام . والمبدأ الذي يقول ان الألم حين يبلغ حداً معيناً يصبح ألماً لا يطاق ، هذا المبدأ له هنا أهمية خاصة ، فالغاية إذن هي الوصول الى هذا الحد الذي لا يطاق ، بأقصى سرعة ممكنة . ان التعذيب المحكم لا يستعمل في هذه الحالة ، وإنما يعمد المعذبون إلى هجوم كبير متعدد الأشكال : فيكون هنالك عدد من رجال الشرطة يضربون السجين في آن واحد ، يطوقه أربعة منهم ويأخذون يتراشقونه بالضرب ، بينما يحرق واحد صدره بسيجارة ويضرب آخر راحتي قدميه بعصا ... بعض طرائق التعذيب المستعملة في الجزائر قاسية قسوة خاصة ، وقد حدثنا عنها أشخاص استعملت في تعذيبهم :

أ – حقن الشخص بماء عن طريق الفم ، مع غسل بماء قوي الضغط فيه الصابون .

ب – إدخال زجاجة في الشرج .

وهناك شكلان من التعذيب يقال لهما التعذيب « بالسكون » :

ج – يركع السجين على ركبتيه ، ويرفع ذراعيه موازيتين للأرض ، موجهاً راحتيهما الى السماء ، جاعلاً صدره ورأسه منتصبين . ولا يسمح له بالقيام بأية حركة . وراءه يجلس شرطي على كرسي ، فإذا تحرك ردّه الى السكون بضربات من عصا ذات عقد .

د – يقف السجين جاعلاً وجهه الى الجدار ، رافعاً ذراعيه ، لا صقاً يديه بالحائط . وهنا أيضاً لا يجوز له ان يتحرك ، حتى إذا استرخى أي استرخاء انهالت عليه الضربات .

ولنذكر هنا ان ثمة نوعين من المعذّبين :

١ – اولئك الذين يعرفون شيئاً ما .

٢ – اولئك الذين لا يعرفون شيئاً .

١) فأما الذين يعرفون شيئاً ما فقلما يجيئون الى المؤسسات الصحية . إنه

يُعرف طبعاً ان فلاناً من الموطنين قد عُذّب في السجون الفرنسية ، ولكن لا يُرى كمريض .

٢) وأما الذين لايعرفون شيئاً فانهم كثيراً ما يجيئون يستشيروننا . ولسنا نتحدث هنا عن الجزائريين الذين يُضربون اثناء حملة تطهيرية . فهؤلاء ايضاً لا يجيئون الينا مرضى . وإنما نحن نتكلم عن اولئك الجزائريين غير المنخرطين في منظمات، الذين يُعتقلون ويُقادون إلى مراكز الشرطة أو مزارع الاستجواب ليُستنطقوا .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) حالات هبوط مضطرب : ٤ حالات .

هم مرضى يبدو عليهم الحزن ، من غير خوف حقيقي ، يعانون هبوطاً شديداً ، فلا يبارحون أسرتهم ، ولا يتصلون أي اتصال بالناس ، ثم يظهر فيهم على حين فجأة اضطراب عنيف أشد العنف يصعب دائماً ان تفهم دلالته .

ب) فقدان القدرة على تناول الطعام : ٥ حالات .

ان مشكلات هؤلاء المرضى خطيرة ، إذ ان فقدانهم قدرتهم على تناول الطعام لأسباب نفسية ، مصحوب بخوف شديد من أية ملامسة جسمية ، فاذا اقترب الممرض من المريض وحاول ان يلمسه ، ان يتناول يده مثلاً ، ردّه المريض عنه في قسوة . فليس من الممكن امداد هؤلاء المرضى بتغذية اصطناعية أو تجريعهم أدوية [1] .

ج) فقدان الاستقرار الحركي : ١١ حالة .

نحن هنا إزاء مرضى لا يستقرون في مكان . وهم منزوون دائماً ، ويصعب ان يقبلوا الانحباس مع الطبيب في مكتبه .

ان هناك شعورين ظهرا لنا شائعين لدى هذه الفئة الأولى من الذين نالهم

---

١ — على الهيئة الطبية ان تتناوب العمل ليلاً نهاراً في افهام المريض بالشرح . وواضح ان الطريقة القائلة بقسر المريض قليلاً ، لا يمكن ان ينفع استعمالها هنا .

التعذيب :

أولها الشعور بالظلم . كأن شيئاً لدى هؤلاء الرجال قد انكسر بعد أن عُذّبوا ليالي وأياماً من أجل لا شيء . وقد عانى أحد هؤلاء المعذبين تجربة مؤلمة خاصة : فبعد أن عذب أياماً برمتها من غير طائل ، اقتنع رجال الشرطة أنهم إزاء شخص مسالم ، غريب تماماً عن تلك الشبكة من شبكات جبهة التحرير الوطني . ولكن مفتش الشرطة قال لهم رغم ذلك الاقتناع : « لا تتركوه هكذا . شدوا عليه أيضا . فبذلك يبقى هادئا بعد أن يخرج »[1] .

والثاني عدم الاكتراث بأي حجة أخلاقية . فهؤلاء المرضى يعتقدون أنه ليس هناك قضية عادلة ، إن القضية المعذّبة قضية ضعيفة . وعلى المرء إذن قبل كل شيء أن يهتم بزيادة قوته ، وأن لا يتساءل عن عدالة قضية من القضايا . فلا قيمة للقوة .

الفئة ٢ : بعد التعذيب بالكهرباء :

أدرجنا في هذه الفئة الوطنيين الجزائريين الذين عُذّبوا خاصةً بالكهرباء والواقع أن الكهرباء كانت في السابق وسيلة من جملة وسائل التعذيب ثم أصبحت ابتداء من شهر أيلول ١٩٥٦ الوسيلة الوحيدة في بعض الاستجوابات .

الأمراض النفسية المشاهدة

أ) أمراض في الاحساسات تتناول أجزاء معينة من الجسم أو تشمل الجسم كله : ٣ حالات .

هم مرضى يشعرون بتنميل في الجسم ، بأن اليد تقلع ، بأن الرأس ينفجر ،

---

١ — ان هذا التعذيب الوقائي يصبح في بعض المناطق « قمعاً وقائياً » وعلى هذا الأساس رأينا في ريفه ان المستوطنين الفرنسيين ، وقد أرادوا أن لا يؤخذوا على حين غرة ، (اذ بدأت المناطق المجاورة تتحرك) قرروا ان يبيدوا ، هكذا بكل بساطة ، أولئك الذين ربما كانوا أعضاء في جبهة التحرير الوطني، فقتلوا اكثر من اربعين جزائريا في آن واحد ، رغم ان الهدوء كان يسود المنطقة .

بأن اللسان يُبلع .

ب) فقدان العاطفة ، فقدان الإرادة ، فقدان الاهتمام : ٧ حالات .

هم مرضى ساكتون لا يتحركون ، ليس لهم هدف ، ليس فيهم دافع ، يعيشون حياتهم يوماً يوماً .

ج) ذعر فظيع من الكهرباء : خوف من ملامسة مفتاح كهربائي ، خوف من إشعال جهاز الراديو ، خوف من التلفون . يستحيل على الطبيب استحالةً مطلقة أن يذكر لهم ، ذكراً عارضاً ، أن من الممكن أن يعالجوا بصدمة كهربائية .

الفئة ٣ : بعد « مصل الحقيقة » :

مبدأ هذه المعالجة معروف . فالمريض الذي يبدو أنه يشكو من صراع نفسي لا شعوري تعجز المحادثة عن إبرازه إلى الخارج ، يُلجأ معه إلى طرائق كياوية . ومادة البانتوتال التي تحقن في الوريد هي المادة المستعملة أكثر من غيرها بغية تحرير المريض من صراع يبدو أنه يفوق قدرته على التلاؤم . فمن أجل تخليص المريض من هذا « الجسم الأجنبي » إنما يتدخل الطبيب [١] . وقد لوحظ مع ذلك ان من الصعب أن نتحكم بالانحلال التدريجى للالحاحات النفسية . ولم يكن أمراً نادراً أن نشهد تفاقمات خطيرة ، أو ظهور صفات مرضية جديدة لا سبيل الى تعليلها إطلاقاً . ولذلك عمد الأطباء عامة إلى هجر هذه الطريقة بعض الشيء .

وفي الجزائر وجد الأطباء العسكريون وأطباءالأمراض العقلية أن في قاعات الشرطة مجالاً كبيراً للتجريب . فإذا كانت مادة البانتوتال تزيل ، لدى المصابين بأمراض العصاب ، الحواجز التي تحول دون خروج الصراع النفسي الى النور ،

١ - والحق انه ليس اجنبيا تماما ، فالصراع ليس إلا نتيجة التطور الديناميي الذي تطورته الشخصية ، وهو تطور لا يمكن ان يكون فيه « جسم اجنبي » ، فلنقل ، بالأحرى ، انه جسم غير مندمج اندماجا كافيا .

فلا بد أن تستطيع هـــذه المادة أن تحطم لدى الوطنيين الجزائريين الحـاجز السياسي وأن تسهـّل حمل السجين على الادلاء باعترافات، دونما حاجة الى استعمال الكهرباء (إن التقاليد الطبية تريد تفـادي الألم) . ذلك هو الشكل الطبي من أشكال « الحرب المخرّبة » .

وإليكم السيناريو : أولاً : « أنا طبيب، ولست شرطياً . أنا هنا لمساعدتك»: وبذلك يحصلون بعد بضعة ايام على ثقـــة السجين . ثانياً : « سأحقنك ببعض الأدوية ، لأنك متعب كثيراً » . ويحقن السجين خلال بضعة أيام بأية مـــادة : فيتامينات ، مقوّيات ، مصول مسكـّرة ، وبعد أربعة أيام أو خمسة يبدأ حقن الوريد بمادة البانتوتال . ويبدأ الاستجواب .

الحالات المرضية المشاهدة

أ) تجمد كلامي :

يكرر المريض بغير انقطاع جملاً من هذا النوع : « لم أقل شيئاً ، صدقوني ، لم أتكلم » . ويصحب هذا التكرار المتجمد بخوف دائم . والمريض في كثير من الأحيان لا يعرف حقاً هل استطاعوا أن ينتزعوا منه بعض المعلومات . ولكنه يشعر أنه أثم في حق القضية التي يدافع عنها ، وفي حق الإخـــوة الذين أفضى بأسمائهم وعناوينهم ، وذلك يؤثر في نفسه تأثيراً فاجعاً . وما من تطمين يمكن أن يرد الهدوء إلى هذه الضمائر التي ُخرّبت تخريباً .

ب) الادراك العقلي أو الحسّي يصبح كتيماً :

المريض لا يستطيع أن يؤكـد وجود الشيء الذي يبصره . وهـــو يفهم استدلالاً ما ، ولكن على نحو غير متميز . إنه عاجز عجزاً أساسياً عـــن تمييز الحق من الباطل . كل شيء حق وباطل في آن واحد .

ج) خوف مرضي من كل انفراد مع شخص من الاشخاص :

ويرجع هذا الخوف إلى شعور المريض بـــأن من الممكن في كل لحظة أن يستجوب مرة أخرى .

د) كفّ :

المريض محاذر : يدقق في السؤال المطروح كلمة كلمة ، ويهيىء الجواب كلمة كلمة . ومن ثم شعور بما يشبه الكفّ والمنع ، مع بطء نفسي ، وبتر للجمل وعودة الى الوراء ، الخ .

وواضح ان هؤلاء المرضى يرفضون باصرار شديد أي حقن في الوريد .

الفئة ٤ : بعد غسل الدماغ

لقد تحدث الناس كثيراً في هذه الفترة الأخيرة عن « التأثير السيكولوجي » الذي تعمد اليه السلطات الفرنسية في الجزائر . ولا نريد هنا أن ندرس هذه الطرائق دراسة نقدية . وإنما نكتفي بالاشارة الى نتائجها من ناحية الأمراض العقلية . إن هناك فئتين من مراكز التعذيب بواسطة غسل الدماغ في الجزائر ، فئة للمثقفين وفئة لغير المثقفين .

١ – للمثقفين

المبدأ هنا هو حمل السجين على أن يلعب دوراً . ويدرك القارىء إلى أية مدرسة « نفسية اجتماعية » ترجع هذه الطريقة [١] .

أ) يطلب إلى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسين .

يُطلب إلى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين ، مبرراً هذا التعاون . وبذلك يُضطر إلى أن يعيش حياة مزدوجة لأنه وطني معروف بأنه

---

١ – من المعروف انه نشأ في الولايات المتحدة الامريكية تيار نفسي اجتماعي (سيكوسوسيولوجي) ، يرى أصحابه ان درامة الفرد المعاصر هو انه اصبح لا يلعب دوراً ، وان الآلية الاجتماعية قد جعلته جزءاً من آلة لا أكثر.ومن ثم يقترحون طريقة في العلاج تسمح للانسان ان يقوم بأدوار في نشاط من اللعب . فيكلف الفرد بأن يمثل اي دور حتى ليستطيع ان يبدل دوره في اليوم ذاته، وان يضع نفسه في مكان اي شخص من الأشخاص رمزياً. ويظهر ان الاطباء النفسيين في الولايات المتحدة يحققون خوارق في المعالجة النفسية الجماعية للعمال ؛ ذلك انهم يتيحون لهم ان يتوحدوا مع ابطال، وبذلك ينقص التوتر في في العلاقات بين ارباب العمل والعمال نقصاناً كبيراً .

كذلك ، ولكنه سحب من التجول على سبيل الوقاية . إن الهدف من هـذا هو أن يهاجموا عناصر الشعور القومي من داخل . فالسجين ليس عليه أن يتعاون مع الفرنسيين فحسب ، وإنما يُطلب منه أن يناقش المعارضين أو المترددين «بجرية». وتلك طريقة أنيقة لجعله يدل على الوطنيين ، أي لحمـله على ان يكون واشياً . فاذا قال إنه لا يجد معارضين ، سمّوا له هؤلاء المعارضين أو طلبوا إليه أن يعمل كما لو كان يناقش المعارضين .

ب) يطلب إلى السجين ان يكتب دراسات عن قيمة المهمة التي تحققها فرنسا ، وعن ان الاستعمار يقوم على أسس صحيحة .

ولكي يقوم السجين بهذا العمل على أكمـل وجه ، يُحاط بعدد كبير من المستشارين السياسيين : ضبـاط لشئون السكان الأصليين . ويحـاط ، أيضاً ، باخصائيين في علم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، وغير ذلك .

د) يطلب إلى السجين أن يتناول حجج « الثورة الجزائرية» بالتفنيد والنقض واحدة واحدة .

الجزائر ليست أمة ، ولم تكن في يوم من الأيام أمة ، ولن تكون في يوم من الأيام أمة ..

ليس هناك « شعب جزائري » .

الوطنية الجزائرية سخف .

« الفلاحون » أناس طمّاعون ، مجرمون ، ومساكين مضللون .

إن على كل واحد من هؤلاء المثقفين ان يلقي حديثاً في هـذه الموضوعات، وعلى الحديث الذي يلقيه ان يكون مقنعاً،وتقدر لهذه الأحاديث علامات (هي « مكافآت ») ، وتجمع العلامات في نهاية كل شهر ، وتعتبر هذه العلامات أساساً في تقدير استحقاق المثقف للخروج من السجن أو عدم استحقاقه .

ه) يُفرض على السجين ان يعيش حياة مشتركة مرضية تماماً :

لأن يعيش وحيـداً فذلـك عصيان وتمرد . لذلك يجب أن يكون في كل

لحظة مع شخص آخر . والصمت أيضاً محظور . إن عليه ان يفكر بصوت عال .

شهادة

جامعي اعتقل وأخضع لعملية غسل الدماغ طوال أشهر . وفي ذات يوم هنأه المسئولون عن المعتقل على التقدم الذي حققه ، وبشروه بأن إطلاق سراحه قريب .

وإذ كان يعرف مناورات العدوّ ، فقد حاذر ان يأخذ النبأ مأخذ الجدّ . ذلك ان الخطة المتبعة هي ان يُبشّر السجناء باطلاق سراحهم ، قبل الموعد المضروب لعقد جلسة نقد مشترك . حتى إذا عقدت الجلسة كان القرار الذي يتخذ في كثير من الأحيان هو تأجيل إطلاق سراح السجين ، بحجة انه لم يظهر جميع الدلائل التي تشير إلى أنه شفي شفاءً تاماً . ويقول الاختصاصيون في علم النفس الذين حضروا الجلسة ، يقولون عندئذ : لقد دات هذه الجلسة على أن جرثومة النزعة القومية ما تزال موجودة .

على ان الأمر في هذه المرة لم يكن أمر خدعة . فقد أطلق سراح السجين فعلاً . حتى إذا خرج من السجن ، وصار في المدينة مع أسرته ، هنأ نفسه على انه أجاد تمثيل الدور ، وأسعده أنه أصبح يستطيع الآن ان يستأنف مكانه في المعركة الوطنية ، وحاول أن يعاود الاتصال برؤسائه المسئولين . فاذا بفكرة مباغته رهيبة تثب إلى ذهنه : لعله لم يخدع أحداً ، لا رجالَ السجن ، ولا المعتقلين معه ، ولا نفسه .

ما هو العلاج ؟

هنا أيضاً يجب التطمين، وانتزاع وهم الوقوع في الإثم .

الحالات المرضية المشاهدة

أ) خوف مرضي من كل مناقشة مشتركة . متى كان لقاء مع ثلاثة أشخاص أو أربعة عاد الكف إلى الظهور ، واشتد الشك والتردد اشتداداً قوياً .

ب) عجز عن تفسير وضع معين والدفاع عنه .

تظهر الفكرة زوجين متعارضين . كل مـا يؤكده المريض يمكن أن ينكره في الوقت نفسه بقدر واحد من القوة . لا شك ان هـذا آلم نتيجة مرضية من النتائج التي صادفناها في هذه الحرب . إن « العمل السيكولوجي » الذي وُضع في خدمة الاستعمار في الجزائر قد أثمر شخصية حُصارية .

٢ – لغير المثقفين

في مراكز مثل برواغيا ، لا يبدأون بالذاتية من أجل تغيير اتجاهات الفرد ، وإنما يعتمدون على الجسم ، يكسرونه آملـين أن يتهدم الشعور القومي . نوع من الترويض الحقيقي . والمكافأة التي ينالهـا السجين هي الانقطاع عن تعذيبه أو السماح له بأن يأكل .

أ) عليه أن يعترف بأنه ليس من جبهة التحرير الوطني .

عليه أن يهتف بهذا على ملأ ، وأن يردده طوال ساعات .

ب) عليه بعد ذلك أن يعترف أنه كان من جبهة التحرير الوطـني ثم أدرك أن ذلك كان شراً . إذن : لتسقط جبهة التحرير الوطني .

بعد هذه المرحلة تأتي مرحلة أخرى : مستقبـل الجزائر فرنسي ، ولا يمكن أن يكون إلا فرنسياً .

بدون فرنسا تعود الجزائر الى القرون الوسطى . نحن فرنسيون . عاشت فرنسا .

إن الاضطرابات التي تشاهد هنا ليست فادحة . والجسم المتوجـع المتألم هو الذي يحتاج الى راحة وتسكين .

السلسلة د : اضطرابات نفسية جسمية

إن الحرب الاستعمارية في الجزائر لم تكثر الاضطرابات العقليـة فحسب ، ولا سهّلت نشوء ظاهرات مرضية خاصة فحسب ، وإنما هنالك ، عدا الأمراض التي تصيب المعذَّب والأمراض التي تصيب المعذِّب ، هنالك أمراض كثـيرة

ناشئة عن الجو العام ، تجعل الأطباء عامة يقولون حين يرون مريضاً لا يفلحون في فهمه : « كل هذا سينتهي بانتهاء هذه الحرب المقدسة » .

ونحن نقترح أن تُدرج ، في هذه السلسلة الرابعة ، الأمراضُ التي تلاحظ لدى الجزائريين الذين سُجن بعضهم في معسكرات الاعتقال . إن الطابع الذي يميّز هذه الأمراض هو أنها من النوع النفسي الجسمي .

يطلق اسم الأمراض النفسية الجسمية على مجموعة الاختلالات العضوية التي ساعد على نشوئها ظرف صراعي [1] . وهي نفسية جسمية لأنها ترجع في أصلها إلى أسباب نفسية . وهذه الأمراض تُعَدّ طريقة في الجواب يعمد إليها الجسم ، أي طريقة في التلاؤم مع الصراع الذي يتعرض له ، فكأن المرض مرض وشفاء في آن واحد . ويُجمع الباحثون على القول بصورة أدق إن الجسم (والمقصود أيضاً هو الوحدة اللحائية الحشوية ، الوحدة النفسية الجسمية على حد تعبير الأقدمين) يتغلب على الصراع هنا بطرق سيئة ، ولكنها طرق اقتصادية على كل حال . فهو يختار أهون الشرين من أجل أن يتحاشى الكارثة .

ولقد أصبحت هذه الأمراض معروفة معرفة جيدة جداً بوجه الإجمال ، وإن تكن الطرائق العلاجية المختلفة (كالاسترخاء ، والإيحاء) تبدو لنا خاضعة للصدفة . إن البحوث التي تصف الاضطرابات التي نشأت أثناء الحرب العالمية الثانية في إنجلترا إبان قصفها بالقنابل وفي الاتحاد السوفياتي لدى السكان المحاصرين وخاصة في ستالينجراد ، بحوث كثيرة . ولقد أصبحنا نعرف الآن حق المعرفة أنه لا حاجة لأن يصاب المرء برصاصة حتى يقاسي جسمه ويقاسي دماغه من وجود الحرب . وقد أوجدت حرب الجزائر ، ككل حرب أخرى ، نصيبها من الأمراض اللحائية الحشوية . وإذا استثنينا الفئة (ز) التي سنذكرها

---

١ – ان هذه التسمية التي تعبر عن مفهوم مثالي اصبحت تهجر شيئاً بعد شيء . والواقع ان الاصطلاحات « اللحائية الحشوية » التي جاءت بها الابحاث السوفييتية ، وخاصة ابحاث بافلوف تمتاز على الأقل بأنها ترد الدماغ الى مكانه ، اي تعده الرحم الذي تتهيأ فيه الحياة النفسية .

بعد قليل ، لاحظنا أن جميع الاضطرابات التي تُشاهد في الجزائر قد سبق أن شوهدت في حروب « كلاسيكية » . أما الفئة (ز) فتبدو خاصة بالحرب الاستعمارية الناشبة في الجزائر . وهذه الصورة الخاصة من المرض (وهي التقبض العضلي الذي يعم الجسم كله) كانت قد لفتت الانتباه قبل انطلاق الثورة. غير أن الأطباء الذين وصفوها قد عدّوها آفة ولادية في « السكان الأصليين » ، وصفة تتفرد بها (؟) جملتهم العصبية ، وتبرهن على أن المستعمَر تسيطر عليه الجملة « الفوق هرمية » . والواقع أن هذا التقبض العضلي لا يزيد على أن يكون مرافقاً جسمياً عضلياً لما يشعر به المستعمَر إزاء السلطة الاستعمارية من صلابة ، وحذر ، ورفض .

حالات مرضية مشاهدة

أ) قرحات في المعدة :

حالات كثيرة جداً . تتفاقم الآلام في الليل ، مع تقيؤ شديد ونحول ، وحزن ، وتجهم ، أما سرعة التهيج فاستثناء . يجب أن نشير إلى أن أكثر هؤلاء المرضى شباب في ريعان الصبا : من ١٢ الى ٢٥ عاماً . ونحن لا ننصح ، على وجه الإجمال، بإجراء عملية جراحية . لقد أجريت عملية استئصال في المعدة مرتين، وفي كلتا المرتين اضطروا إلى إجراء عملية جراحية ثانية في السنة نفسها .

ب) أوجاع في الحالبين :

هنا أيضاً نجد آلاماً تشتد في الليل . وليس ثمة حصى طبعاً . ويمكن أن تظهر هذه الأوجاع لدى فتية صغار - من ١٤ الى ١٦ — وذلك نادر .

ج) اضطرابات الطمث لدى النساء :

هذه الحالات المرضية معروفة جداً ، ولن نتلبث عندها ، فتارة تظل المرأة ثلاثة أشهر أو أربعة بغير حيض ، وتارة تعاني آلاماً شديدة تترجع آثارها في المزاج وفي السلوك المصاحب لهذا الحيض .

د) حالات ارتعاشات قائمة بذاتها :

المرضى شباب ، لا يعرفون الراحة ، بسبب ارتعاش يشمل الجسم كله ، ارتعاش خفيف يشبه شكلاً كاملاً من أشكال مرض باركنسون . هنا أيضاً يستطيع « رجال العلم ! » ان يرجعوا المرض الى أسباب تتعلق بالجملة العصبية الفوق هرمية !..

هـ) حالات ابيضاض في الشعر في سن مبكرة :

لدى الذين يخرجون من مراكز الاستجواب سالمين ، يشيب الشعر فجأة : تشيب خصل منه ، او مناطق ، او يشيب كله . ويصاحب هذه الاضطرابات في كثير من الأحيان وهن شديد ، وضعف في الاهتمام ، وعجز جنسي .

و) نوبات تسارع مفاجىء في خفقات القلب :

يزداد عدد خفقات القلب على حين فجأة : ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٠ في الدقيقة . ويصاحب هذا التزايد خوف ، وشعور باقتراب الموت ، وتتميز نهاية النوبة بتعرق شديد .

ز) تقبض عام ، تصلب عضلي :

هم مرضى ذكور يشعرون تدريجياً (وفي حالتين كان ظهور الحالة فجائياً) بصعوبة القيام ببعض الحركات . صعود سلم ، مشي سريع ، ركض ، ومرد هذه الصعوبة الى تصلب خاص يذكّر حتماً بإصابة بعض مناطق الدماغ (النوى السنجابية المركزية) . وهو تصلب آخذ بالاتساع ، بخطى صغيرة ، يكاد يستحيل على المريض أن يثني رجليه . ولا يمكنه الحصول على أي استرخاء . المريض متقبض كله ، عاجز عن أي إرخاء إرادي ، فكأنه قطعة واحدة . الوجه ثابت ، ولكنه يعبّر عن حيرة كبيرة .

إن المريض لا يبدو قادراً على أن « يخلص أعصابه من هذا التوتر » . إنه متوتر دائماً ، مترقب ، بين الحياة والموت . قال لنا واحد من هؤلاء المرضى : « ها أنت ذا ترى أنني متصلب منذ الآن كميت »[1] .

---

١ – لا حاجة بنا الى ان نذكر ان هذه الحالة ليست تقبضاً هستيرياً .

ما ينبغي للمرء ان يقاتل في سبيل حرية شعبه فحسب ، وإنما ينبغي له أيضاً ، ما ظلت هذه المعركة قائمة ، أن يعلّم هذا الشعب مرة أخرى ، وأن يعلم نفسه مرة أخرى ، حقيقةَ الانسان . يجب أن يسير في دروب التاريخ من جديـــد ، تاريخ الانسان الذي حكم عليه البشر بالعذاب ، وأن يدعو الى التقاء شعبه بسائر البشر ، وأن يجعل هذا اللقاء ممكناً .

والواقع أن المناضل الذي زج نفسه في معركة مسلّحة ، في كفاح وطـني ، ينوي أن يطهر كل يوم أنواع الانحطاطات التي فرضها الاضطهاد الاستعماري على الإنسان . بل إن المناضل ليشعر في بعض الأحيان شعوراً مضنيـاً بأن عليه أن ينقذ كل شعبه ، أن ينتشله من البئر ، من الكهف . إن المناضل ليدرك في كثير جـــداً من الأحيان أن عليه لا أن يقاتل القوى العدوة فحسب ، بل كذلك حبات اليأس المتبلورة في جسم المستعمَر . إن فترة الاضطهاد مؤلمـــة ، ولكن المعركة ، إذ تعيد الى الانسان المضطهَد اعتباره ، تحقق عمليـــة تكامل ، خصبة غاية الخصوبة ، حاسمة الى أبعد حد . إن المعركة الظافرة التي يخوضها شعب من الشعوب ، لا تكفل له انتصاره في نيل حقوقه فحسب ، وإنما هي تهيىء لهـذا الشعب التماسك والانسجام والتجانس . ذلك أن الاستعمار لم يفكك شخصيـــة المستعمَر فحسب ، وإنما جعل هذا التفكك واضحاً أيضاً على الصعيد الجماعي في مستوى البنيانات الاجتماعية ، فإذا الشعب المستعمَر ليس إلا مجموعة من الأفراد تستمد أساسها من وجود المستعمِر لا غير .

إن المعركة التي يخوضها شعب من الشعوب في سبيل تحرره تؤدي بـــه ، على حسب الظروف ، إما الى نبذ الحقائق المزعومة التي بثها في ضميره الحكم المـدني الاستعماري والاحتلال العسكري والاستغلال الاقتصادي ، وإما الى حطم هذه الحقائق المزعومة . وما من شيء غير القتال يستطيع حقاً أن يطرد تلك الأكاذيب التي تقال في حق الانسان ، والتي تدنـّي أكثرنا وعياً ، بل تخرب أكثرنا وعياً .

كم من مرة رأينا ، في باريز أو في إيكس ، في مدينة الجزائر أو في الأراضي

الواطئة ، أناساً مستعمَرين يحتجون احتجاجاً شديداً على الادعاء بأن الزنجي أو الجزائري أو الفيتنامي إنسان كسول . ونحن لا ندعي على كل حال ان الفلاح الذي يتحمس في العمل ، والزنجي الذي يرفض أن يستريح في ظل النظـــام الاستعماري ، إنما همـــا شخصان شاذان مريضان . ولكننا نقول إن كسل المستعمَر إنما هو تخريب مقصود الآلة الاستعمارية . إنه ، على المستوى البيولوجي ، نوع واضح من حماية الذات ، وهو على كل حال تأخير اكيد لسيطرة المحتـل على البلاد بكاملها .

إن المقاومة التي تبديها الغابات والمستنقعات ، فتحول دون التغلغل الأجنبي هي الحليف الطبيعي المستعمَر . ولقـد كان ينبغي للمدافعين عن المستعمَر أن يفهموا هذا الأمر ، فيكفوا عن قولهم إن الزنجي عامل نشيط وحارث ممتـاز . إن حقيقة الزنجي في ظل الحكم الاستعماري هي ان لا يحرك إصبعه ، هي أن لا يساعد المضطهِـد على مزيد من الإيغال في فريسته . إن واجب المستعمَر الذي لم يُنضج وعيـه السياسي بعد ، وقرر أن يرفض الاضطهاد ، هو أن لا يقوم بأية حركة إلا ان تنتزع منه انتزاعاً . فهـذا مظهر محسوس ملموس للاتعاون ، أو « للتعاون فى أضيق الحدود » على كل حال .

وهذه الملاحظات التي تصدق على العلاقات بين المستعمَر والعمـل يمكن ان تصدق ايضاً على احترام المستعمَـر لقوانين المستعمِر المضطهد ، وعلى دفـع الضرائب والرسوم بانتظام ، وعلى العلاقات بين المستعمَـر والنظام الاستعماري . فالاعتراف بالجميل والصدق والشرف إنما هي في ظل الحكم الاستعماري ألفاظ جوفاء . لقد أُتيح لي في هذه السنين الأخيرة أن أتحقق من صدق هذا الأمر الكلاسيكي جداً ، وهو : أن الشرف والكرامة والمحافظه على العهد المقطوع وما الى ذلك لا يمكن أن تظهر إلا في إطار تجانس قومي ودولي . أما اذا كنتَ تـُصفـّى أنت وأقرانك كالكلاب ، فليس لك إلا ان تستعمل جميع الوسائل لاسترداد وزنك كإنسان . وعليك اذن ان تضايق جسم الذي يعذّبك أكبر مضايقة ممكنة عسى فكره الضال في مكان ما ان يهتدي اخيراً الى حقيقته

الإنسانية العامة . لقد أتيح لي في هذه السنين الأخيرة ان أرى ان الشرف والتضحية بالنفس ، وحب الحياة ، وكره الموت ، ان ذلك كله يكتسي في الجزائر المقاتلة صوراً فذة . ولست أتغنى هنا بالمقاتلين . ولكنها حقيقة ظاهرة لمسها اشد الاستعماريين حنقاً ، وهي ان للمقاتل الجزائري طريقة فذة في القتال وفي الموت . ولا يمكن ان ترجع الى الإسلام والى الجنة الموعودة ، تلك التضحية السخية بالنفس ، التي يقدمها المقاتل الجزائري حين يكون عليه ان يحمي وطنه او أن يفدي إخوته . ومـا قولك في ذلك الصمت الساحق – الجسم يصرخ طبعاً ! – ذلك الصمت الذي يسحق المعذب سحقاً ؟ إننا نرى هنا ذلك القانون القديم جداً الذي يحرم على عنصر ما من عناصر الوجود أن يظل ساكناً بينما الأمة تسير ، بينما الانسان يطالب بإنسانيته اللامحدودة ويؤكد هذه الانسانية في الوقت نفسه .

من بين الخصائص التي زعم الاستعمار أن الشعب الجزائري يتصف بهـا ، سنتحدث الآن عن ميله المذهل الى الاجرام ، لقد أجمع القضاة ، ورجال الشرطة ، والمحامون ، والصحفيون ، والأطباء الشرعيون ، أجمعوا قبل عام ١٩٥٤ على ان استعداد الجزائري للجريمة مشكلة من المشكلات ، حتى لقد قالوا : إن الجزائري مفطور على الجريمة ، وأنشأوا لهذا نظرية ، وجاءوا ببراهين علمية ! وظلت هذه النظرية طوال أكثر من عشرين عاماً تُدرّس في الجامعات . وتعلم هذه النظرية شبان جزائريون من طلاب الطب ، فإذا بالصفوة تألف ، شيئاً فشيئاً ، على غير شعور منها ، وجودَ هذه الآفات الطبيعية في الشعب الجزائري ، كما ألفت الاستعمار : كسالى بالفطرة ، كذابون بالفطرة ، لصوص بالفطرة ، مجرمون بالفطرة .

ونريد هنا أن نعرض هذه النظرية الرسمية ، وان نذكر أسسها المحسوسة وأدلتها العلمية . وسنحاول أن نفسرها تفسيراً جديداً .

الجزائري يقتل كثيراً : يقول لك القضاة : إن من الأمور الواقعة أن أربعة أخماس القضايا المرفوعة الى القضاة تتصل بطعنات وجروح ، وأن نسبة

الجريمة في الجزائر هي من أعلى النسب ، هي من أضخم النسب في العالم بأسره . وليس هنالك جنح بسيطة ، فحين يخالف الجزائري القانون (ويصدق هذا على جميع أبناء شمالي افريقيا) ، فانه يمضي في هذه المخالفة الى حدّها الأقصى .

الجزائري يقتل بوحشية : يُلاحظ اولاً ان السلاح المفضل إنما هو السكين. والقضاة « الذين يعرفون هذه البلاد » ، قد أوجدوا لأنفسهم فلسفة صغيرة حول هذا الموضوع . فرجال القبائل مثلاً يؤثرون المسدس او البندقية ، أما عرب السهل فيؤثرون السكين . وتساءل بعض القضاة : تُرى أليس الجزائري في حاجة شديدة الى رؤية الدم ؟ ثم قالوا إن الجزائري محتاج الى الشعور بحرارة الدم ، الى أن يستحم في دم ضحية . ويمضي هؤلاء القضاة ورجال الشرطة والأطباء يبحثون بحثاً جاداً في العلاقة بين روح الاسلام والدم[1] حتى ليذهب بعض القضاة الى ان قتل إنسانٍ إنما يعني في نظر الجزائري ذبحه . وتظهر وحشية الجزائري خاصة في إكثار الطعنات ، حتى لتراه يطعن القتيل عدة طعنات بعد موته ، وهي طعنات لا فائدة منها . ويقرر تشريح الجثث أمراً لا سبيل الى الشك فيه هو : أن القاتل كأنما اراد أن يقتل عدداً من المرات لا حصر له ، لأن جميع الطعنات خطيرة بدرجة واحدة .

الجزائري يقتل لأمر تافه : كثيراً ما يحتار القضاة ورجال الشرطة في أمر البواعث التي حملت على القتل ، حركة بسيطة ، غمزة يسيرة ، كلمة ملتبسة ، ملاسنة حول شجرة زيتون يملكها المتلاسنان ، توغل دابة في ثُمْن هكتار من الأرض ... إنك إذا سألت عن السبب الذي دفع الى قتل هذا القتيل او هذين القتيلين او هؤلاء القتلى الثلاثة احياناً ، اذا سألت عن الباعث الذي يعلل هذا القتل ويوضح أساسه ، وجدته أمراً تافهاً غاية التفاهة ، فتحتار ، ولذلك تشعر في كثير من الأحيان ان هؤلاء الناس يخفون عنك البواعث الحقيقية .

ومن الملاحظ أخيراً ان السرقة التي يقوم بها جزائري هي دائماً سرقة بكسر ،

---

١ ـ من المعروف ان الاسلام يقضي بان لا يؤكل لحم الدابة الا اذا فرغت من الدم، ولذلك تذبح الدواب ذبحاً .

قد يرافقها قتل وقد لا يرافقها قتل، ولكنها مصحوبة في جميع الأحوال بعدوان على المالك .

فهذه العناصر كلها التي تتجمع حزمة حول ميل الجزائريين الى الإجرام، بدا أنها تميز الأمر تمييزاً كافياً من أجل محاولة تنظيمها في نظرية .

وإذا شوهدت حالات مماثـلة في تونس ومراكش (وإن تكن تلك الحالات أقل بروزاً) ، أصبح المتحدثون يتحدثون شيئاً فشيئاً عن الميل الى الجريمة لدى سكان شمالي افريقيا عامة . وأخذت جماعات من الباحثين ، تعمل منذ اكثر من ثلاثين عاماً ، تحت إشراف الأستاذ بورو ، أستاذ الأمراض العقلية في كلية الطب بمدينة الجزائر ، أخذت تعمل في توضيح صور التعبير عن هذا الميل الى الإجرام، وتعليله تعليلاً سوسيولوجياً ، وظيفياً ، تشريحياً .

وسنستعمل هنا الدراسـات الرئيسية التي أفردتْها لهـذه المسألة مدرسةٌ من مدارس الطب العقلي ، هي مدرسة كلية الجزائر . ولنتذكر أن النتـــائج التي وصلت اليها هذه الدراسات من بحوثٍ دامت أكثر من عشرين عاماً ، أصبحت تلقى دروساً أساسية في كلية الطب - كرسي الأمراض العقلية - .

وهكذا فإن الأطباء الجزائريين الحاصلين على شهاداتهم من كلية مدينة الجزائر قد حُملوا على أن يسمعوا وان يتعلموا أن الجزائري مجـــرم بالفطرة . حتى لقد سمعتُ واحــداً منا يعرض هذه النظريات التي تعلمها عرضاً يشتمل على كثير من الجدّ ، ثم يضيف قوله : « حقيقة مرة ، ولكنها ثابتة علمياً » .

أهل شمالي افريقيا مجرمون بالفطرة ، فغريزة الانقضاض على الفرائس معروفة فيهم ، وميلهم القوي الى العدوان واضح تراه الأعين . أهل شمالي افريقيا يحبون التطرف ، لذلك لا تستطيع يوماً ان تثق بهم ثقـة كاملة . نرى أحدهم صديقك اليوم ، فإذا هو عدوك غــداً . إنهم لا يدركون الفروق الطفيفـــة ، فالروح الديكارتية غريبة عنهم غرابة اساسية . إن الإحساس بالتوازن والاعتدال والقصد يخالف استعداداتهم العميقة أشد المخالفة . أهل شمالي افريقيا أناس عنيفون ، عنيفون بالوراثة . يستحيل على واحـدهم أن يُخضع نفسه للنظام ، وان يضبط

اندفاعاته . نعم ، إن الجزائري اندفاعي منذ الولادة .

يوضحون قائلين : إن هذه الإندفاعية عدوانية ، ميّالة الى القتـل . وهنا يصلون الى تعليل سلوك السوداوي الجزائري ، وهو سلوك يخرج على القاعدة . ان أخصائيي الطب العقلي الفرنسيين ، في الجزائر ، قد وجــدوا أنفسهم أمام مشكلة عسيرة . فقد تعودوا ، إذا هم رأوا مريضاً مصاباً بالسوداوية ، أن يخافوا عليه من الانتحار . ولكنهم رأوا ان السوداوي الجزائري يقتل . فهذا المرض الذي يصيب الضمير الأخلاقي والذي يُصحب دائماً باتهام للذات وبميل الى تحطيم الذات يكتسي لدى الجزائريين أشكالاً تميــل الى تحطيم الآخرين . إن السوداوي الجزائري لا ينتحر ، بل يقتل . هذه هي السوداوية الميّالة الى القتل، التي أجاد البروفسور بورو دراستها في أطروحة تلميذه مونسيرا .

كيف تفسر المدرسة الجزائرية هذا الخروج عن القاعدة ؟ إنهـا تقـول اولاً إن قتل المرء نفسه معناه أنه يعود الى نفسه وينظر في نفسه ، معناه أنه يتعاطى تأمل حياته النفسية (الاستبطان). ولكن الجزائري عصي على الحياة الداخلية. ليس للافريقي الشمالي حياة داخلية . الافريقي الشمالي يتخلص من همومه بالارتماء على ما يحيط به . إنه لا يحلل . ولمــا كانت السوداوية مرضاً يصيب الضمير الأخلاقي ، فواضح ان الجزائري لايمكن ان تنشأ فيه إلا سوداويات كاذبة ، لأن ضعف ضميره وهزال إحساسه الأخلاقي أمران معروفـان حق المعرفة ايضاً . وهذا العجز في الجزائري عن تحليل موقف من المواقف وعن تنظيم نظرة نفسية شاملة يصبح مفهوماً فهماً كاملاً إذا رجعنا الى التعليلين اللذين يقدمها هــؤلاء المؤلفون الفرنسيون .

ففيما يتصل بالاستعدادات العقلية أولاً ، يلاحظ هؤلاء المؤلفون أن الجزائري ضعيف العقل . وإذا أردت ان تفهم ذلك حــق الفهم ، وجب أن تتـذكر الأعراض التي تصفها المدرسة الجزائرية . إن هذه المدرسة تذكر من خصائص السكان الأصليين المميزات التالية :

– ليس لهم انفعال ، أو لا يكاد يكون لهم انفعال .

– سريعو التصديق إلى أبعد حد ، قابلون للايحاء إلى أقصى درجة .
– عناد مصرّ .
– طفولة نفسية ، ينقصها مع ذلك ما يلاحـــظ لدى الطفل الغربي من حب الإطلاع .
– سهولة الإصابة بالحوادث وسهولة الاستجابات الايحائية [١] .

الجزائري لا يدرك المجموع . المسائل التي يطرحها على نفسه تتناول التفاصيل دائماً ، وتستبعد كل تركيب . إنه يدقق في الأمور التافهة ، ويظل لاصقاً بالأشياء ، تائهاً في التفاصيل ، موصداً دون الفكرة ، عصياً على التصورات العقلية . تعبيره بالكلام ضعيف إلى آخر حدود الضعف . حركته اندفاعية عدوانية دائماً . انه لعجزه عن تأويل الجزء التفصيلي على أساس المجموع الكلي ، يضفي على العنصر قيمة مطلقة ، وينظر الى الجزء على أنه الكل . لذلك تراه يرد ردوداً كلية على مؤثرات جزئية ، على أمور تافهة : شجرة تين ، حركة ، خروف في أرض . إن العدوانية التي يتصف بهـــا فطرة تبحث لنفسها عن طرق انطلاق ، وتكتفي بأيسر حجة حتى تنفجر . انها عدوانية صرفة [٢] .

بعد هذه المرحلة الوصفية أرادت مدرسة الجزائر أن تنتقل الى المرحـــلة التعليلية . وفي مؤتمر أطبـاء الأمراض العقلية والعصبية الذين لغتهم الفرنسية ، في هذا المؤتمر الذي عقد بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥ ؛ إنما حدّد البروفسور بورو الأسس العلمية لنظريته ، وأشار في معرض مناقشة التقرير الذي وضعه بارون عن الهستريا الى أن « السكان الأصليين بشمالي إفريقيا يتصفون بـأن نشاط المراكز

---

١ – البروفسور بورو ، « الحوليات الطبية النفسية » ١٩١٨ .

٢ – يرى عميد القضاة في محكمة بمدينة الجزائر ان عدوانية الجزائري تعبر عن نفسها في حبه للنزوة ، قال عميد القضاة هذا عام ١٩٥٥ : « هـــذه الثورة كلها ، يخطىء من يظن أنها سياسية . فانما الجزائري يحب المعامع ، فلا بد ان ينطلق هذا الحب من حين الى آخر !». ويرى هذا الأخصائي في علم الأقوام ان وضع سلسلة من الاختبارات والالعاب الاضفائيـــة القادرة على ضبط الغرائز العدوانية الشاملة لدى السكان الأصليين كان يمكن ان يكفي عام ١٩٥٥–١٩٥٦ لتوقف الثورة في جبال الاوراس.

اللحائية العليا عندهم متخلف ، فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم التي تقوم على الوظائف الحيوية الدنيا وعلى الغرائز » .

ومن أجل ان ندرك أهمية هذا الاكتشاف الذي جـاء به البروفسور بورو يجب أن نشير الى أن مايميز النوع الانساني ، إذا قيس بالحيوانات الفقرية الأخرى ، هو سيطرة اللحاء . أما الدمـاغ المتوسط فهو جزء من اكثر أجزاء الدمـاغ بدائية ، والانسان إنمـا هو ، قبل كل شيء ، الحيوان الذي يسيطر عليه اللحاء من الدماغ .

ان البروفسور بورو يرى أن حياة السكان الأصليين بشمالي افريقيا إنما تسيطر عليها المطالب المتصلة بالدماغ المتوسط . فكأنه يقول ان السكان الأصليين بشمالي إفريقيا محرومون من اللحـاء الدماغي . والبروفسور بورو لا يتحـاشى هذا التناقض ، وها هو ذا في عام ١٩٣٩ يوضح آراءه ، بالتعاون مع تـلميذه سوتر الذي أصبح الآن استاذ الطب العقلي بمدينة الجزائر ، قائلا في مجلة « الجنوب الطبي الجراحي » : « ليست البدائية نقصاً من النضج ، ليست توقفاً ملحوظاً في نمـو الحياة النفسية العقلية ، إنها حالة اجتماعية بلغت آخر مراحـل تطورها ، حالة متلائمة تلاؤماً منطقياً مع حياة مختلفة عن حياتنا » . ويصل هذان الأستاذان أخيراً إلى الأساس الذي تقوم عليه عقيدتهما ، فيقولان : « ليست هذه البدائية مجرد أسلوب ناشيء عن تربية خاصة ، وإنما هي تقوم على ركائز أعمق من ذلك كثيراً ، حتى لنعتقد ان أساسها استعداد خاص في بنية المراكز الدماغية . أو على الأقل في التنظيم الطبقي الحركي لهذه المراكز الدماغية . فمن الواضح أن اندفـاعية الجزائري ، وكثرة جرائم القتل التي يرتكبها والصفات التي تتصف بهـا جرائم القتل هذه ، وميوله الدائمة إلى اقتراف الجريمـة ، وبدائيته ، كل ذلك ليس مصادفة ، فانما نحن هنا إزاء سلوك منسجم مع نفسه ، إزاء حياة منسجمة مع نفسها يمكن تعليلها تعليلا علمياً . إن الجزائري ليس له لحاء دماغي ، أو قولوا على نحو أدق إن السيطرة عنده إنما هي للدماغ المتوسط . شأنه في ذلك شأن الحيوانات الفقرية الدنيا . فالوظائف اللحائية ان وجـدت عنده فهي ضعيفة

جداً ، وليست مندمجة في حركة حياته . لا سرّ إذن ولا عجب . وإحجـــام المستوطن الأوروبي عن أن يكل المسئولية الى السكان الأصليين ليس من قبيل التعصب العرقي ، ولا هو من قبيل حب الانفراد بالعمل ، وإنما هو إدراك علمي لكون السكان الأصليين محدودي الامكانيات بيولوجياً » .

ولنختم هذا الاستعراض طالبين نتيجة تتنــاول إفريقيا كلها من الدكتور كاروتر ، خبير منظمة الصحة العالمية . لقد جمع هذا الخبير الدولي في كتابٍ له ظهر سنة ١٩٥٤ ، زبدة ملاحظاته [١] .

والدكتور كاروتر كان يمارس مهنة الطب في إفريقيا الوسطى والشرقيـة ، غير ان النتائج التي ينتهي اليها تتفق مع نتائج مدرسة شمالي إفريقيـــا . فهذا الخبير الدولي يرى أن « الافريقي قلما يستعمل الفصين الجبهيين من دماغـــه ، ويمكن أن تُرد جميع خصائص الأمراض العقلية في إفريقيا الى كسل في الفصّ الجبهي من الدماغ » [٢] .

ومن أجل ان يوضح الدكتور كاروتر رأيه للقارىء، عقد مقارنة حيّة جداً، فقال ان الإفريقي السويّ إنما هو الأوروبي استؤصل جـــزء من دماغه . من المعروف أن المدرسة الأنجلوساكسونية قد ظنت في ذات يوم أنهـا اكتشفت علاجاً جذرياً لبعض الأشكال الخطيرة من الأمراض العقلية ، هو استئصال جزء هام من الدماغ . ولكن ما لوحظ في الشخصية بعد الجراحة من تخربات كبيرة جعل أصحاب هذا العـلاج يعدلون عنه . ويرى الدكتور كاروتر أن الشبه بين السكان الأصليين بإفريقيا وبين اولئك الذين أجريت لهم تلك الجراحــة شبه قوي يخطف البصر.

وبعد ان درس الدكتور كاروتر البحوث التي كتبها أطباء يتعاطون مهنـة الطب في إفريقيا ، طلع بنتيجة توحـّد بين الأفريقيين في هذا المضمار،قال: « هذه هي أوصاف الحالات التي لا تتناول فئات أوروبية . وقد جمعت في مناطق شتى

١ — كاروتر « سيكولوجية الافريقي ، السوية والمرضية » ، ماسون ، باريز ، ١٩٥٤ .
٢ — المرجع المذكور ، ص ١٧٦ .

من إفريقيا الشرقية ، وإفريقيا الغربية ، وإفريقيـا الجنوبية . وكان كل باحث من البـاحثين لا يعرف إلا قليـلاً أو لا يعرف البتة الدراسات التي كتبها الباحثون الآخرون . ومع ذلك فإن بين هذه البحوث كلها تماثلا واضحاً كل الوضوح »[١].

ولنذكر قبل الختام ان الدكتور كاروتر كان يعرّف ثورة الماوماو بأنها تعبير عن عقدة حرمان لا شعورية ، وان تكررها يمكن تحاشيه علميـاً ، بتحقيق تلاؤمات سيكولوجية هامة .

وهكذا فإن هذا السلوك غير المألوف : كثرة إقدام الجزائري على ارتكاب الجريمة ،وتفاهة البواعث الدافعة الى ذلك،وماتتصف به المشاجرات من انهاتنتهي الى القتل، ومن أنها دامية دائماً ،كل ذلك قدطرح على الملاحظين مشكلة تحتاج الى حل . والتعليل الذي جاؤوا به وأصبح يُلقى دروساً في الجـامعة هو التعليل التالي في آخر الأمر : إن طبيعة البنيانات الدماغية لدى أهالي شمالي إفريقيـا تفسر ما يتسمون به من كسل ، ومن عجز عقـلي واجتماعي ، ومن اندفاعية كاندفاعية الحيوان ، تفسر ذلك في آن واحد . فالاندفاعية الإجراميـة لدى أهل شمالي افريقيـا إنما هي تعبير على مستوى السلوك عن نظام معين في الجملة العصبية ، هي استجابة يمكن ان تُفهم نورولوجياً ، هي استجابة قائمـة في طبيعة الأشياء ، في طبيعة الشيء البيولوجي . فعدم تكامل الفصين الجبهيين مع عمل الدماغ هو سبب الكسل ، والجرائم ، والسرقات ، والاعتـداءات على النساء ، والكذب . ونتيجة ذلك إنما أفضي إليّ بها نائب محافظ - أصبح الآن محافظاً - وذلك بقوله : « إن هؤلاء الناس الذين هم كائنات طبيعية ، إنما يخضعون لقوانين طبيعتهم خضوعاً أعمى ، فيجب ان نواجههم بموظفين صارمين لايعرفون الهوادة ، يجب علينا أن نروّض الطبيعة لا أن نقنعها » ، إن كلمات : الإخضاع للنظام ، الترويض ، القمع ، وكذلك كلمة التهدئة في هذه الأيام ، هي الكلمات

---

١ - المرجع المذكور، ص ١٧٨.

التي يستعملها الاستعماريون في الأراضي المحتله أكثر ما يستعملون .

لئن أفضنا في الكلام على النظريات التي جاء بها رجال العلم الاستعماريون ، فما ذلك من أجل ان نظهر فقر هذه النظريات وسخفها ، وإنما من أجل ان نعالج مشكلة نظرية وعملية هي على جانب عظيم من الخطورة . والواقع أنه من بين المسائل التي طرحت نفسها على الثورة . من بين الموضوعات التي أمكن التنافس فيها على مستوى الشرح السياسي وإزالة التضليل ، لم تكن مسألة انتشار الجريمة في الجزائر إلا قطاعاً فرعياً . ولكن الأحاديث التي دارت حول هذا الأمر قد بلغت من الخصوبة أنها أتاحت لنا ان نتعمق فكرة التحرير الفردي والاجتماعي، وأن نحيط بها إحاطة أكمل . إنك حين ترى القادة يعالجون أمام المناضلين والمقاتلين مسألة انتشار الجريمة في الجزائر ، وحين تراهم يذكرون العدد الوسطي للجرائم والجنح والسرقات التي وقعت في العهد السابق للثورة ، وحين تراهم يشرحون أن شكل الجريمة وكثرة الجنح تابعان للعلاقات القائمة بين الرجال والنساء ، وبين الرجال والدولة ، هذه العلاقات التي يفهمها كل واحد ، وحين ترى فكرة الجزائري او الإفريقي الشمالي ، المجرم بالفطرة ، تتبدد من الأذهان بعد أن علقت حتى في ضمير الجزائري الذى كان يقول : « نعم، نحن أناس سريعون إلى الغضب ميالون إلى المشاجرة ، محبون للشر .. هكذا نحن »، حين ترى ذلك كله ، تستطيع عندئذ أن تقول : أجل إن الثورة في تقدم .

والمسألة النظرية الخطيرة الشأن هي أن علينا في كل لحظة وفي كل مكان ، أن نشرح ، أن نبدد الأضاليل ، أن نطرد الاهانة الموجهة الى الانسان . يجب أن لا ننتظر أن تنتج الأمة بشراً جدداً . يجب أن لا ننتظر أن يتبدل البشر تبدلاً تدريجياً في تجديد ثوري دائم . نعم إن هذين الأمرين هامان ، غير أن علينا ان نساعد الوعي . فإذا أراد العمل الثوري لنفسه أن يكون محرِّراً تحريراً يبلغ أقصى درجات الخصوبة ، فإن عليه أن لا يبقي على أي خروج عن القاعدة . إننا نشعر شعوراً قوياً بضرورة أن يصبح الحدث شاملاً كلياً ، أن

يحمل المرء كل شيء ، أن يصفي كل حساب ، أن يكون مسئولاً عن كل أمر . إن الوحدة المقاتلة التي تتوغل في الأرض لا يعني انتهاؤها من القيام بكمين أن ترتاح ، وإنما يعني أن هذه هي اللحظة التي يجب فيها على الوعي أن يقطع جزءاً من الطريق ، لأن الأمور كلها يجب أن تسير معاً .

نعم لقد كان الجزائري يسلك من تلقاء نفسه سلوكاً مصدقاً لما يقوله القضاة ورجال الشرطة [1]؛ فكان علينا أن ننظر الى هذه الإجرامية الجزائرية المعيشة على صعيد الزوجية من خيث أنها تجل للرجولة الحقة ، وان نطرح المسألة طرحاً جديداً على صعيد التاريخ الاستعماري . كان علينا أن نبين مثلاً أن جرائم الجزائريين في فرنسا تختلف اختلافاً أساسياً عن جرائم الجزائريين الخاضعين للاستغلال الاستعماري خضوعاً مباشراً .

وثمة أمر آخر لفت انتباهنا : في الجزائر ، يتم جرم الجزائريين عملياً ضمن دائرة مغلقة . فيسرق الجزائريون بعضهم بعضاً ، ويمزق بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً . إن الجزائري قلما يهاجم في الجزائر الفرنسيين ، وهو يتحاشى المشاجرات مع الفرنسيين . ولا كذلك في فرنسا ، فالمهاجر يجعل الجريمة متبادلة بين مجتمعات ، بين طوائف اجتماعية .

إن جرائم الجزائريين في فرنسا آخذة في النقصان ، وهي تنصب خاصة على الفرنسيين . والدوافع إليها جديدة كل الجدة . وهناك ظاهرة غريبة ساعدتنا كثيراً على تبديل الأضاليل من أذهان المناضلين : إننا نلاحظ أن جرائم الحق العام كادت تختفي منذ عام ١٩٥٤ . فنحن لا نرى منذ ذلك التاريخ مشاجرات وحوادث قتل لأسباب تافهة . لا نرى رجلا ينفجر غضبه انفجاراً عنيفاً لأن جاره لمح جبين امرأته أو لمح كتفها اليسرى . فكأن النضال القومي قد وجّه

---

١ – واضح من جهة اخرى ان تقمص هذه الصورة التي رسمها الاوروبي كان ذا وجهين. فالاوروبي كان في الواقع يشيد ايضاً بالجزائري العنيف الوحشي الغيور المتكبر الذي يخاطر بحياته من أجل امر يسير او كلمة او ما شابه ذلك . ولنذكر عابرين ان اوروبيي الجزائر ، عندما يلقون فرنسيي فرنسا ، اصبحوا يميلون اكثر فأكثر الى تقمص هذه الصورة التي تمثل الجزائري في مقابل الفرنسي .

الغضب كله ، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الإنفعالية قومية . وهذا أمر قد سبق للقضاة والمحامين الفرنسيين أن لاحظوه ، ولكن لا بد للمناضل ان يصبح واعياً له ، لا بد من الوصول به الى معرفة أسبابه .

ويبقى التعليل .

هل كان علينا أن نقول ان الحرب ، وهي التربة المناسبة للتعبير عن عدوانية اصبحت اجتماعية ، توجّه الميول الإجرامية الوراثية نحو المحتل ؟ إن من الأمور المعروفة أن الهزات الاجتماعية الكبرى تقلل نسبة الجنح والاضطرابات العقلية . فكان في الأمكان إذن أن نعلل نقصان انتشار الجريمة في الجزائر بوجود هذه الحرب التي تشطر الجزائر شطرين ، وتجعل الآلة القضائية والادارية في صف العدو .

ولكن هذه الظاهرة نفسها التي لوحظت في البلاد المغربية أثناء نضالها التحريري ، ظلت قائمة بعد تحرر تلك البلاد ونيلها استقلالها . وهذا يدل على أننا نستطيع ان نؤول انتشار الجريمة تأويلا جديداً بوجود الاستعمار . وذلك ما فعلناه مع المناضلين ، فأصبح جميع الناس عندنا يعلمون الآن ان انتشار الجريمة في الجزائر ليس ثمرة طبعٍ فطر عليه الجزائري ، ولا هو ثمرة بنية الجملة العصبية لديه . ان حرب الجزائر وحروب التحرير الوطني تخلق القادة الصادقين . قالوا لهم : إن الأهالي في ظل الظرف الاستعماري يكونون منحصرين فيما بينهم ، فكل واحد منهم يجنح الى اتخاذ الآخر ستاراً له ، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته . ان المستعمَر الذي يرتمي على بساطه بعد عناء ست عشر ساعة من العمل ، فاذا بطفل من وراء الستارة يأخذ بالبكاء فيمنعه من النوم ، يقول : هـذا جزائري صغير . وحين يمضي يلتمس شيئاً من الدقيق أو قليلا من الزيت عند البقال الذي له عليه دين قديم يبلغ بضع مئات من الفرنكات ، فيرفض البقال ان يعطيه ما يطلب ، فان موجة كبيرة من الكره تجتاح نفسه ، حتى ليتمنى لو يقتل البقال .. والبقال جزائري . وحين يحاصره الجابي طالباً منه دفع « الضرائب » ، بعد أن تهرب أسابيع كاملة ، فإنه لا يُتاح له أن

يصب كرهه على الحاكم الأوروبي ، لأن الجابي يمتص هـذا الكره ، والجابي جزائري . وحين يكون معرضاً لمحاولات قتل يومية : بالجوع، بالطرد من الغرفة التي يدفع أجرها ، بجفاف ضرع الأم ، بهزال الأولاد الذين صاروا الى هياكل عظيمة ، باغلاق الورشة ، بتعطله وتهويمه مع غيره من المتعطلين حول المدير كالغربان الساغبة ، فإنه ينتهي من ذلك الى ان ينظر الى هؤلاء الناس من السكان الأصليين نظرته الى أعداء لا يرحمون . وحين تتمزق قدماه العاريتان بحجر كبير في وسط الطريق ، فإن واحداً من هؤلاء السكان الأصليين هو الذي يكون قد وضع الحجر . والزيتونات القليلة التي كان يستعد لقطفها ، قد أكلها في الليل أبناء فلان .. نعم ان المرء في العهد الاستعماري يمكن ان يفعل اموراً كثيرة في سبيل رطل من الدقيق ، يمكن ان يقتل عدة اشخاص . ولا بد لمن يريد ان يفهم هذه الأشياء ان يكون واسع الخيال او أن يكون قوي الذاكرة . إن في معسكرات الاعتقال رجالاً قتل بعضهم بعضاً في سبيل كسرة من الخبز . وما زلت أتذكر مشهداً فظيعاً :كان ذلك في وهران سنة ١٩٤٤ . من المعسكر الذي كنا ننتظر فيه الرحيل ، أخذ العسكريون يرمون كسراً من الخبز لجزائريين صغار ، فراح الصغار يتشاجرون عليها في حنق وكره . إن أطباء الحيوانات الداجنة يستطيعون ان يوضحوا لنا هذه الظاهرات بتذكيرنا « بالتنافر » الذي يلاحظ في أحواش الدجاج ، حيث تتنافس هذه الحيوانات على حبات الذرة تنافساً لا هوادة فيه ، فالطيور القوية تبتلع جميع الحبوب فيما الأخرى تضوي وتهزل لأنها لا تعدل الأولى هجوماً وعدواناً . ان كل مستعمَرة تميل إلى ان تصبح حوشاً كبيراً ، معسكراً من معسكرات الاعتقال ، لا سيادة فيه لغير قانون السكين .

تغير كل شيء في الجزائر منذ حرب التحرير الوطني . إن جميع ما تملكه أسرة من مؤونة يمكن ان يقدم في ليلة واحدة لجماعة مارة من جماعات المقاتلين . والحمار الوحيد الذي تملكه الأسرة يمكن ان يعار لنقل جريح. وحين يعلم صاحب الحمار بعد بضعة ايام ان حماره قد مات برصاص طائرة ، فانه لا يندفع لاعناً

متوعداً ، ولا يشك في أن حماره قد مات فعلا ، وإنما هو يسأل قلقاً : هل وصل الجريح سالماً ؟

في ظل الحكم الاستعماري يمكن ان يفعل المرء كل شيء من أجل رطل خبز أو من اجل خروف هزيل .. إن علاقات الانسان بالمادة ، بالطبيعة ، بالتاريخ ، هي في العهد الاستعماري علاقات بالغذاء . ان نحيا ، فذلك لا يعني في النظام الاستعماري وفي ظروف من الاضطهاد كظروف الجزائر ، ان نجد قيماً ، وان نساهم في نمو العالم نمواً خصباً منسجماً ، وانما يعني ان لا نموت . البقاء في هذا النظام ، معناه إقامة الأود . كل ثمرة فهي نصر . ليست ثمرة عمل ، وإنما هي انتصار يحسه المرء ظفراً للحياة . لذلك فان اختلاسك الثمر ، وسماحك لخروفك بأن يرعى عشب جارك ، ليس إنكاراً لملكية الغير ، او خرقاً لقانون ، أو استخفافاً . بل هو محاولة قتل . يجب ان يكون المرء قد رأى ، في مناطق القبائل ، كيف يظل الرجال والنساء أسابيع بكاملها ينقلون من قرارة الوادي الى الجبال تراباً بالسلال ، حتى يدرك ان السرقة محاولة قتل وليست عملا غير ودي ، أو غير شرعي . لذلك أن مدار الأمل كله على هذه المعدة التي ما تنفك تضيق ، وما تنفك مطالبها تقل يوماً بعد يوم ، ولكن لا بد من ارضائها مع ذلك. على من تقع المسئولية ؟ الفرنسي يقيم في السهل مع شرطته وجيشه ودباباته. وفي الجبال ليس إلا جزائريون . في الجبال السماء ووعودها بخيرات الحياة الآخرة ، وفي السهول الفرنسيون ووعودهم المحسوسة الملموسة بالسجن والجلد والاعدام . حتمٌ إذن ان ينكفىء المرء على نفسه . تلكم هي نواة ذلك الكره للذات الذي يميز الصراعات العرقية في المجتمعات المنقسمة .

إن ما يُسند الى الجزائري من ميل الى الجريمة ومن عنف في القتل ، ليس إذن ثمرة بنيان جملته العصبية ، ولا هو صفة أصيلة من صفات طبعه ، وإنما هو نتيجة مباشرة للوضع الاستعماري . لقد ناقش المناضلون الجزائريون هذه المسألة، ولم يهابوا أن يعيدوا النظر في الاعتقادات التي ألقاها الاستعمار في روعهم ، وأدركوا ان كل واحد منهم كان ستارة للآخر ، وأن كل واحد منهم كان في

الواقع ينتحر حين يهجم على الآخر . وهذا كله أحدث في الوعي أثراً كبيراً يحتل من الخطورة منزلة أساسية . أعود فأقول إن الهدف الأول الذي يجب أن يسعى اليه المستعمَر المقاتل هو أن يقضي على السيطرة . ولكن عليه ايضاً ان يحرص أشد الحرص على إزالة جميع الأكاذيب التي غرسها الاضطهاد في جسمه .

إن الأفكار التي كان يعلنها الاستعمار في ظل نظام استعماري كالنظام الذي كان قائماً في الجزائر ، لم تؤثر في الأوروبيين فحسب ، بل أثرت ايضاً في الجزائري. والتحرير الشامل إنما هو التحرير الذي يشمل جميع قطاعات الشخصية . إن ما يقوم به المجاهد من نصب للكمائن ومهاجمة للدوريات ، وما يلقاه إخوته من تعذيب وتقتيل ، إن ذلك كله يرسخ عزمه على الانتصار ، ويجدد لا شعوره ويغذي خياله . حين تقلع الأمة بمجموعها ، فان الانسان الجديد لا يكون ثمرة هذه الأمة بعد إقلاعها ، وإنما يوجد معها ، وينمو بنموها ، وينتصر بانتصارها . وهذه الضرورة الديالكتيكية تفسر لنا الاحجام عن التلاؤم مع مخلفات الاستعمار ، ورفض الاصلاحات التي تتناول المظهر وحده . ليس الاستقلال كلمة تقال ، وإنما هو الشرط الذي لا بد منه لوجود أولئك الرجال والنساء المتحررين حقاً ، أعني المالكين جميع الوسائل المادية التي تتيح لهم ان يبدلوا المجتمع تبديلا جذرياً .

خاتمة

هيّا ، يا رفاق ، إنه ليجدر بنا أن نقرر منذ الآن أن ننتقل إلى الضفة الأخرى . الليل الطويل الذي كنا غارقين فيه ، يجب ان نهزّه وأن نخرج منه . النهار الجديد الذي أخذ يطلع ، يجب ان يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا .

ينبغي أن نترك أحلامنا ، أن نترك اعتقاداتنا القديمة ، ان نترك صداقاتنا التي عقدناها قبل بزوغ الفجر . لا نضيّعن وقتنا في دعوات مملة ، وتلونات تبعث على التقيؤ . لنترك هذه الأوروبا التي لا تفرغ من الكلام عن الانسان وهي تقتله حيثما وجدته ، في جميع نواصي شوارعها وفي جميع أركان العالم .

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمّد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها . انقضت قرون وهي ، باسم « مغامرة روحية » مزعومة ، تخنق الانسانية كلها تقريباً . أنظروا إليها الآن وهي تسقط بين تحلل الذرّة وتحلّل الروح .

ومع ذلك نستطيع ان نقول إنها ، في بلادها ، قد نجحت بكل شيء في مجال التحقيق .

لقد أمسكت أوروبا زمام العالم في حماسة واستهتار وعنف ، وانظروا كم يمتد ظل مبانيها وكم يتكاثر ! إن كل حركة قامت بها اوروبا قد حطمت حدود المكان وحدود الفكر . ورفضت أوروبا كل مذلة وكل تواضع ، ولكنها رفضت ايضاً كل حنان وكل رفق .

لم تظهر بخيلة شحيحة إلا مع الإنسان .

فيا أيها الأخوة ، كيف لا نفهم أن هناك ما هو خير لنا من اتباع هذه الأوروبا !

إن هذه الأوروبا التي لم تنقطع لحظة عن الادعاء بأنها لا تهتم إلا بالانسان ، نحن نعلم اليوم كم قاست الانسانية من آلام ثمناً لكل نصر من انتصار روحها .

هيّا يا رفاق ، لقد انتهت لعبة أوروبا تماماً ، وعلينا أن نجد شيئاً آخر . إننا نستطيع اليوم ان نفعل كل شيء ، شريطة أن لا نقلد أوروبا تقليداً أعمى وأخرق ، شريطة أن لا تحاصرنا الرغبة في اللحاق بأوروبا .

لقد بلغت أوروبا من فرط السرعة المجنون الطائشة في سيرها أن زمامها قد أفلت اليوم من كل قيادة ومن كل عقل ، وان دواراً رهيباً يعصف برأسها ويودي بها في هوة يحسن الابتعاد عنها بأقصى سرعة ممكنة .

صحيح أننا في حاجة الى نموذج ، الى مثال ، الى قدوة . وإن كثيراً منا يفتنه النموذج الأوروبي أكثر من اي نموذج آخر . ولكننا رأينا في الصفحات المتقدمة أنواعَ الإخفاق التي تقودنا إليها هذه المحاكاة . يجب أن لا تغرينا بعد الآن ولا ان تُفقدنا توازننا الانجازاتُ الأوروبية والتكنيك الأوروبي والأسلوب الأوروبي .

إني حين أبحث عن الانسان في التكنيك الأوروبي والأسلوب الأوروبي ، لا أرى إلا سلسلة من الإنكارات للانسان ، إلا مواكب من جرائم قتل الانسان .

إن المصير الإنساني ، ومشاريع الإنسان ، والتعاون بين البشر في أعمال تغني كيان الإنسان ، هذه كلها مشكلات جديدة تتطلب تجديدات مبتكرة حقاً .

فلنقرر أن لانقلد اوروبا ولنوجه عضلاتنا وأدمغتنا فياتجاه جديد. لنحاول أن نخلق الإنسان الكلي الذي عجزت اوروبا عن تحقيق الانتصار له .

منذ قرنين قررت مستعمرة أوروبية ان تلحق بأوروبا ، وقد بلغت من النجاح في ذلك ان الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت كائناً عجيباً مشوهاً تضخمت فيه تضخماً رهيباً عيوبُ أوروبا وأمراضها ولا إنسانيتُـها .

أيها الرفاق ، أليس علينا أن نفعل شيئاً آخر غير خلق أوروبا ثالثة ؟ لقد أراد الغرب ان يكون مغامرة للفكر ، وباسم هذا الفكر ، فكر اوربا طبعاً ، إنما سوّغت أوروبا جرائمها، وجعلت استعبادها لأربعة أخماس الإنسانية شرعياً.

لقد قام الفكر الأوروبي على قواعد عجيبة ، وجرى التفكير الأوروبي كله في أمكنة ما تنفك تخلو من الإنسان ، وما تنفك تزداد وعورة ، حتى ألفنا

أن يختفي منه الإنسان شيئاً بعد شيء .

حوار مع الذات لاينقطع ، ونرجسية ما تفتأ تزداد دعارة ، كان ذلك مهاداً لما يشبه الهذيان ، لهذيان يصبح فيه عمل الدماغ عذاباً ، لأن الوقائع ليست فيه وقائع الانسان الحيّ الذي يعمل ويصنع نفسه ، بل ألفاظ ومزاوجات شتى بين ألفاظ ، وتوترات ناشئة عن الدلالات التي تتضمنها الألفاظ . على أنه قد وُجد أوروبيون يهيبون بالعاملين الأوروبيين ان يحطموا هذه النرجسية وان يكفوا عن تجريد الواقع هذا التجريد .

ولكن العاملين الأوروبيين لم يستجيبوا للنداء بوجه عام ، ذلك ان العاملين قد حسبوا انهم هم ايضاً مرتبطون بهذه المغامرة العظيمة التي يقوم بها الفكر الأوروبي .

ان جميع العناصر اللازمة لحل كبريات مشاكل الانسانية قد وجدت في تفكير أوروبا في لحظات مختلفة . ولكن عمل البشر الأوروبيين لم يحقق الرسالة المنطوية به ، وهي ان يستند استناداً قوياً الى هذه العناصر ، ان يغير ترتيبها ، ان يغير كيانها ، ان يبدلها ، ان ينقل اخيراً مشكلة الانسان الى مستوى أعلى كثيراً .

ونحن نشهد اليوم تجمد الدم في شرايين اوروبا . فلنهرب ايها الرفاق من هذه الحركة الساكنة التي استحال فيها الديالكتيك شيئاً فشيئاً الى منطق توازن . ولنطرح مشكلة الانسان من جديد . لنطرح مسألة الواقع الدماغي ، مسألة الكتلة الدماغية للانسانية كلها ، هذه الكتلة التي يجب علينا ان نضاعف ارتباطاتها ، وان ننوع شبكاتها ، وان نعيد الى تواصلها طابع الانسان .

هيّا يا رفاق ! إن الأعمال التي يقع على عاتقنا ان نقوم بها اكثر من ان نستطيع تضييع وقتنا في ألهيات تتسلى بها المؤخرة . لقد صنعت اوروبا ما كان عليها ان تصنعه ، بل لقد أحسنت ، على وجه الاجمال ، صُنعَ ما كان عليها ان تصنعه . فحسبنا اتهاماً لها ، ولكن علينا ان نقول لها بقوة إنه ما ينبغي لها بعد الآن ان تستمر في احداث هذا الضجيج كله . لقد اصبحنا اليوم لا نخشاها ، وعلينا اذن

ان ننقطع عن حسدها .

إن العالم الثالث يقف الآن أمام اوروبا كتلةً عظيمة تريد ان تحـــاول حل المشكلات التي لم تستطع اوروبا ان تأتي لها بحلول .

ولكن يجب علينا ان لا نتحدث عن وفرة الانتاج ، أن لا نتحدث عن الجهد العنيف ، أن لا نتحدث عن السرعة الكبيرة . وليس معنى هـذا « أن نعود إلى الطبيعة » ، وانما معناه أن لا نشدّ البشر الى اتجـاهات تشوههم ، أن لا نفرض على الدماغ ايقاعاً سرعان ما يفسده ويفقده سلامته . يجب علينـا أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الانسان وننتزعه من ذاتـــه ، من صميمه ، وأن نحطمه ، أن نقتله .

لا ، نحن لا نريد اللحاق بأحد ، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت ، ليلاً ونهـاراً ، في صحبة الانسان ، في صحبة جميع البشر . وعلينا ان نجعل القافلة متراصة غير متباعدة ، وإلا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يرى الصف الذي تقدمه ، ولم يستطع البشر ان يعرف بعضهم بعضاً ، واصبحوا لا يلتقون إلا لماما ولا يتحدث بعضهم الى بعض كثيراً .

إن على العالم الثالث ان يستأنف تاريخاً للانسان يحسب حساب النظرات التي جاءت بها اوروبا وكانت في بعض الأحيان رائعة ، ولكنه يحسب ايضاً حساب الجرائم التي قامت بها اوروبا في الوقت نفسه ، وأبشع هذه الجرائم انها قد شتتت وظائف الانسان تشتيتاً مرضياً ، وفتتت وحدته ، كما أوجدت في المجتمع تحطماً وتكسراً وتوترات دامية تغذيها طبقات ، وكما أوجدت على مستوى الانسـانية احقاداً عرقية واستعباداً واستغلالاً بل وقتـــلاً هو ذلك النبذ لمليار ونصف مليار من البشر .

فيا أيها الرفاق ، يجب علينـا أن لا ندفع جزية لأوروبا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستوحي أوروبا.

ان الانسانية تنتظر منا شيئاً آخر غير هذا التقليد الكاريكاتوري ، الفاجر على وجه الاجمال .

اذا أردنا أن نحيل افريقيا الى أوروبا جديدة ، وأن نحيل أمريكا الى أوروبا جديدة كان علينا أن نعهد بمصائر بلادنا الى أوروبيين ، لأنهم سيحسنون التصرف اكثر من أعظمنا موهبة .

أما إذا أردنا ان تتقدم الانسـانية درجة ، اذا أردنا ان نحمل الانسانية الى مستوى مختلف عن المستوى الذي بلغته أوروبا ، فعندئذ يجب علينــا أن نبتكر ، أن نكتشف .

اذا أردنا ان نستجيب لآمال شعوبنا علينا أن نبحث في غير أوروبا .

بل إذا نحن أردنا أن نستجيب لما يتوقعه منا الأوروبيون فيجب ان لا نرد اليهم بضاعتهم ، أن لا نرسل اليهم صورة ، ولو مثـــالية ، عن مجتمعهم وعن تفكيرهم بعد ان اصبحوا يشعرون نحوهما باشمئزاز شديد .

فمن أجل أوروبا ، ومن أجل أنفسنا ، ومن أجل الانسانية ، يجب علينا يا رفاق ، أن نلبس جلداً جديداً ، أن ننشىء فكراً جديداً ، أن نحـــاول خلق انسان جديد .

الفهرست

	صفحة
مقدمـــة	٥
تصدير بقلم جان بول سارتر	١٥
في العنف	٣٩
الانطلاق العفوي ، عظمته ومواطن ضعفه	١٠٣
مزالق الشعور القومي	١٤١
في الثقافة القومية	١٩٣
الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية	٢٣٥
خاتمـة	٢٩٣

طبع في
دار غندور
للطباعة والنشر والتوزيع

٢٥٠٠/٢/١

الدكتور فرانز فانون الذي كان علماً مـن أعلام الفكر السياسي ، وبطلاً من أبطال النضال في معركة التحرر من الاستعمار ، يحدثنا في هذا الكتاب الذي كتبه قبل أن تخترمه المنية وهو في ريعان الشباب ، عن دور العنف في معركة التحرر ، مستشهداً بكفاح التحرير الوطني الجزائري خاصة ، هـذا الكفاح الذي خاضه ببسالة ووقف عليه حياته ، كما يحدثنا عن دور التنظيم الشعبي والتوعية السياسية للجماهير المكافحة ، في حماية الاستقلال بعد انتزاعه ، وفي بناء المجتمع الثوري التقدمي الذي لا يمكن إلا أن يكون اشتراكياً .

٥٠٠ ق. ل.
٦٠٠ ق. س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت